تراث الجمهورية

صفحات مجهولة من كتاب الثورة

بقلم: أنور السادات

تقديم: جمال عبد الناصر

مقدمة

بقلم الرئيس

جمال عبد الناصر[1]

فرغت من تصفح كتاب القائمقام أنور السادات، وساءلت نفسي عما دفعني لهذا الإعجاب به، فجاءني الرد المنطقي فورا، أنه مضمونه المتحلي بسلامة الأسلوب، وقوة التعبير، وطابع البساطة في سرد الحوادث، وعرض المواقف، في الوقت الذي أري فيه المؤلف قد تجنب الحديث عن نفسه.

فنجده لم يعمد لكتابة قصة حياته، ولم يقم بتحقيقات صحفية كبري، بل قدم لنا سلسلة رائعة متصلة من المشاهدات التي مرت تحت بصره وسمعه، فجاء كتابه مجموعة لصور حية، جمعتها ريشة رسام ماهر، وصورتها في صورة واحدة، أبرزت من مجموعها حقائق وأسانيد، تتيح لنا دراسة أحوال مصر المعاصرة عن كثب.

إن شخصية أنور السادات، لجديرة بالإعجاب، خليقة بالإطراء، فعبقريته العسكرية الممتازة، وشجاعته، ورباطة جأشه، وإخلاصه وتفانيه في خدمة المثل العليا، إلي جانب قوة إرادته، وتنزهه عن الغرض، ورقة عواطفه، وميله الغريزي للعدالة والإنصاف، كل هذه الصفات جعلته أهلاً للقيام بدور هام في التمهيد لثورة 23يوليو، 1952 والسير بها قدماً في سبيل النجاح.

لقد استخدم أنور السادات هذه السجايا في جميع أدوار حياته، كما أحسن استخدامها في خدمة القضية الوطنية، فنجده قد سجن في شهر نوفمبر عام 1942بأمر العدو المستعمر، ثم أعيد اعتقاله عام 1944لنشاطه الوطني، ولكم تحمل من ألوان الحرمان والتعذيب، فلمتهن عزيمته، ولم تتزعزع عقيدته، ولا ولم يفت ذلك في عضده، بل ازداد رسوخا وإيمانا، ولا غرو، فعلي قدر أهل العزم تؤتي العزائم، فكان له من سنوات سجنه الطويلة فرصة للتفكير، والتفكير مليا، حتى رجع بتمعنه وتأملاته إلي آلاف السنين الخوالي، وطالع ما كان خلالها من مطامع العالم التي شخصت وتجمعت حول هذا البلد الطاهر، فظل الشعب المصري الآبي الكريم رازحا تحت نير الاستعباد، ردحا طويلا من الزمان، متخلفا بذلك عن تقدم سائر البلدان، فما كاد يفر من معتقلة، حتى صار رمزا حيا للمطالبة بالحرية، ومعبرا صادقا للشعور الجامع الذي سري في شعب وادي النيل أجمع، من البحر الأبيض المتوسط حتى أعالي خط الاستواء، مطالبا بالتحرر من الظلم والاستعباد والطغيان.

- ها هو ذا يكافح بهمة لا تعرف الكلل فى سبيل المثل العليا، فى الوقت الذى نرى فيه الجموع العالمية، تطالب أيضاً بتحقيق العدالة الاجتماعية، ولا جدوى فى إنكار مطالبها.

[1] هذه المقدمة كتبها الرئيس جمال عبد الناصر للمقالات التي كتبها أنور السادات عندما جمعت في كتاب للمرة الأولى.

لقد عمل الضباط الأحرار جاهدين، من أجل إذكاء الحماسة فى القلوب التى ابتأست، وإشعال الجذوة فى النفوس التى اتقدت، حتى يستطيع الشعب الكريم، مجابهة عدوه اللدود الممثل فى ثلاث "الملكية والإقطاع والاستعمار".

كان النظام الملكى الرجعى المنوط بأسرة أجنبية، حائلاً دون تقدم البلاد، فكان أول لزام على الثورة ان تهدمه تماماً وتقضى عليه، لتفسح الطريق أمام نهضة البلاد، ثم أصبح لزاماً عليها بعد ذلك أن تقتلع جذور الفساد والمحسوبية والرشوة والرجعية والحزبية المغرضة البغيضة، حتى تطهر البلاد من الأدران، وأخيراً وليس بآخر كان لزاماً على الثورة أن تعبئ الشعور العام، وتدرب الجموع المتكتلة الحاقدة على عدوها الغاصب لمجابهة ذلك العدو بكل ثقة واطمئنان.. وقد كان.

وكم من مرة تأرجحت سفينة الثورة، فى ذلك اليم المتلاطم الأمواج، إذ لم يكن من اليسير مقاومة قوى الانحلال الهدامة، وما إليها من تقاعس وتهاون وخيانة. كان الكفاح طويلاً مريراً، ولكن المثابرة لم تذهب سدى، فظلت السفينة ثابتة عاتية تتكسر الأمواج على دروعها القوية الواحدة تلو الأخرى، ومضت السفينة تشق طريقها قدماً فقامت مصر الحديثة، مصر الجمهورية الفتية.

والآن، وقد استرد الشعب عزته، واستعاد حريته، وأصبح يشعر بكرامته، ويدرك حق الإدراك مصالحه العليا، المؤسسة على التحرر من الاستعمار والمساواة المدنية والسياسية، نجد ان الفوارق الاجتماعية التى كانت شاسعة البين، قد انهارت فاسحة الطريق أمام القيم الأخلاقية التى تقدمتها وقد تضافرت فيها الجهود، وتوجهت بعزيمة لا تعرف الكلل إلى الأعمال الناهضة الإنشائية، فالشعار الصريح الواضح لعهدنا الجديد هو التعاون التام للعمل والإنتاج.

لقد تسلمت الثورة القيم الوطنية وديعة بين يديها، وستسير بالشعب المصرى قدماً فى طريق الإنشاء والتعمير، المحاط بجو الهدوء والاستقرار، وستتقدم بالأمة فى سبيل الرقى والازدهار.

شاهدت مصر خلال السنوات العشرين الأخيرة، أحداثاً بدت لأول وهلة، متشعبة الأطراف. متعذرة الفهم والإدراك، فإذ ما حققنا فيها النظر عن كثب، لراعنا ما فيها من خيوط مرتبطة بعضها ببعض، تقودنا لنتيجة واضحة. فروح السخط التى سدت الجيش من جراء فساد الحكم، والتألم المرير الذى شعر به المصريون أثر احتلال أرض الوطن وعزوف المسئولين عن إجراء إصلاحات أساسية واجبة، وحرب فلسطين، غلى غير ذلك... فإذا ما اقتفينا أثر هذه الخيوط لتكشف أمامنا منطق واضح سليم، أدى بنا للنتيجة الحتمية التى حدثت، وجعلت ما كان يبدوا غامضاً فى بادئ الأمر، واضحاً جلياَ فى نهايته.

لقد حلل المؤلف فى كتابه الشخصيات والأحداث تحليلاً تحليلاً دقيقاً، مما جعل الكتاب مرجعاً قيماً يعتد به، وحاولت جاهدا صان اوضح مضمونه وان ألخص فصوله المتعددة، فلم أجد جيراً من هذه الجملة المختصرة: "إنه ولا شك لمن خلاصة البواعث الخفية، والأسباب السيكولوجية، لثورتنا السامية".

وقف الكتاب قرب منتصف عام 1952، سنة التحرير والبعث، التى سجلت أحداثاً خطيرة لبلادنا، إذا ما استعدنا ذكراها، لرأينا عهداً بائداً تغرب شمسه، وعهداً جديداً ناهضاً تشرق أنواره.

شكراً للمؤلف فقد أتاح لنا أن نرى فى الحاضر المزدهر الخصيب، ما يبشر بالمستقبل الباسم الزاهر.

جمال عبد الناصر

مقدمة

بقلم: أنور السادات[1]

هذه صفحات مجهولة من تاريخ الثورة التى انبعثت فى مصر فى 23 يوليو 1952، فجعلت من هذا التاريخ نقطة تحول بين عهدين، عاشت مصر فى أحدهما راسفة فى قيود الذل والعبودية والمهانة، وتطلعت إلى الحياة فى ثانيهما تطلع العزيز إلى العزة، والكريم إلى الكرمة.

هى صفحات مجهولة.. ولكنها ليست ما يجهله المصريون من صفحات.. فدون نشر التاريخ الكامل لهذه الثورة، اعوام يجب أن تمر، وتستقر فيها كثير من الأوضاع وتكتمل فيها كثير من العناصر، وينتهى فيها شقاء الشعب الصابر المكافح من عدوان صارخ على حريته وبقايا آثمة أورثتها أرضه قرون العبودية، وأجيال الاستعمار.

إنها ثورة الشعب.. ولهذا فمن حق هذا الشعب أن يعرف من تفاصيلها الدقيقة كل شئ..

وهى ثورة مصر.. ولهذا فمن حق مصر أن تجد من يسجل لها على الورق، عبرة جهاده، وثمرة كفاح أبنائها، ليحفظ لها فى التاريخ عهداً من الكفاح تريده لتشترى به عزة وكرامة ومجداً وحياة وافرة أبية.

[1] كتب هذه الكلمات قبل أن يصبح رئيسًا لمصر بنحو 18 عامًا.. ولذلك آثرنا أن يبقى العنوان بقلم أنور السادات.. وليس الرئيس أنور السادات.. وكما تعود هو أن يكتب في الجمهورية.

الجزء الأول

رقم الإيداع 15137 / 2006

الترقيم الدولى: I.S.B.N 236 - 528 - 6

الفصل الأول

ذهب الملك.. تحيا القيادة*

مفاجأة مع الفجر:

إن أحداً لم يكن يتوقع شيئاً عندما نام ليلته فى نهاية اليوم الثـانى والعشـرين من شـهر يوليو عام 1952، فلما أصبح الصباح كان الناس فى شـبه ذهـول. فقـد تـوالت الأحـداث منذ الفجر على صورة لم يألفها هذا الشعب ولا كانت تستطيع أن تطوف بخياله، بعد أن تاهت منه أحلامه وآماله، فى ظلمة الأيام وسواد الليالى، طيلة أشهر ستة ثقيلة مرة..

نكسة الكفاح:

رأى كفاحه المسلح من أجل حريته، ينتكس فجأة يوم 26 يناير*.. ورأى مدينتـه العزيـزة تشتعل بالنار التى انطفأت فى اليوم نفسه من معسكرات أعدائه... ورأى أبنـاؤه الـذين ذهبوا يذودون عن شرفه وحريته، يعودون إلى المدينة مكبلين بـالأغلال، ليقضـوا أيـامهم

* نشر في العدد الأول من جريدة "الجمهورية" الصادر في يوم الإثنين 7 ديسمبر 1953 - 30 ربيع الأول 1373.
* 26 يناير 1952 حيث وقع حريق القاهرة

خلف أسوار المعتقل.. ثم رأى نفسه، وقد أصبح فى نظر الحاكمين خطراً داهماً على أرضه، ووطنه ومدينته، فألزموه البيت كلما جاء المساء، عقاباً له على انطلاق آماله، وإلزاماً له بالتكفير عن خطاياه.

الخيانة والدسائس:

ورأى الإشاعات والمخاوف تملأ الجو من حوله، حلقات الخيانة والدسائس تحيط بحياته، وخمساً من الوزارات تتابع على مقاعد حكمه العرفى، لم يعرف لماذا أتت، ولا لماذا ذهبت ولكنه لعنها جميعاً فى سره وفى علنه... وما كان يملك غير هذه اللعنات، وقد سلب القدرة على العمل، وسدت فى وجهه منافذ الآمال..

وفجأة وبدون مقدمات، تحرك الجيش وتوالت الأحداث وفى صباح 23 يوليو، كان الناس بين مصدق ومكذب.. كانت الفرحة تشملهم، ولكنها فرحة تشوبها المخاوف، وتنتابها الظنون والتكهنات لأن البيان الذى طلع عليهم لم يشف نفوسهم، ولم يضئ أمامهم كل المصابيح، وجاء الأصدقاء إلى القيادة، ونفوسهم تحترق على مصيرنا، إذا نحن لم نجهز على الملك، إذا نحن حصرنا هذه الضربة فى نطاق لجيش وحده، كما فهموا من البيان..

وأخذوا يذكرون الفساد والاستهتار وما آلت إيه البلاد من فوضى سياسية وخلقية ومعنوية.. ويطالبونها بالعمل الكبير الحاسم قبل أن تضيع الفرصة، وتفلت الآمال..

وكان هؤلاء جميعاً أصدقاء.. مجرد أصدقاء شباناً مخلصين.. ولم يكن بينهم واحد فقط من رجال السياسة وقتذاك..

ومضى يوم 23

ومضى يوم 24

ومضى يوم 25

مرت هذه الأيام الثلاثة، ولم نسمع فيها كلمة من سياسى واحد، ولم نر فيها وجهاً لسياسى واحد...

لقد لزم فيها جميع السياسيين بيوتهم، واعتصموا بالصمت والحذر، فلم يتحرك منهم إلا أولئك الذين ظنوا أن الملك باق على عرشه، فهرعوا يقيدون أسماءهم فى سجل التشريفات... يوم 24

وجاء يوم 26.

حدثت المعجزة:

وما إن وافت الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح ذلك اليوم، وكان ثـد عـرف فى دوائـر السياسـة أن فـاروق قـد وقـع التنـازل [1] وأنـه بسـبيل مغـادرة البلاد فى السـاعة السادسة، حتى وقعت المعجزة..

وكانت المعجزة، هى خروج السياسيين من جحورهم، وتقاطرهم علينا فى وفـود، وفـود من السياسيين، ومن جميع الألوان والمذاهب والاتجاهات، تطرق أبوابنا فى مقر القيادة بثكنات مصطفى باش، إبتداء من الساعة الحادية عشر والنصف من صباح ذلك اليوم..

جاءوا إلينا جميعـاً، حـتى أولئـك الـذين قيـدوا أسـماءهم قبـل الأمس.. ولاء وإخلاص فى سجل تشريفات الملك..

دور البطل:

ولم يضيع السياسيون وقتاً بعد ذلك..

فمنذ الصباح فى يوم 27، بدأت كل هيئة سياسية، بل بدأ كل سياسى فى هذا البلد، يعد نفسه لمعركة جديدة يحلم فيها بدور البطل..

لا شئ قد تغير، فى نظر السياسيين والهيئات السياسية.

لا شئ، إلا اختفاء شخص الملك، وظهور أشخاص رجال القيادة..

كان لسانهم الناطق يقول: ذهب الملك تحيا القيادة!!

وهذا التغير الشكلى، قـد يسـتتبع تغيـيراً فى الأسـاليب، وتجديـداً فى أسـلحة السياسـة، ولكنه لا يستتبع أبداً، تغييراً فى الهدف... الهدف الرئيسى احـتراف السياسـة منـذ وجـد فى مصر محترفوها.

سلاح جديد:

ومثلما خاض السياسيون المعارك تحت أقـدام فـاروق فى سـبيل الوصـول إلى أسـلاب الحكم ومغانمه، بدأوا منذ اللحظة الأولى لطرده يخوضون معركة جديدة، يقتسمون فيه هذه الأسلاب والمغانم...

وكان لابد أن يختارِ كل منهم سلاحاُ جديداً يناسب لون المعركة الجديدة.. وكـان لابـد ان يكون السلاح براقاً أمام أسلحتهم القديمـة.. وكـان هـذا الـبريق هـو المنطـق المعقـول الذين يحاولون الدخول به إلى الأذهان فإذا ما انفتحت عقول الناس لهم أكملـوا القصـة بأكاذيب وأراجيف تعودوا صياغتها لكى يصلوا إلى ما يبتغون.

[1] تنازل الملك فاروق عن عرش مصر فى يوم 26 يوليو 1952.

وكانت عقول الناس فعلاً مهيأة لقبول أى منطق معقول.. وقد رأى الناس أشياء لم يستطيعوا فهمها وسمعوا عن أسماء لا يعرفون عن أكثر أصحابها شيئاً وترددت فى أذهانهم إشاعات لا يستطيعون تكذيبها لأن الحقائق لا تزال مستورة عن عيونهم.

أين الحقيقة؟

كان الناس يريدون أن يعرفوا عن أمر هذه الثورة ومن أمر الرجال الذين يقودونها كل شئ.. كانوا يريدون أن يعرفوا من نحن وأين كنا وكيف اجتمعنا وكيف أعددنا خطتنا وما هى تفاصيل هذه الخطة وكيف نفذناها وماذا ننتوى.. وهل لدينا مشروعات معدة وماذا يدور فى رؤسنا وماذا سوف نصنع.. وكيف نجحنا..؟

هل من ورائنا قوة معينة.. وما هى هذه القوة..؟

هل فى صدورنا إتجاه معين.. وما هو هذا الاتجاه..؟

أسئلة كثيرة كانت تدور برءوس المصريين جميعاً ولم يكونوا يجدون لها جواباً منا.. ولكن.. كانت الإشاعات تجيب..! وانطلقت أول إشاعة تقول إن هذه الثورة ثورة إخوانية يقودها ويوجهها من وراء الستار الإخوان المسلمون.

وكانت هذه الإشاعة تطوف بالناس وبين يديها دليل يؤكد صدقها.. فقد كان أول إجراء إتخذته الثورة كجزء من برنامجها الضخم فى إزالة آثار الماضى البغيض ومحاسبة المسئولين عنه بالحق والعدل، هو الأمر الذى صدر بإعادة التحقيق فى قضية مقتل المرحوم حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين.. ولم يقل الناس أن هذا مصرى قد قتل بليل وأطاحت بالتحقيق فى مقتله ظروف مريبة واتخذت فيه إجراءات شاذة.. ثم طوى على سر دفين وقاتل مجهول.. لم يقل الناس هذا ولم يقولوا أن من حقهم كمصريين أن يعاد التحقيق فى هذه الجريمة المنكرة وأن يؤخذ جناتها بالقصاص.. ولكن قالوا أن خلف الثورة، جماعة الإخوان المسلمين..

وبدأ بعد ذلك تساؤل كثير..

إن كانت هناك صلة بين هذه الثورة وبين الإخوان المسلمين.. فمتى بدأت!

وإلى أى مدى وصلت؟

وماذا كانت أهدافها؟

وماذا أنتجت؟

وهل استمرت أم انقطعت؟ فى جملة واحدة:

ما هى قصة الثورة مع الإخوان المسلمين؟

بداية القصة:

سؤال واحد، يعود بالذاكرة إلي أثني عشر عاما قبل ظهور هذه الثورة.. إلي عام 1940 عندما بدأت قصتنا مع الإخوان.

وهذه القصة لا يعرفها المصريون، ولابد جمهرة الإخوان ولا يعرفها العدد الأكبر من رجال قيادة الإخوان.. وكل ما يعرفه المصريون هو ما ذاع من إشاعات بعد ذلك بأيام.

..والوفد أيضا:

ومع ذلك... فليس هذا هو كل ما لابس هذه الثورة من مظاهر، ومن إشاعات.. ومن محاولات...

فقد كان هناك الوفد أيضا..

وللوفد أيضا قصة مع هذه الثورة قصة لا يعرفها المصريون...ولا يعرفها أيضا عدد كبير من رجال الوفد أنفسهم.

وصاية الوفد:

فالناس لا يعرفون أن اتصالنا بالوفد قد بدأ قبل ظهور الثورة بزمن طويل.. ولا يعرفون أننا في وقت من الأوقات قد وضعنا خطتنا علي أساس أن نأتي بالوفد ونفرضه علي فاروق، كشرارة أولي للثورة، ثم نكمل نحن التنفيذ الخطر.

لا يعرف الناس شيئا من كل هذا، ولا يعرفون كيف تخاذل الوفد عن القيام بدوره في هذه الخطة، ولا لماذا..

ولكن هذا كله يعرفه زعماء الوفد.. الذين حاولوا بعد يوم 27 يوليو أن يفرضوا وصايتهم علي الثورة.. وأن يمهدوا لهذه الوصاية بسيل كبير من الإشاعات والروايات، والمظاهر.. وأن يحاولوا خلق أمر واقع يحيطون به الثورة ويلبسونها لم تفكر فيه يوما من الأيام!!

سر النشاط:

وقد بدأ هذا بمجرد عودة مصطفي النحاس وفؤاد سراج الذين من الخارج في الأسبوع الذي تلا طرد فاروق.

عاد الرجلان... فعاد النشاط إلي أقصاه في صفوف الوفد.

الاجتماعات المتتالية تعقد..

ومندوبو الصحف يسهرون الليالي في جار الزعامة...

وأعمدة الصحف تمتلئ كل يوم بالأخبار والأسرار والتكهنات والقـرارات الخطـيرة الـتي يتخذها رجال الوفد..!

وعاد الشباب الوفدي فورا يملأ ردهات النادي السعدي، وعـاد الهمس وعـادت الهتافـات وسارت الإشاعات، تشكل الوزارة وتملأ المناصب الهامة في الدولة وتتكهن بالمسـتقبل وتحدد تواريخ الأحداث الخطيرة المقبلة.

وسمع الناس أيضا هذه الإشاعات... ثم لم يسأل أحد منهم نفسه سؤالًا واحدًا، يسـتطيع أن يقضي عليها..

لماذا عاد النحاس وسراج الدين من مصيفهما بأوروبا عقب الثورة مباشـرة؟! أيمكن أن يكون الزعيمان الكبيران قد ارتحلا إلي أوروبا إبان أعنف الأزمات السياسية التي وقعت في تاريخ مصر... وخلال أحلك الليالي التي مـرت بشـعب مصـر منـذ احـترقت القـاهرة واضطربت كل موازين الحكم فيها، أيمكن أن يكون الرجلان قد سافرا إلي أوربا ليفكـرا هناك بهدوء فى أمر الشعب الذي يزعمـان زعامتـه، وهـذا البلـد الـذي حطمـه الخـراب والطغيان.

لماذا يتركان البلاد في محنتها، فلا يعـودان إليهـا إلا يـوم يـترامي إلي أسـماعهما حـديث الثورة، فينبه فيهما شهوة جائعة إلي الغنيمة، وقد ظنا أنه أصبحت سهلة بلا حواس؟!

ولكن سؤالا كهذا لم يطف بخاطر أحد ممن سمعوا إشاعات الوفد تنطلق في كل يوم..

وبينما كـان النـاس في دوامـة الإشـاعات كـان سـراج الـدين يعـد خطـة الاسـتيلاء علي الغنيمة...

وكانت خطة الوفد فذة في نوعها يحملها إلينا رسولان.

الفصل الثانى

فؤاد سراج الدين يعين 12 ملكا بعد فاروق[1]

بلغ النشاط الوفدي أقصاه وملأت الإشاعات جميع الآذان. إشاعات أن الوفد قد سيطر علي الموقف تماما، وأن قادة الثورة قد أيقنوا أنه لا سبيل لهم إلي تحقيق أي هدف من أهداف الثورة ألا إذا احتضن الوفد هذه الأهداف..

وكانت عودة النحاس وسرج الدين من الخارج عقب الثورة مباشرة والزيارة التي قام بها النحاس إلي الرئيس في الساعة الثانية بعد منتصف الليل، من الدعائم القوية التي استندت إليها هذه الإشاعات لتصل الناس في صورة الحقائق الثابتة المقررة.. ولم يبق أمام الوفد ألا أن يقنعنا نحن أيضا بصحة هذه الإشاعات التي أطلقها.. عنا!

خطة المستقبل:

حدث كل هذا كما كان يحدث دائما عندما يقع تغيير وزارى([2]).. كان الوفد في هذه المرة يسير وفق خطة علي درجة طيبة من الأحكام..

فكان ما نسمعه من فؤاد سراج الدين هو نفس ما نسمعه من الشباب الوفدي جميعا علي اختلاف ثقافتهم وألوانهم...

وكان الهدف من هذا النشاط والهتافات والإشاعات والتحركات، هو إشعار البلد أولا بأن الوفد يضع خطة المستقبل بوصفه حزب الأغلبية الذي يمثل الشعب وبوصفه القوة الحقيقة التي تستطيع هذه الثورة أن ترتكز عليها، ولا تستطيع أن تعمل شيئا بدونها...

كان الوفد يريد أن يجعل من هذه الدعوى أمرا واقعا، لكي يتسلل إلينا بعد ذلك، ويواجهنا بهذا الأمر الواقع: أن القاعدة الشعبية الوحيدة في البلاد، هي قاعدة الوفد، وأننا لا نستطيع أن نعمل دون الإرتكاز عليها..!

وفي صباح يوم من أيام أغسطس 1952، أي بعد الثورة بأسبوعين تقريبا، أيقظوني من نومي في منزلي لكي أقابل ضيفين يطلبان مقابلتي لأمر خطير..

---

[1] نشر في العدد الثانى من "الجمهورية" الصادر في يوم الثلاثاء 8 ديسمبر 1953 - 1 ربيع الثانى 1373.

[2] توجد كلمات أخرى غير واضحة في النص المنشور في "الجمهورية".

رسل سراج الدين:

دخلت غرفة الاستقبال، فوجدت زميلين من زملاء المعتقل.. هما في الـوقت نفسـه من شباب الوفد ودعاته المتحمسين.. وكان طبيعيا أن نتذاكر شيئا عن الماضي الذي جمعنـا في معتقل واحد في عهود الظلم والإرهاب.. ولكنني أحسست أنهما قـد أعـدا حـديثهما، ورتباه ونمقاه، بحيث يلقي كل منهمـا حلقـة من حلقـات الحـديث فيتبعهـا زميلـه بحلقـة أخري، تكملها في نفس الاتجاه وفي صورة الكلام العرضي الذي يجلب بعضه بعضا دون تحضير!

ودخلا فى الموضوع.

ثورة الشعب:

قال أحدهما:

- أنت تعلم طبعا تماما أن هذه الثـورة ليسـت ثـورة الجيش، وإنمـا هي ثـورة الشـعب.. وكل مصري حريص أشد الحرص على أن تصل هـذه الثـورة إلي أهـدافها كاملـة، فنحن بهذا مسئولون جميعا مسئولية متساوية نحو الثورة..

أمنت طبعا علي هذا الدخول... فاستطرد الضيف الوفدي نحو هدفه:

- إن الكتلة الشعبية لا تتمثل في أية هيئة أو حزب في هذا البلد، إلا في الوفد... والوفـد هو التنظيم الوحيد الذي يستطيع أن يسند هذه الثورة لأنه هو الذي مهد لها بل هو الـذي بدأها فعلاً...

وأوشك زميله أن يتم الكلام.. لولا أني استوقفته لحظة أساله فيها، كيف بدأ الوفد هــذه الثورة، وكيف مهد لها..؟ فقد تكون معلوماتي عن قصة الثورة وقصة والوفـد معلومـات ناقصة.

المعلومات الناقصة:

قال الضيف الثاني:

- ألا تعلم أن هجوم الوفد في الفترة الخيرة علي فاروق هو الذي شجع الجيش علي أن يضـرب ضـربته..؟ وألا تعلم أن الوفـد في الفـترة الأخـيرة كـان يعـدى العـدة لإعلان الجمهورية...؟ وألا تعلم أنه كان متصلا بكم فعلاً في الجيش؟

وقبل أن أحاول الإجابة... سألني ضيفي في حماس:...

- كيف تولون علي ماهر الحكم، وهو الرجل الذي لا يستند إلي الشعب ولا إلي أي حزب من الأحزاب؟

وأكمل صديقه قائلاً:

- إن علي مـاهر رجـل عـاش طـول حياتـه يـدبر المـؤامرات، وأنـه في سـبيل أحقـاده وكراهيته لبقية الأحزاب سينحرف بالسلطة وسيستغل هـذه الثـورة لنفسـه، ولن يظفـر بإيمان الشعب به فى يوم من الأيام..

سادة الموقف:

وكنت ساكتا، لأعطي الفرصة للضيفين العزيزين، فأكمل الثاني:

- إن هذه الثورة لن تستطيع أن تسير أو تحقق شيئا ما لم تستند إلي أكبر قوة سياسـية في البلد وهي الوفـد.. ثم إن سـراج الـدين علي أتم الاسـتعداد للتعـاون معكم في كـل شـئ.. وأنت تعـرف أنـه كـان - وهـو وزيـرا الداخليـة - يـوعز لنـا نحن الشـباب الوفـدي بالمظاهرات التي تهتف بسقوط فاروق، في نفس الوقت الذي كان فيه يتظـاهر بـالولاء للملك.. وتعرف أيضا أنه هو الذي كان يقود معركة القنال لولا أن الملك حـرق القـاهرة، لأنه تبين ما يدبره له سراج الدين..!

ولم أكن أنا أسمع هذا الكلام لأول مرة فقد كان هذا الكلام شائعاً في البلاد، وكان بعض الناس قد بدأ يؤمن به فعلا.. ولكن كنت انتظر النتيجة التي يريد الضيفان أن يصلا إليها.

طلب واحد:

ولم تطل الجلسة أكثر من ساعة ونصف.. ولم تزد الطلبات الصـديقين عن طلب واحـد فقط هو أن تتم مقابلة بيني وبين فؤاد سراج الدين نتفاهم.

ولم يكن ما يمنع من هذه المقابلة.. وقد تمت فعلاً.. فقـابلت سـراج الـدين، وقابـل هـو غيري أيضا من الزملاء.

وكانت مقابلات مثيرة.. رأينا فيها أمورا كثيرة علي حقيقتها وفهمنـا مـا أراده الوفـد بنـا وبالثورة وبالبلاد كلها...

وأكملنا بها قصة الوفد...

ولكن الناس لا يزالون يجهلونها.. بل يجهلها الوفدين أنفسهم.. وكل الـذي عرفـه النـاس في فجر هذه الثور، هو ما أشاعه الوفدين من أنهم "أسياد الموقـف، شـاءت الثـورة أم لم تشأ!" وما دعموا به إشاعاتهم من قصص كثـيرة وروايـات محبوكة عن قيـام الثـورة بالاتفاق مع الوفد.. وعن مستقبل الثورة الموضوع في أيدى رجال الوفد!

...وهدف واحد:

كانت اسطوانة واحدة، يرددها سراج الدين كما رددهـا الضـيفان اللـذان أشـرت إليهمـا، وكما رددها كل من لهم بالوفد صلة من الصلات..

وكنا نسمع هذا الحديث فلا نأبه به، ونكتفي بالابتسام.. فقد كنا نري أمـام أعيننـا مأسـاة خلقية من مآسي العهد الماضي، تريد أن تتخذ لها مسرحا جديدا نشـترك نحن في بنائـه وإخراج مسرحياته..

وكنا نبتسم أيضا. لأن هؤلاء الـذين كـانوا يخـاطبون الشـعب بوصـفهم "أسـياد الموقـف، شاءت الثورة أم لم تشأ" كانوا يتحـدثون إلينـا بلهجـة أخـري، بنفس اللهجـة الـتي كـانوا يتحدثون بها إلي فاروق.. وكانوا يهدفون من وراء هذه اللهجة إلي هدف واحد، هو نفس هدفهم في أيام فاروق: الحكم

الدستور عند الوفد:

وكـانوا في الـوقت نفسـه يعتقـدون أنهم منـاورون بـارعون، أمـام فئـة من العسـكريين يجهلون السياسة وفنونها.

وبدأ الوفد يفصح عن نفسه أكثر أو بدأ يفضح بنفسه...بصورة ظاهرة.

بدأ بلوح لنا بسلطات فاروق وأبهته وصولجانه وهي سلطات تكفي إذا وزعت علي أثـني عشر رجلا، أن تجعل منهم إثـني عشـر ملكـا لا ينقص أحـدهم شـئ من مظـاهر الملـك وسطوته..

- واتركوا لنا بعد ذلك سياسة الحكم، وكل مسئولية...

ثم أردف في إغراء واضح:

- ونحن علي أتم استعداد لتنفيذ كل ما تشيرون به.

وظلت هذه الجملـة تـتردد في أذني وقتـا طـويلا.. إنهـا نفس الكلمـة الـتي كـانت تقـال لفاروق من كل رجل يأتي به ليحكم البلاد باسم الشعب.

إنها الدستور الفعلي الذي جري عليه حكم مصر، منذ وجد فيهـا دسـتور وبرلمـان.. فقـد كـان دسـتور الشـعب صـفحات من الـورق، تغطي بهـا النـواحي الشـكلية للحكم" الديمقراطي!!" في البلاد... أما الدستور القائم المعمول به، فقد كان دستور "الانحناء".

كان الدسـتور يتلخص في هـذه الجملـة الفـذة "ونحن علي أتم اسـتعداد لتنفيـذ كـل مـا تشيرون به!!"

وهذا الدستور الذي أراده الوفد لهذه الثورة أيضا.!.

لماذا ثار الجيش؟!

هل تغير شئ في نظر السياسيين؟!

هل ثار الجيش من أجل هذا الشعب؟!

هل ثار هذا الشعب من أجل حقوقه ورفاهيته ومستقبلة؟!

أبدا.. لم يحدث أي تغير.. إلا أن شخص فاروق قد غاب، ليظهر في مكانه أشخاص رجال القيادة.. يقنعون بالمظهر البراق وصولجان الملك وسطوته.. ويتركون مسئولية الحكم لأسياد الموقف، يسوسونه، لا بما تشير به مصلحة هذه الشعب، ولكن بما تشر به نحن.. أصحاب الصولجان الجديد.

إنها سياسة الوفاق التي بدأها سراج الدين مع فاروق، أراد أن يضطلع بها معنا نحن أيضا.

إن رجال الوفد، أسياد الموقف، وأصحاب الأغلبية، والمسيطرون علي القاعدة الشعبية في البلاد، هم علي أتم استعداد لأن يفعلوا باسم الشعب كل ما نطلبه نحن منهم، علي ألا نتحمل أية مسئولية مباشرة، وهم بهذه الصفات كلها كفيلون بإقناع الشعب.. وتنفيذ رغباتنا.. نحن أصحاب الصولجان الجدد!! إنها سياسة "ذهب الملك تحيا القيادة"! التي اعتقد السياسيون أنهم قادرون علي طينا وفرض وصايتهم علينا.. والعودة إلي استلاب مغانم الحكم.. الذي لم يكن يعني في نظرهم إلا الأسلاب والمغانم.

كانت البلاد في واد وكان السياسيون الذين تزعموها جيلًا كاملا في واد آخر سحيق.

كانت البلاد تفكر في أهدافها التي طال عليها انتظارها.. كانت تفكر في الوسائل العملية التي تخلصها من آلامها الطويلة وشقائها الكثير.. من الاستعمار الجاثم صدرها. من آثار الملكية البغيضة في ربوعها وفي نفوس أبنائها من الإقطاع الذي يهدد كيانها.. ولكن الزعماء لم يكونوا يريدون أن يحسوا بشىء من كل هذا كانوا يريدون أن يعودا إلي كتم أنفاس هذا الشعب وتكبيله بأغلال العبودية والفقر والمذلة، ليظلوا مسيطرين علي مصيره متحكمين في ثروته ناهبين أرزاقه وخيرات أرضه.

تفسير التخاذل:

وكانت هذه الحقائق صدمة مروعة لنا نحن الذين أردنا في يوم من الأيام أن نفرض الوفد علي فاروق كجزء من خطة كبيرة درسناها في وقتها بإمعان وإحكام.. وعندما تخاذل الوفد عن تنفيذ دورة في الخطة، ولم نحاول تفسير هذا التخاذل بأكثر من أنه.. خوف.

ولكنه لم يكن خوفًا، وكان شيئًا آخر سيظهر جليا عندما يقرأ القارئ قصتنا مع الوفد!

إن قصة الثورة، قد اتصلت في فصول منها بالإخوان المسلمين واتصلت في فصول منها بالوفد..

وقال البعض إن الثورة قد أصبحت في حضانة الوفد..

وقلنا إنها صورة مصرية لمصر..

أما لماذا اتصلت بالوفد.. ولماذا اتصلت بالإخوان.. وكيف كانت هذه الاتصالات، فموعدنا غدا لنبدأ في سرد تاريخ هذه الثورة منذ بدأ التمهيد لها.. من زمن بعيد.. إلى اللقاء..

الفصل الثالث

نار... على جبل الشريف![1]

[1] نشر في العدد الرابع من "الجمهورية" الصادر يوم الخميس 10 ديسمبر 1953 - 3 ربيع الثانى 1373.

يظن كثير من الناس أن هذا الثورة، دبر لها تشكيل من الضباط أثر حادث معين جمعهم علي هدف وتدبير...

وفي أجواء الظنون، تجد الإشاعات كثيرا من نقط الارتكاز. تجد النقطة الأولى في حرب فلسطين.. بين أشلاء الضحايا وخيانات فاروق وعصابته...

وتجد النقطة الثانية، في تحقيقات الأسلحة الفاسدة وتدخل الملك لحفظ الدعوى بالنسبة لحاشيته..

وتجد النقطة الثالثة، في تصرفات الجيش وكبار ضباطه الذين وضعوا أنفسهم في أحذية فاروق.

ولقد كانت كل هذه الأحداث فعلا، من الأحداث التي شغلت اهتمام الضباط الأحرار، واستحثت خطاهم ولكن نشأة الثورة والتمهيد لها لم يستمد من حادث من الأحداث..

فقد نشأت هذه الثورة نشأة طبيعية، ونما التمهيد لها نموا طبيعيا لأنها كانت في كل مراحلها، تفاعلا قويا بين ضمير جيش مصر، وضمير شعب مصر..

ضباط صغار:

متي نشأت آذن.. وأين نشأت؟.

لنرجع إلي الوراء...

إلي عام 1938

في منقباد!...

في هذه البيئة المصرية الخاصة، حيث يشعر المصري، بعناصره العريقة تملأ كيانه وتسيطر عليه...

وفي الشتاء.. حين يقسو الجو، وتتمرد العواصف فتزداد الروابط بين الأصدقاء، يقاومون بها قسوة الطبيعة وينتصرون بها علي عواء الرياح.

هناك حول نار في معسكر المناورات بتباب الشريف، كنا نقضى طرفًا من كل ليلة.. أصدقاء كلهم صغار السن، صغار المناصب، كبار الآمال وافرو الشباب...

ضباط لم تزد رتبة أحدنا عن الملازم ثان... نتحرق طول النهار في الجبل، فكأنما الجبل مرآة تعكس نار القلوب..!

- وكانت في القلوب نار.. نار تنطفئ لان وقوها يتجدد في كل لحظة من إحساساتنا الشابة المرهفة.. ومما يقع أمام أعينا كل يوم من الصباح إلي المساء.

كانت آمالنا الكبيرة، وعزة شبابنا تصطدم كل يوم بعدد كبير من الأحداث..

فقد كنا ضباطا صغارا...

وكان لنا قواد.

وكان هناك أيضا.. إنجليز..!

وكان قودانا المصريون لا عمل لهم إلا إذلالنا.. وإلا الانحناء أمام الإنجليز.

وكنا نري هذا الوضع الكريه، فنحترق.. ونسخط.. ولكننا لم نكن نستطيع أن نتكلم.

وماذا يستطيع ملازم ثان أن يفعل في داخل النظام العسكري وفي تلك الأوضاع الرهيبة إلا أن يسكت، ويكظم الغيظ، ويدفن النار في حشاه...

هكذا كانت أيامنا....

ولكن ليالينا كانت تختلف اختلافا كبيرا.

ففي جو من الصداقة والألفة، كنا نجلس فنمـزح، ونـذيب في هـذا المـرح، شـقاء اليـوم الطويل.. شقاء الجسد، وشقاء النفس وشقاء الغربة في جبل بعيد.

صديق.. وأصدقاء:

ولا ندري لماذا كان يتوسطنا دائما شاب رفيق وديع، عامر النفس بالصفا لم يكبرنا سنا، ولا رتبة... فقد كنا جميعا أبناء "دفعة"!

ولكنه كان الملتقى الذي جمع صداقتنا جميعا.. كنا نمرح، فنضحك عاليا، ونسخر من كل شئ.. ولا ترحم ألسنتنا أحدا.. وأحيانا نغني..!

وكان يصنع كل ما نصنع، ولكنه كان مع ذلك أيضا، يفكر... يفكر بقلبه، ويفكر بوعيه.. ولا نكاد ننطلق في المرح، حتى نجد موضوع هادئة ...يثيره بيننا جمال عبد الناصر..

وربما كان موضوعا شخصيا، وربما كان موضوعا عاما.. وربما كان ذكريات عابرة تمر به من حياته، فلا يلبث أن يستنبط منها فكرة أو رأيا، يثير بيننا مناقشة طويلة.. هادئة.

وكان جمال يطوي نفسه علي كثير من الآلام الشخصية.. آلام يذكرها منذ توفيت والدتـه وهو صغير، فأثرت وفاتها في حياته تأثيرا كبـيرا.. لعـل من أظهـر عناصـره شـدة الحيـاء التي طبعت حياته حتى اليوم..

وكان إلي حيائه وهدوئه، يمثل الشخصية الكاملة لأبناء الصعيد.. فهو يكيف الحيـاة بمثلـه "الصعيدية" الخاصة،

فتجده وديعا رقيقا ملئ الصدر بالحنين، إذا لمست نفسه عاطفية قد لا تحـرك أحـدا من الناس.. ولكنه ينقلب أسدا هصورا، في اللحظة التي يشعر فيهـا بـأن أحـدًا، فكـر مجـرد تفكير في الاعتداء عليه...

كان هذا الصديق بيننا، صورة حلوة للإخاء، والصداقة والاتزان، والهدوء والكرامة.. فكان لهذا كله يستأثر باحترامنا جميعا فكأنه في سكوته وهدوئه وطابعه الخاص، معني مجسم حي، لكل المعني والانفعالات التي يمكن استخلاصها، من تفاعل العواطف الإنسانية المتضاربة، في إنسان.. قست عليه الحياة....

وهكذا.. وحول هذا الرجل، التأمت مجموعة من الضباط الصغار الأصدقاء.. لم يكن يدري أنها ستكون نواة لمجموعة أكبر وأكبر، وأن اجتماعها في تلك التباب البعيدة لن يكون صدفة تمر. ويتشتت من بعدها الشمل الأصدقاء وإنما سيكون البدء الحقيقي لجهاد عنيف ومحن، كثيرة وعمل خطير.

السلطان عبد الحميد:

وإن كنا قد أخذنا قودانا الكبار في ذلك الوقت بالسخرية العنيفة نطلقها في ساعات المرح فقد جاء اليوم الذي لم تعد فيه السخرية تغني عن الآمنا شيئا...

فقد ألقى علينا القدر بقائد جديد للمنطقة لم يكد يصل إليها حتى شعرة بأن الذي وصل غاز من غزاة الترك!

كان يري نفسه بيننا مثلما يري السلطان عبد الحميد نفسه بين معالم إسطنبول، الآمر الناهي الذي لا يناقش..

وأصبحت الحياة كريهة منذ اللحظة التي وصل فيها اللواء محمود سيف إلي منقباد.

كان هذا هو اسمه.. ولكننا كنا نسميه السلطان عبد الحميد.. لأنه كان يفرض علينا تقاليد السلاطين.

وبدأنا نيأس من خدمة الجيش.. وأعد بغضنا استقالته فعلا من هذا الجيش الذي يضم بين قواده.. السلطان عبد الحميد!

ولكننا نري صبر جمال فنعجب.. ونري هدوءه وصموده لهذا الذل الطويل فتسكن نفوسنا، فقد كان جمال يعيش بأمل لم نحلم نحن به في تلك الفترة السحيقة من حياتنا في منقباد...

واشتدت الصلات بين كل منا، وبين المجموعة الكاملة.. حتى أصبح كل منا يفكر بعقلية الكل وأصبح من حق كل منا أن يتصرف باسم الجماعة وأصبحت هذه الجماعة يوما بعد يوم قيدا جديدا لتصرفاتنا، لأن كل عمل يأتيه فرد منها سينسب إلي الجماعة شاءت أم لم تشأ.. عملت بالأمر أم لم تعلم..!

وأني لا ذكر تلك الأيام والليالي، أذكر مرحنا وآلامنا وأيام صداقتنا الجميلة الأولى.. والسلطان عبد الحميد الذي أراد أن يذل رقابنا، كما ذل رقبته الإنجليز، وراح يتجول في صورة شرسة مضحكة مبكية معا في منقباد.

جملة من جمال:

اذكر كل هذا، واذكر أننا في خلال تلك الفترة الحالمة من حياة الشباب.. بدأنا نفكر ذات ليلة...

وقال جمال:

أنهم الإنجليز أصل بلاءنا كله.

وكانت مفتاح تفكير طويل.. لم يلبث أن أصبح خطي عملية متتابعة..

كنا جميعا نعلم أن الإنجليز هم أصل بلائنا كله.. وكنا جميعا نكره الإنجليز.. ولكن هذه الكلمة قالها جمال، وكأنه يحدد لنا رسالة كبري، لا ينبغي أن يتخلي عنها أحد.

وشهدت تباب الشريف، والنار الموقدة عليها عهدا مقدسا... ربط مجموعة صغيرة من الشباب الصغار.

لم يربطهم بعمل معين، ولا بزمن محدد، ولكن ربطهم.. بفكرة الحياة.

خلايا:

وبدأنا نجمع حولنا أنصارا لفكرة الحياة، كل منا يختبر عددا من الضباط الآخرين.. ويكون في محيطه خلية صغيرة يثير فيها هذه الفكرة، ويري مدي استعدادها للعمل يوم يأتى وقت العمل...

وبدأنا نخطو الخطوة الأولى فنحسب لها حسابا ونلقي الكلمة فتفكر قبل إلقائها مرتين..

بدأنا ننزع من أعماقنا زهو الشباب، ونحل فيها الشعور بالمسئولية والاقتصاد في الأمل.

لقد قتل جمال فينا المرح، وكنا في شرخ الشباب!!

وجاء الدرس الأول الذي أفدناه بعد ذلك فأصبح درس حياتنا..

الكل والواحد:

فقد مرت أيان قليلة.. كنا فيها لانزال في فترة تكويننا الأولى..

وإذا بالشىء الذى نسيناه جميعا يقع.. وكنا خليقين بتوقعه فإن ضابط الجيش لا يستقر في مكان واحد طويلا... وإن هي إلا لحظة مفاجئة، حتى كنا قد تفرقنا شعاعا.. واحد في الإسكندرية والثاني في طنطا، والثالث في القاهرة.. والرابع في مرسي مطروح.

وكانت الحرب إذ ذاك قد بدأت. والأعصاب توترت ورأينا حلمنا الكبير يذوب ويتساقط كما تتساقط حبات الندي عالقة بزهرة أو تذوب في شعاع الصباح.

وافترقنا..

ولكن الحلم لم يذب.. والفرقة لم تستطيع أن تكون حاجزا بين هذه المجموعة في أقسى الظروف التي حلت بها.

وفهمنا مع الأيام هذا الدرس وهو أن الصداقة القوية عند ما تقوم علي نقاء وطهر، وعندما تتركز أيضا حول فكرة فإنها قادرة علي الحياة مهما غرقت الحياة بين الأصدقاء. بل هي أكثر من ذلك تستطيع، وحدها صنع المعجزات.

والذي وقع بعد تلك الأيام، هو الأثر القوي لهذه الصداقة النقية التي ربطتنا.. فقد فرقت الظروف كثيرا، وجمعت بيننا بعد ذلك كثيرا.

وكنا إذ نفترق لا تفارقنا الفكرة ولا عهد الجماعة، وكل ما هناك أن أحدنا كان يجد الفرصة للعمل، فيعمل.. يعمل مستقلا بإرادته في ظاهر الأمر، ولكنه في حقيقته يكون مقيدا بإرادة الجماعة المتمثلة في فكرتها الكبيرة.. وعهدها المقدس.

وقد تختفي من بيننا أسماء في كثير من الأوقات كما اختفي أسم جمال عبد الناصر عامين كاملين، بين ديسمبر 1939 وديسمبر1941. إذ كان في هذه الفترة قد نقل إلي السودان.

ولكن الذي كان يبقي في ميدان العمل.. كان يعمل... يعمل بإرادته ولكن باسم هذه الجماعة وفكرتها الأصلية ويعمل بإرادته ولكنه يرجع إلي من يستطيع الرجوع إليه من جماعتنا.. في كل فرصة تواتيه لذلك...

ولم تعد الأيام تمر هينة ولا رفيقة فقد بدأت أحداث كثيرة تقع... بدأت بالحادث الأول عام 1940.. وكان ميدانه ميدان القتال في مرسي مطروح.

وإلى اللقاء غدا مع أول عمل من أعمال هذه الجماعة.. جماعة الضباط الأحرار.

الفصل الرابع

تشمبرلين يرسل برقية لإقالة على ماهر[1]

نقلنا جميعا من منقباد.. وتفرقت جماعتنا بين وحدات الجيش في مختلف أنحاء البلاد.. وبين السودان العزيز.

وقد كان السودان من نصيب جمال عبد الناصر فقد نقل من منقباد إلي إمبابة.. وبعد شهر واحد نقل إلي العلمين، وقضي هناك أربعة شهور، ثم نقل مرة أخري إلي أبي زعبل، ومنها إلي السودان...

وفي فترة تنقلات جمال جمع علي الفكرة عدداً آخر من الضباط.. وكنا نحن أيضا نصنع مثل هذا..

ولم نكن نعرف علي وجه التحديد ماذا سوف نعمل. لقد كان هدفنا أن نقوم بدورنا في تخليص البلاد من جنود الإنجليز ولم تكن الفرصة لذلك تسنح أثناء الحرب، وقد سيطر الإنجليز علي كل مرفق من مرافقنا.. واحتلوا جميع قواعدنا وطرق مواصلاتنا.. بل لقد كنا نحارب إلي جانبهم أيضا...

وسنحت أول فرصة لنا في مرسي مطروح.. ولكنها كانت فرصة مفاجئة لم تستطيع أن تحقق منها هدفا كبيرا.. واستطاعت هي أن تكشف للإنجليز عن وجود اتجاه عملي ضدهم في جيش مصر.

كانت نيران الحرب قد اقتربت كثيرا من أرضنا العزيزة.. فقد بدأت جيوش إيطاليا تغزو منطقة مرسي مطروح..

وكان الدفاع عن هذه المنطقة منقسما بين ثلاثة قطاعات:

[1] نشر في العدد الرابع من "الجمهورية" الصادر يوم الجمعة 11 ديسمبر 1953 - 4 ربيع الثانى 1373.

قطاعين بريين، يحتلها الجيش المصري. وقطاع بحري يدافع عنه الإنجليز.. كنا نحـارب.. رغم أن مصر لم تكن قد أعلنت الحرب.

وكانت سياط العذاب التي تلفعنا نحن الجنود والضباط، تتلاحق علينا مـع الليـل والنهـار ومع الأحداث المتعاقبة التي تمر بها البلاد.

كان موقف مصر من هذه الحرب موقفا مائعا.. ولم يكن من السهل تحديده في صـورة مفهومة واضحة.

وكـان من المؤكـد أن هـذا الموقـف أن تحـدد، فلن تكـون مصـر هي الـتي تحـدده علي التأكيد...

ويلات الحرب:

كانت سياسة مصر التي أعلنتها رئيس حكومتها عند إعلان الحـرب هي سياسـة "تجـنيب مصر ويلات الحرب".

ولم تكن مصـر تسـتطيع أن ترسـم لنفسـها سياسـة أوضـح من هـذه أو أكـثر حسـما وتحديدا.. فقد كانت هناك المعاهدة.. وكانت جنـود الاحتلال تملأ بلادنـا، وطـائراتهم تجثم على صدور مطاراتنا وتنطلق منهـا إلي الميـادين القريبـة الحافلـة بـالموت... ودبابـاتهم تختال في شوارعنا ومن فوقهـا جنـود حمـر الوجـوه.. ومخـازن ذخـيرتهم ترصـع أرجـاء الوادي بالبارود والقنابل وأسـلحة الـدمار.. وكـانت أرضـنا فـوق ذلـك حقلا كبـير يشـرب حبات العرق من جباه آباءنا وأخواتنا ليخرجها قمحا للغاصبين..

وكان موقفنا نحن ضباط الجيش وجنوده، هو الموقف الضنك.. فسياسـة "تجـنيب مصـر ويلات الحرب" لم يكن معناها أننـا لن نحـارب فعلا.. وكـان الـذي يشـقينا هـو أن نسـأل أنفسنا: نحارب من أجل من؟!

برقية:

أليس مفروضا أن يحارب جيش مصر من أجل مصر، وألا يحارب أبدًا إلا من أجلها؟!

فهل كانت سياسة "تجنيب مصر ويلات الحرب" تحمل هذا المعني واضحا وترسم خطته كاملة إلي نهايتها!

لقد كانت تشير إلي شئ، أو ترنو إلي وهذا الشيء وهـذا الأمـل هـو الـذي فهمتـه مصـر منها.. وفهمه الإنجليز أيضًا.

فهمته مصر، فحاولت أن تستبشر به وفهمه الإنجليز فأبرق رئيس وزرائهم "تشـمبرلين" إلي سفير إنجلترا "كليرن" برقية قصيرة حاسمة:

أى: يجب أن تستقبل حكومة علي ماهر.

وكانت هذه البرقية كأنها القضاء الذي لا يرد.. فاستقالت فعلا حكومة علي ماهر، لأنها أشارت بسياستها إلي شئ ورنت إلي أمل، وفهم الإنجليز الشىء والأمل!

لم يكن أمر مصر أذن في يدها، بل كان في أيدي الإنجليز.. وكنا ننظر إلي المستقبل علي هذا الوجه، فلا يلبث أن يرتد إلي الماضي.. إلي الحرب العالمية الأولي التي سيقت فيها مواكب آبائنا مسخرين إلي ميادين القتال يحفرون الخنادق ليموتوا في أحشائها، ويحملون الروث ليدفنوا تحت أكوامه، ويلعقون العرق ليوفروا كؤوس الشراب للإنجليز!

مخاوف.. وحراب:

ويجلب الماضي صور يعضه بعضا، فلا يشير إلي بارقة أمل في مستقبل البلاد تحت هذه الأوضاع...

يجلب صورة الثورة المجيدة التي أشعلها الشعب عام 1919 فأطفأها زعماؤه يوم وصلوا إلي الحكم وأصبحوا أحزابا.. مطايا للإنجليز...

ويجلب صورة الثورة المجيدة التي أشعلها الشباب عام 1935 ليجمع الأحزاب في حزب واحد لمصر، فاجتمعت الأحزاب في حزب في حزب واحد ليوقع معاهدة الصداقة والتحالف مع الإنجليز!

ويجلب صور شقاء كثير! فقر، وعري، وانقسامات وتضحيات ودماء.. يتحالف فوق أنقاضها الزعماء والإنجليز!

وما تغير الزعماء

ولا خرج الإنجليز...

ولكن قامت الحرب.. وبدأت بوادر شقاء جديد.

ماض كله حسرات، ومستقبل كله مخاوف، وحرب قائمة لابد أن تصلاها، حتى في ظل "سياسة تجنيب مصر ويلات الحرب".

وفجأة علمنا أن أوامر من قيادتنا ستصدر لنا.. وعلمنا هذه الأوامر أيضا وكانت هذه الأوامر، تقضي بأن تنسحب الفرقتان المصريتان اللتان تقومان بالدفاع في القطاعين البريين لتحتلهما قوات بريطانية حتى تنفرد بريطانيا بالدفاع عن المنطقة كلها.

وإلي هنا كانت الأوامر بسيطة يمكن قبولها، ولكن الشق الأخير فيها كان يقضي بأن نترك سلاحنا، ونسلمه للقوات البريطانية التي ستحتل القطاعين وهاج الضباط وماجوا...

وتحرج الآمر جدا...

الرد العنيف:

وصممنا علي ألا نترك سلاحنا.. ولو أقاضى ذلـك أن نمـوت عن أخرنـا.. وكنت أجـد في هذا الأجراء فرصة مناسبة، لتجعل من "فكرة الحياة" حقيقة مجسمة، يشارك في حمل أعبائها الجيش كله، والشعب كله أيضا. وكنت أعتقد أن أي احتكاك منا بالإنجليز سـيقفز بفكرة الحياة مائة عام إلي الأمام..

وبدأنا نضع خطة كان من زملائنا فيها البكباشي أحمد حسن الملحق العسـكري الآن في روما، وجمع الضباط الصغار حتى رتبة يوزباشي بلا استثناء.

كانت قوتنا هناك قوة مختلطة، تسـمي "القـوة الحقيقيـة"... وكـانت تتكـون من خلاصـة الجيش المصري، تضم زهرة سلاح المدفعية وبقية الأسلحة الأخرى..

فوضعنا خطتنا علي أساس أن تعود هذه القوات، فتحتل وهي في طريقهـا إلي القـاهرة كل الموافق العامة، ثم تفرض حكومة علي ماهر مرة أخـري، بعـد اسـتقالته المعروفـة المدوية..

كنا إذ ذاك في شهر سبتمبر، وكان علي ماهر قد استقال في شهر يوليو. وكان الشـعور القومي ضد الإنجليز قد بلغ أقي مداه في البلاد.. وصـدرت الأوامـر لنـا فعلا بالانسـحاب وبترك أسلحتنا.. فرفضنا ترك السلاح وتقدمنا إلي القاهرة...

خطة لم تنفذ:

ولأكثر من سبب تبين لنا أن تنفيـذ هـذه الخطـة سـيكون وبـالا علينـا.. فقـد أدركنـا علي أساس تقدير الموقف، أننا لن نستطيع أن ننجح فيها إلي نهايتها...

فاكتفينا بالعودة بأسلحتنا كاملة.. واعتبرنا هذا نصرا كافيا لنا في مرحلة جهادنا الأولي.

ولم تكتشف:

وعلي الرغم من كل الأحاديث التي دارت بشأن هذه الخطـة والتمهيـدات الـتي كنـا قـد بدأنا نقوم فعلاً بها، فإن الإنجليز لم يكتشفوا منها أي شـئ .. ولكنهم في الـوقت نفسـه أدركوا سيطرة روح العداء لهم علي ضباط الجيش الصغار.. وأيقنوا أن هـذه الـروح قـد تلعب دورا أخطر من ذلك الدور في يوم قريب.

وبـدأنا نحن نكـون هـدفا لعيـون الإنجلـيز حيثمـا كنـا.. في القـاهرة أو في أي سـلاح من أسلحة الجيش ننقل إليه...

واجتمعنا ثانيا:

والكسب الأكبر الذي كسبناه من هذه الحادثة، هو عودتنا إلي القاهرة فقد جمعتني القاهرة فورا بجميع أصدقاء منقباد.. ماعدا جمال الذي كان لا يزال في السودان...

وفي القاهرة بدأت اجتماعاتنا تتوالى وتتركز... واخذنا نفكر في شئ تقوم به علي أساس من الدراسة الكاملة، وبحيث يكون توقيته الكامل في أيدينا نحن لا في أيدي الظروف وحدها.

وكان في خيالنا رجلان.. نريد أن نتصل بهما، وأن نشركهما معنا في عملنا الكبير..

على ماهر.. صاحب البيان المشهور والاستقالة المدوية.

وعزيز المصرى رئيس هيئة أركان حرب الجيش، وهو الرجل الذى وقع اختيارنا عليه عندئذ، لكى يقود ثورتنا.

وحاولنا أن نتصل بعلى ماهر، فلم نستطع..

وحاولنا أن نتصل بعزيز المصرى، فاستطعنا... ولكنا اتصلنا في طريقنا إليه.. بالإخوان المسلمين أيضاً..!

وإلى اللقاء في قصتنا مع الإخوان المسلمين أيضًا.

الفصل الخامس

الصدفة التي جمعتنى بالمرحوم حسن البنا[1]

وصلنا من مرسى مطروح إلى القاهرة بأسلحتنا كاملة وجمعتنى القاهرة بأصدقاء منقباد...

وكانوا جميعا يفكرون فيما كنت أفكر فيه... كانت تسيطر علينا "فكرة الحياة"....

وقررنا أن نتصل بعلى ماهر، لنعرف منه جميع التفاصيل التي كانت تنقصنا عن الأسباب والملابسات الخفية التي أدت إلى استقالته.. فقد كان كل ما نعرفه هو برقية تشمبرلين: "على ماهر يجب أن يستقيل"!

وقررنا أن نتصل بعزيز المصرى لنعرف منه كل التفاصيل الخاصة بمتاعبه في الجيش وتدخل الإنجليز... ولكى نأخذ رأيه فيما نقدم عليه من عمل كبير.

وراح كل منا يفكر في الأجواء المحيطة به، على الوسيلة التي يتم بها الاتصال بالرجلين دون إثارة شبهات المخابرات البريطانية...

وأخيرا جاءت الصدفة في مولد النبى...

الزمن: ليلة مولد الرسول من عام 1940

والمكان: سلاح الإشارة في المعادي

وكنت إذ ذاك ضابطًا برتبة ملازم في هذا السلاح..

ومولد الرسول في مصر، موسم من مواسمها، يعرف الأطفال فيه عرائس الحلوى، والأحصنة الصغيرة الملونة يركبها فرسان العرب... وتعرف فيه البيوت والدواوين والمجالس النيابية ودوائر السياسة وقصور الأغنياء، الحلوى الحمصية والسمسمية.. ثم.. لا شئ بعد ذلك..!

وعلي هذا الوجه مرت بمصر هذه الليلة، كما مرت بها دائمًا ولكنها لم تمر بي كذلك، فقد كانت، من حيث لا أدري ليلة البدء لأحداث كثيرة متتابعة سمع المصريون أطرافا منها، بعضها خافتا كالهمس، وبعضها مدويًا.. كالقنابل والمتفجرات!

كنا جلوسًا في إحدى غرف السلاح، نتناول العشاء ونتكلم... وكان جنود هذا السلاح، وأغلبهم بطبيعة عملهم في سلاح الإشارة فنيون متطوعون، قد اعتادوا مني كثيرًا أن أحاضرهم واعتادوا مني دائما أن أتناول طعامي معهم، وأن أحدثهم بصراحة وأن يحدثوني بمثلها.

كنا في أثناء استراحتنا وطعامنا، أخوانا مصريين لا ضابطًا وجنودًا..

[1] نشر في العدد الثالث عشر من "الجمهورية" الصادر في يوم السبت 19 ديسمبر 1953 - 12 ربيع الثانى 1373ه

ودخل علينا ونحن جلوس للعشاء في ليلة مولد النبي جندي من جنـود السـلاح الفنـيين، لم يكن موجودا بيننا منذ بدء هذه الجلسة، وقدم إلينا صديقا له يلتحف بعبـاءة حمـراء لا تكاد تظهر منه شيئًا كثيرًا..

لم أكن أعرف هذا الرجل إلي ذلك اليوم، ولم يثر دخوله ولا ملبسة اهتمامى، ولم يلفت نظري.. وكل ما هناك أني صافحته ورحبت به، ودعوته إلي تنـاول العشـاء معنـا، فجلس وتناول العشاء..

وفرغنا من الطعام، ولم اعرف عن الضيف شيئا آلا بشاشة في وجهـه ورقـة في حديثـه وتواضعا في مظهره.

ولكني عرفت بعد ذلك عنه شيئًا كثيرًا...

فقد بدأ الرجل بعـد العشـاء حـديثًا طـويلًا عن ذكـري مولـد الرسـول .. كـان هـو اللقـاء الحقيقي الأول بيني وبين هذه الذكري..

كان في سمات هذا الرجل، كثير مما يتسم به رجال الدين:

عباءة، ولحيته، وتناوله شيئًا من الدين بالحديث...

فليس حديثه هو وعظ المتدينين.

ليس الكلام المرتب، ولا العبارات المنمقة، ولا الحشو الكثير ولا الاستشـهاد المطـروق، ولا التزمت في الفكـرة، ولا ادعـاء العمـق، ولا ضـحالة الهـدف، ولا إحالـة إلي التـواريخ والسير والأخبار.!

كان حديثه شيئًا جديدًا...

كان حديث رجـل يـدخل إلي موضـوعه من زاويـا بسـيطة ويتجـه إلي هدفـه من طريـق واضح... ويصل إليه بسهولة أخاذة... وكان هذا الرجل هو المرحـوم الشـيخ حسـن البنـا مرشد الإخوان المسلمين.

الموعد الأول:

وانتحي الرجل بي ناحية، وتجاذب معي حديثا قصـيرا أنهـاه بـدعوتي إلي زيارتـه في دار جمعية الإخوان المسلمين قبل حديث الثلاثاء... كانت الجمعية إذ ذاك لا تـزال في دارهـا القديمة التي تشغلها الآن شعبة الجوالة التابعة لها..

عينان من بعيد:

وذهبت يوم الثلاثاء.

لم أكـد أضـع قـدمي في مـدخل الـدار، حـتى شـعرت بكثـير من الرهبـة، وكثـير من الغموض...

دخلت من حجـرة كبـيرة جـدا، من هـذه الحجـرات الـتي عـرفت بهـا الأبنيـة المصـرية القديمة...

وقطعت هذه الحجرة بأكملها لأنفد من باب صغير..

ونفـذت من هـذا البـاب، لألقي أمـامي شـيئا كـالحجرة، أو شـيئا كـالممر الطويـل بين حجرات..

وإنما كان مكتبة..

كان صفوفا طويلة من الأرفف المتقاربة الملتصقة بالحوائـط، وقـد صـفت عليهـا مئـات كثيرة من الكتب ملأت جو المكان برائحة الورق المخزون...

وعلي بعد كبير في آخر هذا الممر.. كانت هناك عينان فقط ترسلان بريقا قويا، هما كـل ما يظهر من الرجل الجالس خلف مكتبه.. مرشد الإخوان.

وتحدثت مع الرجل طويلا في ذلك اليوم...

ولكنه لم يفتح لي كل نفسه...

تحدث معي كثيرًا.. ولكنه لم يخرج عن دائرة الدين أبدًا.

وحصر نفسه في هذه الدائرة، ولكنه جعل يتسع بمحيطها شيئا فشيئا حتى أصبحت أفقا كبيرا مليئا بالمعاني...

ورغم كل المحاولات التي بذلتها فقد فشلت...

ورغم كل ما تطـرق إليـه الحـديث من شـئون الجيش، فقـد ظـل الرجـل ملتزمـا ناحيـة الدين، وإهمال الناس له ورسالة الإيمان التي يجب أن يرتكز عليها جهادنا، ووجوب نشر هذه الرسالة في صفوف الجيش.

سؤال خطير:

وتكررت زياراتي بعد ذلك للرجل.

وبدأنا نتحدث في كثير من الشئون العامة.. وبدأت أوقن الرجل يطوي صـدره فعلا علي مشاريع كبيرة وخطيرة.. لا يريد أن يفصح عنهـا .. كمـا أيقن الرجـل أيضـا أني لا أنتـوى الانضمام إلي جمعيته، ولعله شعر أو أدرك أني أعمل شيئا، وأني لست أعمله وحدي...

ولم يرد الرجل أن يعرض علي الانضمام إلي جمعيته، كما أنه لم يحاول آن يسألني عن أي صلة إي بآخرين.. ولكني فهمت أنه كان يدرك أشياء كثيرة من الحقيقة في مناسبة جاءت بعد ذلك بأيام..

وفي يوم تقابلت معه، وكنت ثائرا مكتئبا تملاني المرارة والألم... فقد صدرت الأوامر في ذلك اليوم بإعطاء الفريق عزيز المصري أجازه إجبارية من رياسة أركان حرب الجيش.

وكان معلوما لنا أن وراء هذه الفعلة أيدي الإنجليز.. وكان مجرد العلم بهذا كافيا لإثارة نفوسنا.. ودفعنا إلي أي عمل قد يراه الكثيرون - في مثل ظروفنا - من أعمال الجنون!

الذين خانوا الجيش:

فقد كنا نعرف ما أراد عزيز المصري لجيش مصر من قوة ومتعة وكنا قد بدأنا نتعيش بالنهضة الفعلية التي بعثها الرجل في الجيش.

وكنا نسمع كثيرا من القصص التي تروي عن محاولات عزيز المصري الإصلاحية، والمشاكل والعقبات التي توضع أمامه، والأحابيل والشراك التي تنصب له. والتي عرفت بعد ذلك للآسف الشديد أن الذي كان ينصبها له هم كبار ضباط الجيش المصري نفسه.

وكنا قد تحققنا من الشرك الأخير، شرك الخيانة الحقيقية تقع من ضباط كبار...

فقد جمع الفريق عزيز المصري لواءات الجيش ليسألهم عن مدي حاجتهم في أسلحتهم إلي جهود البعثة الإنجليزية، ومدي - ما حققته هذه البعثة فعلا من الإصلاح...

وكان الجيش كله، ما عدا هذه الفئة يتمني اليوم الذي تزول فيه وصمة البعثة الإنجليزية من وحداته واسلحته.

وتكلم عزيز المصري مع الضباط الكبار كلام مصري لمصريين وكلام قائد لضباطه...

ولكنهم خرجوا من هذا الاجتماع لا ليفكروا ولا ليبحثوا ولا ليسكتوا ولكن لكي يذهبوا إلي السادة الإنجليز ويقصوا عليهم حديث قائدهم... وعادوا إليه فرادي...

عاد كل منهم. وطلب مقابلته لكي ينهش في لحم الآخرين.

ولعل كلا منهم كان يرمي من وراء ذلك إلي الظهور أمام الرجل بمظهر الوطني، نفيا للشبهة عن نفسه، وإلصاقا بها في الآخرين، وإذا حدث أن وقعت الواقعة وعلم الرجل حديث الخيانة...

ولكن عزيز المصري، فهم كل شئ، وأدرك أنه بين جماعة من اللواءات لا يفضل واحد منهم أخاه إلا في خسة النفس وبطلان الضمير...

وجامعيون أيضًا:

ولم تكن خيانة اللواءات هي كل ما أحاط بعزيز المصري من الشراك.. فقد كان الإنجليز أحرص من ألا يرصدوا عليه كل حركة من حركاته فاستطاعوا بأساليبهم المختلفة أن يملأوا وظائف مكتبه بجماعة من الضباط الشبان الحاصلين علي شهادات دراسية عليا، والحاصلين علي شهادة إنجليزية فذة في نوعها هي شهادة التخصص في أعمال التجسس للإنجليز ([1]).

كل هذا كنا قد بدأنا نسمع عنه.

وكل هذا قد تحققنا منه بعد ذلك.

وجاءت الإجازة الإجبارية لعزيز المصري كنا قوس كبير يدوي في آذاننا لكي نبدأ العمل...

***

وطال الحديث عن عزيز المصري، ولاح مني شدة اهتمامى بهذا الموضوع، أبديت رغبة شديدة في ضرورة لقاء هذا الرجل الذي كان موقفه محور تفكيرنا..

وهنا شعرت بأن المقابلة قد آذنت علي الانتهاء، حين قدم إلي المرحوم حسن البنا وريقة..

***

واستحث (**) هذا الحادث أمنيتنا الكبرى, منذ وصلنا إلى القاهرة: أن نتصل بعزيز المصرى, ونتعاون معه.. وكان الخوف من إثارة الشبهات حول جماعتنا الصغيرة.. أو حول أي فرد منها ما يزال مسيطرًا علينا.

ويبدوا أنى قلت ذلك للمرحوم حسن البنا أثناء حديثى معه في ذلك اليوم الخطير..

وابتسم الرجل وسألنى في بساطة:

- هل تحب أن تلقى عزيز المصرى؟ وفوجئت بالسؤال فما تمالكت نفسى من القول:

- إنها أمنية!

وعاد يسألنى والابتسامة على شفتيه:

- وما يمنعك من تحقيقها..

[1] جاء في الهامش في الكتاب الذى صدر حاملًا هذه المقالات:
نؤكد أن سليمان محمود الذي شغل في وقت من الأوقات منصب مدير مكتب عزيز المصرى، لم يكن مطلقا ممن بين شملتهم هذه الإشارة.
وقد نشرت الجمهورية استدراكا مماثلا في يوم الإثنين 21 ديسمبر 1953 قالت فيه: "جاء في الحلقة قبل الأخيرة، في سياق الحديث عما أحاط بالفريق عزيز المصرى من شراك، أن الإنجليز كانوا أحرص من ألا يرصدوا عليه كل حركاته، فاستطاعوا أن يملأوا وظائف مكتبه بجماعة من الضباط الشبان الحاصلين عل شهادات عليا..
ونود أن نؤكد أن سليمان محمود الذى شغل في وقت من الأوقات منصب مدير مكتب عزيز المصرى، لم يكن مطلقا من بين من شملتهم هذه الإشارة.

وأخذت ألقى إليه بمعلومات عن مراقبة المخابرات البريطانية للفريق عزيز المصرى، ومحاصرته له، ولكل من يحاول الاتصال به، وأوشكت أن أفضى إليه بأنى أخشى أن أحاول ذلك فلا تكون نتيجته أن ينكشف أمرى أنا وحدى.

ولكن الرجل الذى كان يستمع لى ويبتسم كان قد أمسك ورقة صغيرة، وأخذ يخط عليه بضع كلمات.. ثم مد يده إلى.. وقال لى:

- ستلقاه في هذا المكان.. غدا في المساء(**)[1].

وأخذت الوريقة أقرؤها بشغف شديد.. بينما قال لي حسن البنا، والابتسامة علي شفتيه:

- واقطع تذكرة عند الدخول كما يفعل الداخلون.

وخرجت من دار الإخوان المسلمين... أخطو خطواتي الأولي إلي مستقبل.. مجهول...

الفصل السادس

اتهام عزيز المصرى بدس السم لنازلى[2]

قال لي المرحوم حسن البنا أتني سألتقى في اليوم بالفريق عزيز المصري...

وحدد لي موعد إلقاء ومكانه....

وكنت أعلم أن مقابلتي له في ذلك الوقت قد تثير كثيرا من الشكوك والشبهات..

فعلي الرغم من الطمأنينة التي كانت تبدو علي وجه المرحوم البنا وهو يحدد ذلك الموعد، فقد كنت أنا علي يقين من أن مخابرات إنجلترا لن تكون نائمة في ذلك الموعد المضروب...

[1] هذه الفقرة كلها حذفت من هذا المقال المنشور في "الجمهورية" يوم السبت 19 ديسمبر 1953 عند جمع المقالات للمرة الأولى.. وقد رأينا إعادتها إثباتا هنا للمقارنة والتزاما بما ينشر في "الجمهورية" وقد استبدل الكتاب الفقرة السابقة بين (**) بهذه الفقرة.

[2] نشر في العدد الرابع عشر من "الجمهورية" الصادر في يوم الأحد 20 ديسمبر 1953 - 13 ربيع الثانى 1373هـ

وكان علي أن أرجع إلي تشكيل الأحرار قبل المقابلة وكان علي أن أعود إليهم بعد المقابلة...

فإن بعد إذن من الحذر.. أن أي شك يحوم حولي قد يذهب بتشكيل الأحرار كله..!

كنت أشعر في كل خطوة اخطوها إلي حي السيدة زينب بأني أخطو خطواتي إلي بدء مستقبل حافل مجهول، لابد أن تقع فيه أحداث جسام.

كنت أعرف أني ذاهب لأضع قدمي علي أول الطريق، ولكني لم أكن أستطيع أن أتخيل إلي أين سوف تقودني قدماي، أو إلي أي مكان سوف يمضي بي الطريق..

ولم أكن كذلك قد فكرت في شئ من كل هذا.

فلم يزد الأمر عندي عن أنى ذاهب إلي لقاء عزيز المصري، وأن هذا اللقاء لابد محدث أثرًا.

واتجهت إلي العنوان الذي كتبه لي المرحوم حسن البنا قبل ذلك بيوم.. ونظرت إلي فوق فقرأت اللافتة الموضوعة علي عيادة الطبيب "الدكتور إبراهيم حسن".

وصعدت الدرج بخطي ثابتة، ثم تذكرت أني "مريض" أو لابد أن أكون "مريضا" فربما كان البيت مراقبا، بل من المؤكد أنه مراقب، إذا كانت المخابرات البريطانية قد علمت بوجود عزيز المصري في داخله.. ولأول مرة قمت بدور تمثيلي صغير.. فصعدت الدرج في تثاقل، ولهثت بأنفاسي مرتين.

وطرقت الباب وطلبت مقابلة الطبيب، وأعطيت خادم العيادة أجر الزيارة، وأخذت منه تذكرة!

وبعد قليل دعائي الخادم إلي غرفة الطبيب.. ورأيت لأول مرة وكيل جمعية الإخوان المسلمين.. ولم يكن غريبا أن الدكتور إبراهيم حسن ينتظرني.. فقد أخذني من فوري إلي مكتب ملحق بحجرة الكشف وأدخلني إليه.. وفي هذه الغرفة، كان عزيز المصري في انتظاري.

ماذا تنتظرون؟

كنت بحاجة أن أقدم نفسي للفريق الذي آمنت بوطنيته.. وكنت أريد أن أقول له كلاما كثيرا، وأن اكسب ثقته.. لكن رغم كل شيء.. رغم الطريقة التي تم بها اللقاء بينى وبينه، كنت أشعر أن في قلب الرجل ندوبا عميقة من خيانة الأصدقاء، الكبار والشبان علي السواء.. ولكن النفس الصافية، أبت أن تحملني هذه المشقة.. وفي الدقائق الأولي كان عزيز المصري يحدثني حديث رفيق الجهاد..

كان يائسا من الحكومات، يائسا من الأحزاب، يائسا من الملك، يائسا من البرلمان، ولكنه كان مؤمنا بالشباب.. وقال لي:

- عيب هذا البلد أنه ضعيف، وأنه لا يجد العناصر التي تغذية بالقوة..

وسألته:

- وكيف نأتي بهذه القوة..

فنظر إلي وقال:

- أنتم شباب الجيش.. ماذا تنتظرون، ومتي تعرفون مسئوليتكم الحقيقية، ومتي تبدأون في الاضطلاع بها؟

وعدت أساله:

- وهل تظن أننا في داخل الأوضاع القائمة نستطيع اليوم شيئًا؟

فأجاب وقد انتفض:

- تستطيعون كل شئ.. وغيركم لا يستطيع شيئا.. ماذا تنتظرون.؟

تنتظرون توجيها مني، من لواءاتكم من حكام البلاد؟.

وسكت وهم يتمتم: كلام فارغ!

ثم نظر إلي في عزيمة شابه، وقال:

- لقد كان نابليون في السابعة والعشرين من عمره فقط.. كان مثلك هكذا شابا صغيرا.. ولكنه استطاع أن يكون في تلك السن المبكرة نابليون القائد. واستطاع أن يقود بلاده وجيشه، ولم يكن يتلقي توجيها من أحد.

وبعد لحظات قال في عمق:

- التوجيه الوحيد الذي كان نابليون يستلهمه في كل خطواته، هو الإيمان الذي كان ينبعث من نفسه.. فابحثوا عن الإيمان ولا تعتمدوا أبدا علي أحد.. إلا علي أنفسكم..

الإيمان .. والشباب:

وكان لكلمة الإيمان في نفسي رنين خاص عميق.. فقد كنت أنا أيضا أبحث عن الإيمان، وأومن في الوقت نفسه بأنه المخرج الوحيد لنا من الحيرة التي كان المصريون جميعاً يعيشون فيها.. فلا يكادون يقدمون حتى يحجموا.. تيئسهم الحسرات، وترغبهم المخاوف..

ورغم هذا، فقد قلت له:

- لقد عشت أنت مؤمنا بهدفك وعشت لا تعتمد علي أحد.. وتغلبت عليك مع ذلك هذه القوي.. ونحن نريد أن نعمل..

فقاطعني بقوله:

- أعملوا وحدكم، واعتمدوا علي شبابكم وأيمانكم.. والذي يستطيع أن يقصي عزيز المصري عن توجيه الملك والذي يستطيع أن يقصيه عن توجيه الجيش، لا يستطيع أن يقصي شباب الجيش عنه..

متي بدأ الفساد؟

وكان كلاما منطقيا حكيما.. وكان مع ذلك إشارة إلي سلسلة الدسائس التي تعرض لها عزيز المصري قبل هذه المرة.. فأسالته:

- أذن فقد بدأت الدسائس من زمن..

فقال:

- نعم، منذ كنت في إنجلترا أشرف علي تربية فاروق..

وتنهد بمرارة وهو يقول:

- كنت أحب أن تحسن تربيته، لأنه شاب، سواء كنت أنا الذي أربيه أم غيري.. ولكن يد الخيانة والدسائس امتدت إليه.. وكانت أقرب إلي قلبه من يدي..

وسألته:

- أتقصد أحمد حسنين؟

فقال:

- أحمد حسنين، وعمر فتحي.. هذان الاثنان تآمرا علي فاروق.

فتآمرا بذلك علي شعب مصر في شخص ملكه..

وبعد قليل عاد ليتكلم:

- هل تتصور أني كنت أدخل غرفته صباحا، فأجده نائما بملابس السهرة.. والخمرة تفوح من فمه؟

هذا الشاب الذي كنت أريد له الصلاح والتقوى والوطنية كانا هما يريدان له الفساد والتهتك والاستهتار.. كانا يقودانه إلي دور الفساد، فلا يعود إلا في الرابعة صباحا، ويعود مخمورا.. فينام.. ويلقي بنفسه لقاء علي أقرب مقعد.. أو وسادة..

وكنت أحاول أن أنهاه عن ذلك فيخجل.. ولكنهما ينفردان به من بعدي، فيزيلا كل أثر لنصائحي..

وتمهل قليلا.. ثم أردف:

فاروق يكره أباه!

- هل تريد أن تعرف سرا خطيرا..

ولم ينتظر مني أجابه فقال:

- لقد ألقي هذان الاثنان في وهم فاروق أني مدسوس عليه من أبيه..

- أبيه؟..

قال:

- نعم... فان فاروق كان يبغض أباه أشد البغض.. يبغضه من كل قلبه.. وكان يقدس أمه تقديسا شديدا.. فالقي هؤلاء في وهمه أني أنا عزيز المصري أشيع الأقاويل عن أمه، واني أريد أن أزيلها من الوجود لكي ينفرد أبوه بحبه.. وأني أعمل الآن علي دس السم لها..

وسألته:

- وعرفت أنت كل ذلك؟..

فأجاب:

- نعم عرفته.. عرفته يوم أرسل فاروق إلي أبيه خطابا باكيا يهدده فيه إن لم يسحبني فورا من مهنتي..

وبعد هنيهة قال:

- وقد سحبني أبوه فعلا.. وتركه لهذين المفسدين.. يفسدانه علي نفسه، ويفسدانه أيضا علي وطنه..

ثم تلاحقت الدسائس، والمؤامرات لتقصينى عن كل مكان أستطيع فيه أن أوجه الشباب، لأن فاروق يعرف كيف أوجه أنا الشباب..

لابد من انقلاب:

كان الرجل يتكلم بانفعال شديد، حتى كاد يغلبني البكاء.. ولكنه عاد إلي طبيعته الواثقة.. وقال لي:

- إن كان معك خمسة أفراد مؤمنين، فاني علي استعداد اليوم أن أحمل طبنجتي، وأتقدمكم لأى عمل لإنقاذ البلد..

وعندما هممت بالانصراف، شعر عزيز المصـري بالمسـئولية الـتي وضـعها فـوق كتفي.. فقال مؤكدا:

- لن يكون خلاص البلد إلا بالانقلاب علي أيدي العسكريين..

ونظر في عيني طويلا، وأنا أصافحه.. ولم يقل بعد ذلك شيئا..

ولكني عندما خرجت من عنده، كانت رسالتنا قد تحددت، كهدف بعيد نسـتطيع أن نـراه بأعيننا، وأن كنا لا نتبين الطريق إليه..

من هم زملاءك؟!

وفي اليوم التالي التقيت بالمرحوم حسن البنا وسألنى عن أثر زيـارتي لعزيـز المصـري في نفسي.. وكأنه كان يعلم ما جري فيها.. ولاحظت أنه يريد أن يزداد علمـا بالمجموعة التي شعر أني واحد من أفرادها.

فقد سألنى عندئذ:

- هل لديك زملاء في الجيش يشتركون معك في هدف معين؟

وكان السؤال في ظاهره بريئا ولكنه كان يريد أن يعرف من ورائه إن كان هناك تشكيل معين يضمني ويضم غيري..

ولم أخف الحقيقة عنه.. ولكني لم أبح له بأسماء أخواني.

قلت:

- أني لست أعمل وحدي.. وأن هناك تشكيلا معينـا موجـودا وأننـا جميعـا نـؤمن بـالكلام الذي قالـه لي عزيـز المصـري.. ونعـرف أن البلـد لن تخلص من الاسـتعمار ألا بـانقلاب عسكري يقوم به رجال من الجيش..

الخطة الأولى:

وكانت جماعتنا في ذلك الوقت قد قطعت شوطا في تنظيماتها.

وكان لكل منا خلية يعرف وحده أفرادها..

وكنا نجتمع في مكانين: ضباط الجيش وحدهم، وضباط الطيران وحدهم..

ولكن قراراتنا النهائية كانت مرتبطة ببعضها بواسطة تنسيق كامل لكل شيء.

وكنا قد بدأنا فعلا.. منذ الليلة الماضية نفكر في الإعداد للعمل الكبير..

وأدرك المرحـوم حسـن البنـا من إجـابتى المقتضـبة أنى على اسـتعداد للكلام معـه في المبادئ، ولكنى لا أحب الدخول في التفاصيل..

فقال لى:

- إذن فأنتم تعدون العدة للقيام بعملية حاسمة؟..

فأجبته في صراحة:

- إننـا نريـد أن نخلص البلاد.. وقـد تكـون الفرصـة اليـوم مواتيـة.. فـالإنجليز في مـأزق بالصحراء الغربية، وجرازيانى قادم إلى مصر..

وهز المرحوم حسن البنا رأسه وهو يقول:

- وهل أعددتم خطة لذلك؟

قلت:

- إننا نفكر الآن في أن نضرب ضربتنا، ونقيم حكومة عسكرية تحارب الإنجليز إلى جوار المحور.

وكان كل شيء مهيئا لضـربتنا فعلا.. فقـد كـان الإنجلـيز قـد بـدأوا ينسـحبون ف سـرعة مخيفة.. وكانت دباباتهم ومصفحاتهم تهرع فى شـوارع القـاهرة فزعـا، في طريقنـا إلى الجنوب.. وكانت الأسر الإنجليزية قد بدأت ترحل إلى السودان..

كان كل شيء ينذر بهزيمة الإنجليز المحققة..

ولم يكن أمامنا إلا أن نعد العدة لنعمل..

ولكن أين نعمل؟

وكيف؟

الفصل السابع

أسباب حادث 4 فبراير؟[1]

- فهم المرحوم حسن البنا مني أنني لست أعمل وحدي.. وفهم أننا نريد أن نقيم حكومة عسكرية في البلاد تحارب الإنجليز غلي جوار المحور.

- وفهم أن الذي ينقصنا فعلا هو جماعة أخري من الشباب، تستطيع خوض المعركة باسم الشعب عندما يضرب تشكيلنا ضربته، كعمل عسكري...

وبدأ المرحوم حسن البنا يتحدث إلي حديثا طويلا عن تشكيلات الإخوان المسلمين، وأهدافه منها، وكان واضحا في حديثه. أنه يريد أن يعرض علي الانضمام إلي جماعة الإخوان المسلمين، أنا، وإخوانى في تشكيلنا، حتى تتوحد جهودنا، العسكرية والشعبية، في هذه المعركة.

وكنت أنا مستعدا للإجابة علي هذا الطلب إذا وجهه إلي، فلما رأيته يكتفي بالتلميح، أوضحت له من جانبي أيضا، أنه ليس من وسائلنا أبدا أن ندخل كجماعة ولا كأفراد في أي تشكيل خارج نطاق الجيش.

وأطرق المرحوم قليلا ثم قال، وعلي وجهه ابتسامة تغطي تفكيرا عميقا:

- من الخير لنا إذن لنجاحنا ونجاحكم أن نتشاور وأن نتكلم معا في كل شئ.. كما أننا علي استعداد لكي نعاونكم عندما تطلبون ذلك إلينا.

تعاون.... وأسرار!

وبدأ بيننا تعاون كنت أنا الصلة فيه... تعاون بدأ في تحفيظ واستمر في تحفظ..

وفي خلال هذا التعاون تكتشف لي أشياء كثيرة من الأسرار الداخلية لجماعة الإخوان رغم أنه رحمه الله لم يحاول أن يكشف لي شيئا منها، ولا أن تطلعني علي أي سر من أسرارهم الداخلية..

[1] نشر في العدد الخامس عشر من "الجمهورية" الصادر في يوم الإثنين 21 ديسمبر 1953 - 14 ربيع الثانى 1373هـ

المرشد وحده يعلم!

وكان أهم هذه الأسرار، أن حسن البنا وحده كان الرجل الذي يعد العدة لحركة الإخوان، ويرسم لها سياساتها ثم يحتفظ بها في نفسه.. وأن أقرب المقربين إليـه لم يكن يعـرف من خططه شيئا، ولا من أهدافه شيئا..

حتى لقد كان حسن البنا في ذلك الوقت المبكر يجمع السلاح، ويشتريه ويخزنـه، ولكنـه لم يكن يطلع أقرب الناس إليه من كبار الإخوان أنفسهم علي أي شئ من كل هذا...

وكان علي العكس من ذلك يستعين في هـذه العمليـات بـإخوان من الشـبان الصـغار.. وكان منهم الجندي المتطوع الذي جاءني به في سلاح الإشارة أول مرة...

وكان أعوانه الصغار هؤلاء يعرفون أن ما بينهم وبينـه سـر علي النـاس جميعـا بمـا فيهم الإخوان الكبار...

فقد أدركت هذا في يوم من الأيام، كنت جالسا معه، عندما علينا هذا الجنـدي المتطـوع يحمل في يديه صندوقين مغلقين.

ورآني الجندي جالسا، فأجفل، ولكن حسن البنا، قال له أفتح الصناديق، ولا تخف...

ونظر الجندي إلي بابتسامه الأخ في الجهاد، ثم فتح صندوقيه، وكان ما فيهما عينات من أنواع المسدسات.

وتأكدت في ذلك اليوم من أن الرجل يشتري سلاحا ويخزنه، ويخفيه حتى عن الإخوان..

وفرحت في نفسي بذلك...

فسيأتى اليوم الذي نضرب فيه ضربتنا كرجال عسكريين...

وسيكون من أهم ما نستعين به أن نجد قـوة شـعبية تقـف في الصـف الثـاني، مسـلحة مدربة...

ولكن، متي يكون هذا اليوم؟..

أن الأمر بحاجة إلي أعداد كامل طويل..

ونحن نستعد، ونستعد، ونستعد.

ودعوتنا تجد أنصارها ببطء، ولكن في وثوق.

وكل شئ يجري علي وجه نطمئن إليه...

وفجأة...

كان يوم 4 فبراير 1942، فقلب خطتنا رأسا علي عقب، وبدأنا السير في طريق خطير...

4فبراير...

وأحب أن اعرض هنا لبعض الحقائق والملابسات التي اكتنفت حادث 4 فبراير..

فعلي كثرة ما كتب عن هذا الحادث فان هناك حقيقة لم تنشر أبدا، ولم تطف بأذهان الذين تكلموا، ولا الذين سمعوا...

فقد أخذ الناس هذا الحادث بالمأخذ السطحي، فقالوا أن مظاهرات سارت في البلاد تهتف: "إلي الأمام يا روميل" فتحركت دبابات الإنجليز تفرض النحاس علي الملك، رئيسا لمجلس وزراء البلاد...

ولو قلت اليوم أن هذه المظاهرات قد رسمت ودبرت تدبيرا، لما جاوزت الصواب..

ولو قلت أنها رسمت ودبرت لتبرر هذه الجريمة التي ارتكبتها الإنجليز. لما جاوزت الصواب أيضا...

وبقي أن تعرف بعد ذلك اليد التي حركت هذه المظاهرات بليل.. يد المدبر، والمحرك، وناصب الشرك...

أين التحقيق؟..

لقد كانت البلاد واقعة تحت حكم عرفي، والذين يقودون مظاهرات كهذه - إن كانوا من الوطنيين فعلا – لابد أن يقدروا خطورة تظاهرهم، ودعائهم لروميل في بلاد يحتلها جيش الإنجليز..

ومع ذلك فقد سارت المظاهرات بليل.. ولم نعرف أشخاص قادتها، ولا قبض رجال البوليس عليهم، ولا تحرش بهم جيش الإنجليز المقيم في العاصمة، والذي لم يجد حرجا في مهاجمة قصر الملك!

فإذا بحثنا عن الدافع الذي صورته إنجلترا لهذه المظاهرات، لعرفنا كيف تستطيع الدعاية البريطانية وأعوانها في مصر، وأن تلعب في فترات الحرج، بعقول العامة من أهل هذه البلاد. فإذا بالأكذوبة وتصبح حقيقة تتناولها صحف مصر أثني عشر عاما كاملا.. ثم تترددها قاعات المجلس النيابية، قاعات المحاكم أيضا في قضايا السياسة الكبرى!!

أحقا، هذه المظاهرات قد سارت في شوارع القاهرة، تلعب دورا في هزيمة الإنجليز؟!

إنها إذن مظاهرات خطرة، من ورائها تدبير وطني فاهم لما يعمل...

فأين المدبرون والمحركون، وأين قصاص الإنجليز منهم، أو قصاص الذين حكموا مصر بأمر الإنجليز؟!

فإن لم تكن هذه المظاهرات بالخطورة الفعلية علي كيان الإنجليز في أيام محنتهم، ففيم إذن هذا الإجراء العنيف، وقد كان أسير أجزاء في تلك الأيام كفيلا بقمع مظاهرات، لاهي بالخطيرة، ولا وراءها تدبير؟!

ولكن هناك هدفا.. وقد تحقق هذا الهدف..

والهدف هو أيجاد مبرر تستند إليه الدعاية البريطانية، عندما يتخذ الإنجليز هذا الأجراء الإجرامى الشاذ في نوعه..

وقد تحقق هذا الهدف، واستطاعت إنجلترا أن تفرض علي الملك حكومة النحاس..

الهدف الكبير:

ويبقي السؤال الذي لا يزال ينتظر الجواب...

لماذا أراد الإنجليز هذا، وما الذي كلفهم كل هذا التدبير، وكل هذه الجريمة، وكل هذه الدعاية التي اضطروا إليها اضطرارا لتبرير فعلتهم؟!

لم تكن المسالة مسألة السخط الذي كان يعم مصر وقتئذ.. ولم تكن مسألة الخوف من فورة الشعور الشعبي المضاد للإنجليز في وقت يقف فيه الإنجليز في أحرج موقف من مواقف الحرب العالمية الثانية..

فما كان حادث 4 فبراير ليستطيع إزالة السخط، ولا وقف الشعور الشعبي المضاد للإنجليز، وإنما هو جدير بزيادة السخط والكراهية، وكشف العداء سافرا بين شعب مصر، وبين حليفه المفروض عليه فرضا.. جند الاحتلال..

فصحيح كان هناك سخط، وكان في البلاد توثب لانتهاز الفرصة وضرب الإنجليز من الخلف، بينما تشتد عليهم نيران روميل من أمام..

ولكن هذا، لم يكن كل شئ.. ولم يكن يستحق الموضع الذي وضعته إنجلترا نفسها فيه، يوم 4 فبراير المشئوم..

الجيش ...والشعب:

كانت إنجلترا تري أن هناك تقاربا بين الملك وبين الشعب من ناحية وبين الملك وبين الجيش من الناحية الأخرى.. فقد كان الملك في نظر الشعب وفي نظر الجيش أيضا. شابا وطنيا، وكان محبوبا.. ورأت إنجلترا أن هذا التقارب سيوجد جبهة متحدة من الجيش والشعب، فأرادت أن تحطم هذه الجبهة، وأن تعزل الجيش عن الشعب، وكان

يوم 4 فبراير هو الوسيلة لذلك.. فقد صممت إنجلترا فيـه علي تكليـف النحـاس - زعيم الشعب - بتشكيل الوزارة، فأصبح الشعب بذلك في ناحية، والملك والجيش في الناحيـة الأخرى.. وبدأت إنجلترا بعد هذا تقيم سياستها علي أساس عزل الجيش عزلا كـاملا عن الشعب بتبغيضه إليه، وإشعار الشعب بأن جيشه هو السوط الذي سيلهب ظهـره باسـم الملك.

في نادي الضباط:

وكان يوم 4 فبراير.. الذي تحدثت مصر عنه عشرة أعوام كاملة.. ولا تزال تتحدث..!

وكحقيقة نذكرها، لم يكن تشكيلنا قد توقع هـذا الحـادث، بـل وأكـثر من هـذا، لم يشـعر تشكيلنا بهذا الحادث عندما وقع..

ولكننا أحسسنا به بعد ذلك، وفهمنـاه من تحليلنـا ومن تحرياتنـا، وبينمـا كـانت البلاد في ذهول من الحادث، طاش صواب ضباط الجيش وبدأنا نحن في تشكيلنا.. نفكر..

أما البلاد فقد ذهلت لأن الأحداث كانت أغرب من كـل مـا تصـوره خيـال هـذا الشـعب.. وأذهلها بعد ذلك عنه أو شغلها عنه، ما تقاذف به السياسيون من سـباب واتهامـات ومـا أثير من قصص الاجتماعات التي تمت في قصر الملـك، والمواقـف المثـيرة الـتي رأتهـا قاعاته من الزعماء..

وطاش صواب ضباط الجيش، لأنهم كعسكريين شـعروا بأنهـا ضـربة عسـكرية لا يردهـا سواهم... وفي فوره الحماسة وعنف الشباب. بـدأت الاجتماعـات تعقـد علنـا في نـادي الضباط لمناقشة الموقف، وتقرير الخطة بصورة مفتوحة، لا يمكن أن تؤدي إلي خير.

أما نحن فقد انتهينا حينئذ إلي قرار أولي...

استعداد وتأجيل:

فمع تصميمنا علي وجوب رد هذه الضربة للإنجليز، قررنا تأجيل هذا الرد، لأن ذلك الجـو المفتوح الذي نوقشت فيه المسائل بنادي الضباط كان يوجب عدم القيام بأي شـئ في خلاله..

كنا قد درسنا الآمر من كل وجوهه علي طريقة العسكريين عندما يقومون بمـا يسـمونه "تقدير الموقف"..

ولم نضـع في حسـابنا عندئـذ أن نحـدد موعـد ضـربتنا، فقـد اتفقنـا علي عـدم الاهتمـام بالتفكير في الموعد، بعد ما حدث، وما فوجئنا به علي غير استعداد أو ترقب..

ولكننا وضعنا في حسابنا أن ندرس كيف تكون ضـربتنا لا مـتي تكـون، وصـممنا علي أن نضع خطتنا لكي تأتي ضربتنا للإنجليز محكمة، ودامية في الوقت نفسه..

وقررنا كذلك أن تنأي خطتنا في هذه المرة عن أي صلة بالإخوان المسلمين.. وأن تقوم علي توسيع تنظيمنا الداخلي في الجيش، وتكتيل قوتنا في كل الأسلحة، وإعـداد أنفسـنا بما تستلزمه ضربة عسكرية محكمة دامية..

وقت العمل:

ومرت الأيام من 4 فبراير حتى وقع حادث العلمين، أو مأزق العلمين. وكانت هذه المدة كفيلة بأن تضاعف قوتنا داخل الجيش أكثر من مائة ضعف.

فقد كنا، عندما وقع مأزق العلمين قد وصلنا في استعداداتنا إلي تجهيز مائة إلف زجاجـة من الزجاجات المعروفة بكوكتيل مولوتوف..

وكنا قد استطعنا إنشاء ورشة كاملة لصنع المسدسات وبدأت تخرج السلاح فعلا...

وكنا أيضا قد استوردنا من ريف مصر، كميات كبيرة من البارود الـذي يصـنعه الفلاحـون من زمن بعيد، واستطعنا أن نحضره تحضيرا عمليا، بحيث يمكن الاعتماد عليه..

وكان هذا هو الشق الأول من خطتنا بعد 4 فبراير.. أن نعد أنفسنا بما يلوم لعمل كبير.

أما الشق الثاني الذي يحدد نوع العمل، فقد كان مقررا تركـه للخطـة الـتي يتقـرر فيهـا العمل نفسه..

كنا مرة أخـري ننتظـر الـوقت المناسـب.. وجـاء هـذا الـوقت.. يـوم وصـل الألمـان إلي العلمين...

وبدأنا نرقب الأحداث لحظة بلحظة لنتبين نوع العمل الحاسم الذي نستطيع أن نقوم به.

وقالت الأحداث كلماتها سريعة متلاحقة..

قالت أن روميل يضرب ضرباته القاضية..

وقالت أن الإنجليز أيقنوا بالهزيمة..

وقالت أنهم في هلع أفقدهم صوابهم..

وقالت أنهم قروا الانسحاب فورا، وبأسرع ما يمكن إلي الجنوب..

هذا كان صوت الأحداث الواقعة التي رأيناها بأعيننا ورآها العالم بأسره معنا...

وكان يجب علينا أن نضع الخطة التي تناسـب منطـق الأحـداث.. فلم يكن هـذا المنطـق يحتمل حربا نظاميا، ولا انقلابا عسـكريا، ولكنـه كـان يـوجب اتجاها آخـر.. يـوجب خطـة سريعة واحدة توضع لإبادة الإنجليز أفرادا وجماعات عند انسحابهم.

خطتنا.. وخطة القدر!

وعكفنا نضع خطتنا كعسكريين...

وكان جانب منها يحدد التفاصيل العمل العسكري الداخلي...

والجانب الآخر يرسم خطة الاتصال بالألمان..

ولكن خطة أخري كان القدر يضعها في الـوقت نفسـه.. وقـد لا نسـتطيع أن نحكم علي فعال القدر عندما تحـدث ولكن بعـد مـرور وقت طويـل، وتسـتطيع دائمـا أن ننظـر إلي الماضي، فتجد أن الإيمان حق.. هو دائما.. أقوي من القدر.

وبدأت قصة القدر..

بدأت بطرقات خفيفة علي باب بيت صديقي الصاغ حسن عزت.. دخل في أثرها رجلان من الألمان، يصحبهما صديق له، هو الأستاذ عبد الغني سـعيد الـذي يعمـل اليـوم مفتشا في مصلحة العمل.. ثم لم يلبث الصاغ حسن عزت أن يأتى بثلاثتهم إلي..

هكذا بدأت قصة القدر بالنسبة إلينا..

ولكنها بالنسبة إلي هذين الألمانيين فقد بدأت قبل ذلك..

بدأت علي رمال الصحراء الغربية الصفراء.. عندما دعـا قلم المخـابرات الألمانية رجلين من رجاله.. أحدهما يدعي هانز أبلر.. والثاني يدعي ساندي..

وكان أبلر يعرف مصر من قبل، كما يعرفها كل أبنائها..

فقد كانت أمه الألمانية، قد تزوجت في ألمانيا من المرحوم صالح بك جعفر المستشـار، ثم حضرت معه إلي مصر، وفي يدها ولدها من زوجها الأول..

وكان ولدها هذا، هو" هانز ابلر".

وأراد الزوج المصري، أن يوفر لابن زوجته حياة مطمئنة في مصر، فيسر لـه كـل سـبل التعليم والنجاح، وأعطاه اسما مصريا، وأعطاه فوق ذلك لقب أسرته، فأصـبح هـانز أبلر يعرف في مصر، باسم حسين جعفر.

وعاش "حسين" في مصر، ولكنـه لم يكن الوالـد الصـالح الـذي ارتجـاه زوج أمـه، فقـد انحرف عن الطريق الذي رسمه له الرجل.. وأصبح بعد فـترة وجـيزة شـوكة في كلبـه، ووصمة في سمعته..

وفشل المستشار المصري، في إقناع ربيبه بالعدول عن مخادنة الأوغاد وحياة الليل بين المراقص والحانات، ونساء الطريق..

وفشل في إقناعه بأن يجد لنفسه عملا يعيش منه، أو يشغل به بعض وقته.

ولما أيقن بألا سبيل إلي إصلاحه، ولا اتقاء شره في مصر، طرده من حياته قبيل الحرب.. فما كاد يعود إلي وطنه حتى جندوه هناك.. ثم أصبح من رجال روميل.. ومن رجال مخابراته في شئون مصر بالذات..

تجسس:

وأصدر روميل لرجليه ابلر وساندي أمرا بالتسلل إلي مصر، وكلفهما بعمل معين، وسلمهما جهازا لاسلكيا دقيقا.. وزودهما بعشرات كثيرة من الآلاف من الجنيهات الإنجليزية المزيفة المطبوعة في اليونان وبسيارة من سيارات الجيش الإنجليزى التي استولي عليها روميل أثناء معركة العلمين وفرار الإنجليز تاركين خلفهم كل شئ...

وتحركت السيارة بالرجلين، وقد ارتديا ملابس ضباط في الجيش الإنجليزى، وحملا معهما جهاز اللاسلكي، والثروة الطائلة.

واخترقا الصحراء الغربية من طريق غير مطروقة تقع إلي جنوب سيود، ثم انحرافا من سيوة إلي الواحات الخارجة.. واستراحا فيها من رمال الطريق، وتزودا بما يحتاجان إليه، ثم اتجها صوب أسيوط في الطريق المرصوفة الفاخرة المؤدية إليها..

وكانت هذه المرحلة هي أخطر مراحل الرحلة بالنسبة إليها إذ الطريق طريق عسكري، تنتثر علي جانبيه المعسكرات البريطانية، ونقط التفتيش والحراسة، وتذرعه دوريات الاستكشاف وقوافل الجنود والعتاد..

وأخذت السيارة تنهب هذا الطريق مارة بالموت في كل لحظة، ونفذ منها الوقود في منتصف الطريق.. إذا بقائدها أبلر ينثني بكل جرأة إلي أحد المعسكرات البريطانية، فتفتح له الأبواب.. ويدخل إلي محطة البنزين بالمعسكر، وتقدم أوراقه، ويعبئ سيارته بالبنزين، ثم يخرج مودعا بتحية الجنود..

ووصلا إلي أسيوط.. ثم انحرفا في الطريق إلي القاهرة.. ودخلاها ضابطين إنجليزيين تقوم لهما دنيا القاهرة وتعقد في ذلك الزمان.

طلبات:

وقال لنا الأستاذ عبد المغني سعيد أنه تعرف بهما عن طريق قريب له متزوج من ألمانية تعرف عائلة أبلر.

وأخرج الرجلان أوراقهما، وأثبتا بما يقطع كل شك، حقيقة جنسيتهما الألمانية وحقيقة مهمتيهما.

وطلب الألمانيان منا أن نقدمهما إلي الفريق عزيز المصري، وكانا يطلقان عليه كلمة "الزعيم".

وقال أبلر إن جهاز اللاسلكي الذي جاءا به قد تعطل، وأنه يرجو أن يعتمد في إصلاحه علينا..

كما طلبا أن نسهل لهما عند الحاجة الاتصال الشخصي بروميل في مكانه بالعلمين..

وقابلهما عزيز المصري، وتفاهم معهما علي أشياء كثيرة، ثم أصدر أمره إلينا بتسهيل طلبيهما الآخرين.

وقمت أنا بالناحية التي تتصل بعملي في سلاح الإشارة، فحددت معهما موعدا لزيارتهما وفحص الجهاز اللاسلكي المعطل..

وكان أول ما فوجئت به من أمرهما، أنهما يقطنان في عوامة خاصة للراقصة المشهورة حكمت فهمي.. ويبدو أن المفاجأة قد ظهرت علي آثارها، فقد ضحك أبلر، وقال:

- أتريدنا أن نقيم في معسكرات الإنجليز؟!

ومضي يروي لي ما يعرفه من إخلاص حكمت فهمي له منذ كان في مصر قبل الحرب، ثم روي لي طرفا من حياته التي يحياها، منذ عاد إلي القاهرة، وكان قد مضي عليه أكثر من شهر يقيم فيها..

البنك الأهلي:

وفهمت أنهما منذ نزلا ضيفين علي هذه الراقصة قد خلعا ثيابهما الرسمية "الإنجليزية" وارتديا ثيابا مدنية عادية، ثم راحا يعيشان كإنجليزيين بصورة لا تثير الشبهات حولهما.

كانا ينفقان عن سعة.. ويبعدان بنفسيهما عن كل مكان يمكن أن تكون له صلة بالوحدات الحربية أو الجهات العسكرية.

ولم تزد حياتهما طول هذه الفترة عم مجرد السهر ليلا في الكيت كات، والعودة مخمورين قر الصباح إلي العوامة التي اتخذا منها محطة للإذاعة يتصلان عن طريها بقيادة مخابراتهم.

وقالا لي وهما يضحكان أن البنك الأهلى قد بدل لهما ما يزيد عن أربعين آلف من الجنيهات الإنجليزية المزيفة بجنيهات مصرية.

ثم قالا:

وكان الوسيط يهوديا، قبل أن يتحمل المسئولية مقابل 30% من قيمة ما يبدله من النقود.

ولم أدهش أنا لليهودي الذي يعرف أنه يؤدى خدمة لجواسيس النادى، فلا يتردد ما دام كل شئ بثمنه ولكنى مع ذلك أشفقت عليهما من قيام صلة بينهما وبين اليهود.

وسألنى أبلر:

متي تجئ؟

فحددت له موعدا يوم الجمعة..

وفي يوم الجمعة. كنت واقفا علي شاطئ النيل، من خلفيي مستشفي الجمعية الخيرية الإسلامية.. ومن أمامي عوامة الراقصة حكمت فهمي!

الفصل الثامن

محطة إذاعة تحت أقدام الراقصات[1]

كنت على موعد مع الجاسوسين الألمانيين أبلر، وساندي فى عوامة حكمت فهمى..

وكان هذا الموعد لإصلاح جهاز إرسال لاسلكى، يملكه الجاسوسان، ويذيعان منه، من داخل العوامة..

ووقفت أمام العوامة أفكر قليلا قبل أن ألمس زر الجرس.. فقد كنت أشعر، أنى أمام مغامرة.

ونظرت إلي أعلى العوامة، فوجدت أربع ساريات من ساريات السلك الهوائى يستعمل للإرسال اللاسلكى والاستقبال..فاعترتنى رجفة مفاجئة.. فأن وجود سلكين هوائيين فوق سطح عوامة، قد يثير بعضا من الشكوك.

ثم تتابعت على الأفكار فى سرعة متلاحقة، وأصبحت بعد ذلك أسئلة لا أجد جوابا عليها:

هل يعرف اليهودى الذى يبدل لهما الأموال حقيقتهما فعلا.. وإذا كان يعرفها، فهل تكفيه العمولة الكبيرة التى يتقاضاها، لكى يسكت.. ولا يخون؟

وما حقيقة موقف حكمت فهمى من هذه المغامرة؟

وما مدى استعدادها للسير فيها إلى آخر الطريق؟

وهل هى تستطيع أن تقدر حقيقة هذا الطريق، والنتائج الخطيرة التى قد ينتهى بها إليها..

وكان لابد أن أجد جوابا لهذا.. ولذلك، كان لابد أن أدخل!..

ووضعت يدى على زر الجرس...

[1] نشر في العدد السادس عشر من "الجمهورية" الصادر في يوم الثلاثاء 22 ديسمبر 1953 - 15 ربيع الثانى 1373هـ

...وفتحت لى الباب، حكمت فهمى.. وبعد لحظات كان أمامي الألمانيان أبلر، وساندى.. يرحبان بمقدمى بينما تدور عيناى فى أرجاء العوامة، أحاول أن أستشف نوع الحياة التي تجرى بداخلها.

ولم يكن عسيرا علي أن أحدد هذه الحياة فى دقائق قليلة...

فقد كانت جميع المظاهر تدل على أن صاحبة العوامة قد تركت للألمانيين حرية التصرف فى عوامتها كما يشاءان وأنهما تصرفا فى عوامتها فعلا، فاتخذا منها وكر للترف والنعومة وحياة الليل والتهتك..

وكان واضحا أنهما ألقيا عن ظهريهما كل مسئوليات العمل الخطير الذى جاءا لكى يقوما به، وانغمسا إلي آذنهما فى الحياة التى تتناسب مع عوامة تملكها راقصة، ويعيش فيها رجلان فى عمر الورد، فى جيوبهما عشرات كثيرة من آلاف الجنيهات.

أين الجهاز:

وسألتهما عن جهاز اللاسلكى المعطل.. فضحك أبلر، وهو يقول:

- أتستطيع أن تجده لو بحثت عنه؟..

وخيل إلى أنى أستطيع، فقمت أطوف غرف العوامة، وأهبط درجاتها، وأصعد إلى أعلاها.. فإذا بها لا تحتوى ألا على وسائل الحياة الناعمة، وأدوات الترف والزينة.. وكؤوس الشراب، وصناديق الويسكى...

وفجأة عاد بى أبلر إلى حيث كنا فى بهو العوامة.. ومد يده إلى جهاز الراديو الكبير الموضوع في صدر المكان.. وكنت قد فحصته، فى دورتى، فلم أجد فيه أكثر من جهاز راديو" موبيليا"ـ أنيق فى أعلاه بيك أب مغطى بغطاء خشبى دقيق الصنع، وفى جوانبه دواليب صغيرة مقسمة لحفظ الاسطوانات.

وأمسك أبلر الجزء الخاص بالبيك أب، ثم حركه حركة بسيطة، فانفتح إلى أعلى.. وقال لى: أنظر.. فنظرت لأجد أمامى تجويفا كبيرا ساقطا فى جوف الجهاز العجيب، يكفى لكى يهبط فيه رجل، فيجد كرسيا صغيرا يجلس إليه، ويجد أمامه جهاز اللاسلكى الذى يعملان عليه..

وقال أبلر وهو يشير بيده داخل التجويف:

- تستطيع أن تجلس هنا على هذا الكرسى وأن تضئ النور الداخلى، ثم أغلق عليك الجهاز من فوق، وأدير أنا أسطوانة للرقص..

وقال زميله ساندى:

- إننا دائما نصنع هذا، نرقص على الموسيقى مع الضيوف، بينما يباشر أحدنا عمله الجهاز في هدوء..

ووجدتها فكرة جميلة.. فلن يستطيع أحد مهما أوتى من قوة الملاحظة أن يتصور أن تحت هذا البيك أب، محطة إذاعة كاملة، ورجل يذيع!

ونزلت إلى الفجوة، لأفحص الجهاز.

شكوك:

وكان شعورى ساعة جلست أمامه، وأخذت أدير فى مفاتيحه. أن هذا الجهاز لا يمكن أن يتعطل هكذا من تلقاء نفسه. فهو كما بدا لى جهاز دقيق متين الصنع. كما أنه بوضعه الذى كان فيه لم يكن معرضا لأى مؤثرات خارجية يمكن أن تؤدى إلي تعطله..

وفتحته من الداخل، فوجدت جميع صماماته سليمة، وحاولت أن أكتشف مكان العطب فيه، فلم أستطيع، فقد كان الجهاز جديدا على فى كل شئ... وكان من التعقيد بحيث لا يسهل اكتشاف سبب تعطله، أن لم يكن فاحصه خبيرا به وبالنظرية التي أسس عليها.

وخرجت يائسا.. أو بادى اليأس، وفى رأسى دوامة من الأفكار، وشكوك كثيرة...

وصدر منى سؤال مفاجئ لم أكن أحمله أكثر من معناه الظاهرى:

- هل هذا الجهاز معطل حقا؟!

واضطرت أبلر لهذا السؤال بينما أجاب ساندى بسرعة فائقة، والكلمات تتزاحم على شفتيه:

- أنه معطل.. معطل فعلا.. هل تستطيع إصلاحه؟

وقبل أن أجيبه بالنفى، كان هو يسألنى سؤالا آخر:

- أنك بلا شك تسمع عن الهر هوارد..

جهاز جديد:

وكنت أعرف أن هوارد هذا، ديبلوماسى فى مفوضية السويد فى مصر، وأنه كان يقوم برعاية شئون الرعايا الألمان في مصر، بعد إغلاق المفوضية الألمانية عند إعلان الحرب..

قلت: أعرفه..

فقال: إننا على اتصال به أيضا، وهو يعلم أن هذا الجهاز معطل، وهو الذى قال لنا أن نحاول الاتصال بك.

وقاطعته قائلا:

- ولكنى آسف جـدا، لأنى لا أسـتطيع إصـلاح هـذا الجهـاز، فلم يسـبق لى أن اسـتعملت أجهزة إرسال ألمانية أبدا..

وبدا أبلر الكلام فقال:

- أن الهر هوارد طلب منا أن نتصل بك..

وسكت قليلا ثم عاد يقول:

- أنه يعرف كل شئ عنا، ونحن نسـتعين بـه دائمـا عنـدما نحتـاج لأى شـئ.. وهـو أيضـا، يساعدنا...

وأكمل ساندي قائلا:

- وقد قلنا له أن هذا الجهاز قد تعطل، فجاءنا بجهاز آخر.. ولكننا لا نعرف كيف يعمل...

وسألتهما أنا:

- وهل الجهاز الآخر هنا الآن...

فأجاب ساندى:

- نعم، أنه فى الطابق الأسفل لقد سرقه لنا هوارد من المفوضية السويسـرية، وأعطـاه لنا لنواصل به عملنا، ولكننا حتى اليوم لم نستطيع تشغيله...

وأمسك بى من يدى وقال: هيا معى.. سأريك الجهاز الآخر.. وقد قال لنا هوارد أنك أنت وجميع ضباط سلاح الإشارة فى مصر، تستعملون مثله..

ونزلت معه إلى الطابق الأسفل وقد أخذت منى الظنون كثيرا...

لم تعد شكوكا:

وفى الطابق الأسفل، وجدت جهاز إرسال من النوع المعروف بالهاليكرافتر..

وفحصت الجهاز فوجدته جديدا لم يستعمل قط، ودهشـت لقولهمـا أنهمـا لا يسـتطيعان استعماله، لسهولة استعمال هذا النوع من أجهزة الإرسال وقلت لهما:

أن هـذا الجهـاز من أبسـط الأجهـزة اسـتعمالا، وأنى أسـتطيع أن أدلهمـا على كيفيـة استعماله فى لحظات قصيرة.

وفجأة خطرت لى فكرة.. وانطلق بها لسانى فى التو واللحظة..

فقد كانت شكوكى فى الرجلين قد بدأت تعلـو إلى مرتبـة اليقين.. كنت قـد اقتنعت في نفسى تماما، أن جهازهم الألمانى إما أن يكـون سـليما، وأمـا أن يكـون همـا قـد عطلاه

بنفسيهما.. وخطر لى أنى لو تـركت لهمـا الجهـاز الآخـر فسـوف يلفانـه أيضـا. ولم أكن أعرف السبب في هذه الشكوك، ولكنها كانت قد سيطرت على..

وقلت لابلر، وأنا أخذ بذراعه على سلم العوامة:

- أريد أن آخذ هذا الجهاز الأمريكى معى يوما، لأختبره اختبار دقيقا، ثم أعيده إليك..

وانتظرت من أبلر أن يمانع فى هذا، ولكنه أسرع يقول:

- بكل سرور.. يوم أو أكثر كما تشاء...!

نساء.. وخمر:

وكنا قد وصلنا إلى البهو الذى كنا فيه من قبل.. وهناك كانت فتاتـان صـغيرتان تجلسـان وقد وضعت أمام كل منهما كأس من الويسكى.

ولاحظت أن الفتاتين قد آتيتا لزيارة الألمانيين..

ولاحظت أيضا أنهما لا يعرفان الألمـانيين من قبـل، فقـد قـامت حكمت فهمى بتقـديمها إليهما..

ورأيت الألمانيين وقد استخفتهما النشـوة، والمـرح، وعلمت أنهمـا سـوف يقصـدان إلى جروبى لتناول الغذاء، وأنهما سيعودان بعد ذلك إلى العوامة بصحبة الفتاتين..

وكان لابد أن أنسحب.. فاعتذرت عن قبول دعوتهما للغذاء.. لآخذ معى الجهاز..!

وبدأت شكوكى تجد أسـبابا ترتكـز إليهـا، ثم تحققت بعـد ذلـك من أن شـكوكى لم تكن عبثا..

يسرق من سويسرا:

فقد علمت أن الألمانيين قد استطابا الحياة الناعمة، الـتى وفرتهـا لهمـا آلاف الجنيهـات التى بدلوها عن طريق اليهودى من البنك الأهلى، وتعرفا على عدد من الراقصات، ومن بائعـات الهـوى... وأرادا أن يطيلا مكثهمـا فى القـاهرة، وان يلقيـا عن كاهليهمـا عبء المسئولية والمخاطرة.. فادعيا أن الجهاز الذى معهما قد نعطل، وأخيرا بـذلك" هـوارد" وكان من ناحيته متصلا بقيادتهم، واسـتطاع" هـوارد" أن يزودهمـا بهـذا الجـاز الأمـريكى فادعيا أنهما لا يستطيعان تشغيله.. واتصلا بنا..

وبهـذه الوسـيلة اسـتطاعا أن يغطيـا أنفسـهما فى قضـاء الأيـام والليـالى بين سـهر في المراقص ليلا، ولهو مع الغوانى نهارا.. فقد كـانت حجتهمـا أن الجهـاز معطـل، وأنهمـا لا يستطيعان العمل بالجهاز الجديد!!

وبدأت المتاعب!

عرفت هذا.. ولكنى عرفته بعد فوات الأوان..

وفى يوم الأحد، ذهبت إلى العوامة، وأوقفت التاكسى خارجا.. وأخذت الجهاز، وخــرجت تاركا خلفى أبلر وساندى، ومعهما فتاتان.. جديدتان!!

ومر الأحد، والاثنين...

وفى يوم الثلاثاء، قبض عليهما..

وفى اليوم نفسه عرفت أنا بنبأ القبض على هذين الرجلين، فبدأت مخـاوفى، فقـد كنت حتى ذلك الوقت، أعتقد فى وجود الخرافة الكبرى الـتى عـرفت فى مصـر، باسـم "قلم المخابرات البريطانية"..

وكنت على يقين حـتى ذلـك اليـوم من أن هـذه المخـابرات هى الـتى أمسـكت بخيـوط المغامرة التى جاءا ليقوما بها، وأنها هى الـتى قبضـت عليهمـا وأنـه ليس من المسـتبعد أبدا أن تكون عيون المخابرات قد وقعت على فى الزيارتين اللتين قمت بهمـا للعوامـة، وأنى بهذا بت فى خطر أنا ومن معى فى تشكيل الضباط.

وبدأت أعد نفسى لكل احتمال وأنبأت أصـدقائى بـالقبض على هـذين الـرجلين، وأبلغت الفريق عزيز المصرى أيضا..

ولم أقـف عنـد هـذا، فقـد كـان على أن أعـرف كيـف قبض عليهمـا، وهـل اكتشـفت المخابرات ما كان بينى وبينهما من صلة، وهل هناك مراقبة موضوعة علينا..

وبـدأت سلسـلة من التحريـات على نطـاق ضـيق، مـأمون... فعلمت أن المخـابرات البريطانية قد علمت بوجودهما منذ شهر، وأن الرقابة كانت مفروضة عليهما طوال ذلك الشهر ليلا ونهـارا، وأن هم المراقبـة كـان معرفـة أعوانهمـا فى القـاهرة والعمـل الـذى يقومان به فعلا..

خرافات المخابرات:

وعرفت بعد ذلك أن هذه المراقبة لم تكتشـف صـلتى بهمـا، ولم تقـع أعينهـا على داخلا إلى العوامة ولا خارجا منها.. وأنها حتى بعد القبض عليهما، لم تكن تعرف عنى شيئا...

وتكشفت لى المخابرات البريطانية على حقيقتها خرافة كبيرة، ملاءة الجيوب بالـذهب.. فقد عرفت بعد ذلك كيف قبض عليهما، ويوم عرفت ذلـك.. عـرفت قصـة من القصـص التي تلعب فيها المرأة، ويلعب فيها الذهب، وتنام فيها عيون المخابرات...

وعرفت في ذلك اليوم شيئا آخر أيضا.. عرفا حياة جديدة لم تكن لى خبرة من قبل...

الفصل التاسع

دخلت السجن بسبب شهرزاد!

الفصل التاسع

دخلت السجن بسبب شهرزاد![1]

[1] نشر في العدد الثامن عشر من "الجمهورية" الصادر في يوم الخميس 24 ديسمبر 1953 - 17 ربيع الثانى 1373هـ

قبض البوليس على أبلر وساندى يوم الأحد، ومر بى يوم الاثـنين وأنـا أحـاول أن أعـرف إن كانت صلتى بهما قد اكتشفت أو لا...

فعلى الإجابة عن هذا السؤال يتوقف مصيرى، كضابط فى الجيش.

وكمصرى حر يعيش حياته طليقا كما يعيش المصريون..

وقد يـذهب الأمـر إلى أكـثر من هـذا، فتتوقـف على الإجابـة على هـذا السـؤال: حيـاتى وموتى.

وأكثر من هذا.. أن نتيجة اكتشاف المخابرات البريطانيـة لصـلتى بهـذين الـرجلين، كـان يمكن أن تكـون المتـاح الكبـير الـذى يفتح أمامهـا البـاب لاكتشـاف حقيقـة تشـكيلنا فى الجيش، هذا الذى ترامت أنباؤه إلى إنجلـترا منـذ شـهور كـثيرة، فـأدت بهـا إلى افتعـال حادث 4 فبراير، ومجابهة هذا التشكيل بقوة الوفد الشعبية فى ذلك الوقت.

ولم أكن أتوقـع أن يقبض على سـريعا، فقـد كنت أرجح أن المخـابرات البريطانيـة، وأن كانت قد اكتشفت صلتى بالجاسوسين الألمـانيين، فهى لابـد أن تتركـنى تحت المراقبـة فترة من الوقت، لتتمكن بهذا من وضع يدها على سر تشكيل الضباط كله...

كان هذا ما اعتقدته، ولكنى فـوجئت فى يـوم الثلاثـاء التـالى، أى بعـد يـومين إثـنين من القبض على الجاسوسين، بالقبض على وعلى زميلى حسن عزت.

ودهشت لهذا السرعة، وخيل إلى أن المخابرات البريطانية الساهرة، لم تكن غافلة عنا، وأنها قد وضعت يدها فعلا على كل أسرارنا وإلا لتركتنى طليقـا كطعم يوقـع لهـا الصـيد الثمين فى الشرك.. ولكن بعد ذلـك، قـابلت أبلـر، وسـاندى، أثنـاء التحقيـق، واخـذ أبلـر يشرح لى تفاصيل كثيرة، سمعتها يشغف، وتنفست بعدها الصعداء..

بلاد شهرزاد!

كان ساندى شأن أكثر الألمان ولوعـا بالموسـيقى الكلاسـيكية الأوربيـة... ولم يكن ابلـر كذلك، فقد كان على النقيض منه لا يحب ألا موسـيقى الجـاز.. تمـتزج طرقاتهـا العنيفـة بالخمر التى تدور برأسه، فتحيله كائنا عجيبا. نصفه لسان، ونصفه حيوان..!

وفى إحـدى الأمسـيات، جلس صـاندى فى عوامـة الراقصـة حكمت فهمى، يسـتمع إلى موسيقى "شـهر زاد" للموسـيقار الروسـى ديمسـكى كورسـاكوف.. وكـان أبلـر مغيطـا محنقا، يحاول إغراء صديقه للقيام معه إلى موعـد حافـل ضـربه مـع بعض الغـوانى فى ملهى الكيت كات.. وأصر ساندى على سماع الموسـيقى الخالـدة حـتى نهايتهـا، فوضـع أمامه كأسا من الخمر، وأخذ يسمع ويحلم، ويتمثل فى خياله آخر مرة شـاهد فيهـا هـذه الباليه على مسرح من مسارح برلين..

ورويدا رويدا اندمج أبلر معه فى الاستماع إلى الموسيقى.

ولكنه لم يسلم نفسه لأنغام الموسيقى بقـدر مـا أسـلم نفسـه لهمسـات شـيطان أخـذ يراوده..

وفجاه صاح بصديقه صيحة مخمورة:

- ما كان أسعده هذا الملك.. شهريار...

وضحك ساندى، وهو مسترسل فى أحلامه وقال:

- كان يأتى كل ليلة بعذراء طاهرة.. يبيت معها ليلته.. ثم يذبحها فى الصباح وصاح أبلـر، والخمر فى رأسه:

- هكـذا الحيـاة. مـاذا ينقصـنا نحن، لنكـون مثلـه!.؟ أنـا شـهريار الثـانى، وأنت شـهريار الثالث...

ألسنا فى بلاد ألف ليلة وليلة!!؟

- أكنت تقرا مثلى قصص ألف ليلة وليلة أيام الشباب...

فأجاب أبلر:

- لقد كدت أطرد من المدرسة وأنا أقرؤها يوما فقد كـانت معى الترجمـة الحقيقـة لهـا، بكل ما فيها من كلام لذيذ!!

وسأله ساندى بخبث:

- وهل تحب أن تذبح النساء...

فأجاب أبلر...

- ولماذا أذبحهن.. أعطيهن مالا... مالا من البنك الأهلى.. كم يكـون لذيـذا أن تعيش كـل ليلة فى أحضان عذراء!

وانتهت الموسيقى وخرج العربيدان إلى الكيت كات يقضيان سهرتهما.. ولكن خيال ألف ليلة وليلة لم يبرح ذهن أبلر وساندى فى تلك الليلة.. فكانا كلما سكتت الموسيقى رفعا عقيرتهما بالحان شهر زاد، فتضج القاعة بالضحك على هذين "الإنجليزيين" - كمـا كـانت تظن الراقصة - اللذين ذهب بعقلهما الشراب.

عذارى شهريار:

ولم تمر الليلة على خير..

فقد أسر أبلر بأحلامه الحيوانية إلى إحدى صديقاته.. فضـحكت الصـديقة بخبث، ودخلت معهما فى مفاوضات، وأصبح أبلر بعدها شهريار الثانى، وأصـبح سـاندى شـهريار الثـالث أيضا...

وبدأت العوامة تستقبل كل صباح فتاتين جديـدتين من بائعـات الهـوى، فى ثيـاب كثيـاب الطالبات.. يدخلان علي استحياء..

ويخرجان وقد امتلأت حقيبة كل منهما بمائتى جنيه!!

أخذتاهما من الرجلين باعتبارهما من العذارى!!

واشـتهر أمـر أبلـر وسـاندى بين مجموعـة من فتيـات اليهـود، اللـواتى كن يقمن بهـذه التمثيلية العاطفية.. الفذة..

حتى كان يوم السبت السابق للقبض عليهما..

وكانت فى العوامة يهوديتان جاءنا لتمثل كل مهما دور عروس من عذارى شهريار...

وانتهى التمثيل.. والرجلان فى نشوة باللغة، من السكر الشديد، والخيال المنطلق..

وتهيأت الفتاتان للخروج.. ثم وقفنا فى انتظار الأربعمائة جنيه.. ودخـل أبلـر إلى غرفتـه، ليأتى بالنقود، ولكنه لم يجد سوى سبعين جنيها فقط، هى كـل مـا كـان لديـه من أوراق مالية مصرية..

ومد أبلر يده بالنقود إلى إحداهما فأخذتها، وعدتها، ثم قذفت بها فى وجهه وهى تصيح:

- أتسلبنى أعز ما أملك، بثلاثين جنيها؟.. أين باقى المبلغ؟

وصاح فيها أبلر، وقد أغاظه منها تطاولها عليه.. وقال:

- ليس معي غير هذا.. هيا أخرجي قبل أن أذبحك كما كان يفعل شهريار...

وارتجفت الفتاتان، وقد سمعتا كلمة "أذبحكـ" وخيل إليهمـا أن هـذين "الإنجلـيزيينـ" قـد يصنعان أي شئ دون أن يخشيا عاقبة أو حسابا.

ورأى الألمانيان هذا الهلع على وجه الفتاتين، فاستبدت بهما نشوة الخمر والانتصار...

وانطلق أحدهما يغنى نشيد "ألمانيا فوق الجميع" ثم شاركه الآخر، فكونا معا ثنائيا فريدا فى نوعه، ينشد نشيد هتلر..!

ولم يكن هذا النشيد مجهولا.. خصوصا فى أوساط اليهود.. فهزت إحدى الفتاتين رأسها، وجذبت الأخرى، ومضيتا، من العوامة إلى قلم المخابرات البريطانية.

وبعد ساعات قليلة.. كان أبلر وساندى فى طريقهما إلى السجن.!

أمام تشرشل!

قص على أبلر هذه القصة التى تكشف عن خرافة المخابرات البريطانية فتظهرهـا على حقيقتها: ذهب كثير واعتماد على إغراء هذا الذهب للنفوس الضعيفة التى تخـون وطنهـا في سبيله.. فليست المخابرات إذن هى التى اكتشفت سـر الجاسوسـين.. ولكن الفتـاة اليهودية التي أصرت على أن تأخذ جسدها مائتى جنيه، وسيان عندها أن تأخذ المبلغ من أبلر.. أو من مخابرات الإنجليز!

وسألت أبلر بعد ذلك، على السبب فى القبض على - أنا وعزت - وكنت قد بـدأت أشـك فى أن الفتى المجنون قد أعترف بالصلة التى قامت بينى وبينه.. فـأطرق الألمـانى إلى الأرض، ولم يجب، وكدت أنا انفجر غيظا، وأهوى عليه بقبضة يدى...

ولكنى كظمت غيظى... وانتظرت.

وظهرت لى الحقيقة كاملة عنـد مـا علمت بعـد ذلـك، أن الجاسوسـيين قـد أمسـكا عن الكلام يوما كاملا.. ثم حملتهمـا المخـابرات البريطانيـة حملا إلى مسـتر تشرشـل وكـان يزور مصر في ذلك الوقت، فلما مثلا أمامه، وعدهما بحياتهما أن اعترفا بكل شئ...

واختار الجاسوسـان بين المـوت والحيـاة.. فاعترفـا اعترافـا كـاملا.. وجـاءا بى وبحسـن عزت إلى السجن!!

حتى لو كان مصطفى النحاس:

وبـدأنا نـرقب النهايـة المحتومـة لضـابطين فى الجيش المصـرى، يقبض عليهمـا بتهمـة الاتصال بجواسيس الأعداء.. وقد كان الألمان فى ذلك الوقت هم أعداء مصر..!

ثم جاء اليـوم الـذى يتقـرر فيـه المصـير.. فقـد صـدر أمـر تشـكيل المجلس العسـكرى لمحاكمتنا، ودعينا للمثول أمامه.

ولم نكد ندخل حتى فوجئنا بما أفقدنا الصواب..

كان المجلس مكونا من ثلاثة من ضباط المخابرات المصرية، وإنجليزيين. أحدهما برتبـة ميجر، وأسمه جنكنز.

والثانى برتبة كابتن وأسمه سمبسون..

وضابط من البوليس المصرى كان أسمه كمال رياض..

وكان يبدو من تصرفاته وحركاته وأسئلته، إنجليزيا صميما لا يمت إلى المصرية بشئ..

وقد لا تهم القارئ تفاصيل المحاكمة.

فقد كان أهم ما فيها اعتراضنا على أن نحاكم كضباط مصريين، أمام ضباط إنجليز، ولـو كانوا مخولين هـذه السـلطة من وزيـر الـدفاع حينئـذ حمـدى سـيف الـدين، ومن رئيس الحكومة نفسه، مصطفى النحاس.!

بل لقد كان هذا التصرف من وزير الدفاع المصرى، ومن رئيس الحكومة المصـرية، هـو الخنجر الأول الذى طعنا به فى ذلك اليوم..

ولم يستطع المجلس العسكرى أن يحصل منا على شئ... لا اعترافات ولا إجابات.

لا شئ غير الاحتجاج العنيف.. ونظرات الاحتقار..

وتقرر وضعنا تحت الإيقاف.. ثم طردنا من الجيش فى 8 أكتوبر 1942 أى بعد حـادث 4 فبراير بثمانية أشهر فقط..

ولم نكد نبرح مكاننا من الجيش، حتى تسـلمتنا السـلطات المدنيـة، فحملتنـا إلى سـجن الأجانب ثم رحلتنا إلى معتقل المنيا.

حلقة الاتصال بالإخوان:

كان هذا الحادث، الـذى انتهى بطردنـا من الجيش واعتقالنـا، نـذيرا آخـر بتأجيـل العمـل الحاسم الذى كنا تفكر فيه..

وكان كذلك بدءا لتطورات أخرى فى تشكيل الضباط الذى لم يتأثر موقفه بخروجنــا من الجيش، ولم يتأثر بذلك موقفنا من نحن أيضا.

وكان نهاية صلات مع الإخوان المسلمين، وبدء صـلات جديـدة معهم فقـد كنت أنـا حـتى ذلك الوقت حلقة الاتصال الوحيدة بين تشكيل الضباط وبين الإخوان المسلمين.

فلما انتهى الآمر باعتقالى، بدأت حلقة أخرى عملها..

وكنت حين قبض على، قد أجريت فعلا آخر اتصالاتى فى تلك الفترة معهم...

وكانت هذه الاتصالات فى نفس الفترة التى تم فيها اتصالى بالجاسوسين الألمانيين...

فقد كانت خطتنا إذ ذاك لإبادة الجنود الإنجليز العائدين من العلمين، قد تمت من الناحية العسكرية، وكانت استعداداتنا كافية فعلا..

وكنا قد بدأنا نفكر فى التنفيـذ العملى.. فكـان لابـد لنـا من أن نعـاود الاتصـال بـالإخوان المسلمين لكى يكونوا هم القـوة الشـعبية الـتى تشـاركنا باسـم الشـعب تبعـات العمـل الكبير...

وإذا قلت "الاتصال بالإخوان المسلمين" فإنما أعنى الاتصال المرحـوم حسـن البنـا، فلم تكن لى صلة عملية بغيره.. أو هكذا أراد حسن البنا نفسه.. فقد كان كما قلت من قبل،

أحرص ما يكون على أن يظل ما بيننا وبينه سرا خافيا على الجميع، حتى على كبار الإخوان أنفسهم...

وعندما بدأت الاتصال به للقيام بالعمل الفعلى الذى كان يعرف أننا ننتويه، تكتم الأمر بينه وبين نفسه..

فقد ذهبت إليه حينئذ فى دار الإخوان وطلبت مقابلته لآمر هام، وكان الأستاذ السكرى وكيل الإخوان المسلمين موجودا معه، فإذا به يشير بأن أدخل إلى غرفة فى مدخل الدار، كانت مخصصة لشركة المعاملات الإسلامية.

وبذل رحمة الله جهدا كبير لكى لا يشعر الأستاذ السكرى بأى حركة غير عادية، ثم تسلل إلى فى الغرفة من باب آخر لها، وأخذنى من يدى فخرجنا متلصصين، إلى عربة نقلتنا إلى بيته بالقرب من دار الجماعة..

وأغلق البنا باب غرفته، واوصد الشبابيك، ثم مال على برأسه لكى يسمع ما أردت أن أنهيه إليه..

دور الإخوان:

وفى تلك الليلة بسطت للمرحوم البنا كل التفاصيل، وتوسعت معه فى شرح دقائق الخطة العسكرية الموضوعة، وأفهمته حقيقة الدور الذى نريد أن يقوم الإخوان به، وحدود هذا الدور..

وأطرق البنا طويلا وهو يستمع لى ثم سكت فترة طويلة أخرى قبل أن يتكلم.. وعندما تكلم أجهش فى البكاء!!.

ومرت فترة وهو يتكلم..

كنت أنا خلالها كالمسحور.

قال كلاما كثيرا.. كلاما مثيرا أمتزج بالإيمان الشديد.. وكان واضحا جدا من كلامه أنه يؤثر مصلحة البلاد..

ولكننى عندما خرجت من عنده، سالت نفسى:

هل وعد الرجل بشيء.؟

هل احتضن خطتنا.؟

هل هو سيقوم بتنفيذ نصيب الإخوان منها.؟

وحرت فى الإجابة على كل سؤال من هذه الأسئلة.. فالواقع أن الرجل تكلم كثيرا وأثر فى نفسى كثيرا، وبكى من أجل مصر كثيرا.. ولكنه لم يعد بشئ ولا احتضن خطتنا، ولا أفهمنى أنه مقبل على تنفيذ نصيب الإخوان من الخطة.!!

هل كان معنا!؟

ولكنك لو سألتنى حينئذ سؤالا من هذه الأسئلة، لما استعطت أن أجيب عليه إجابه قاطعة كما أستطيع أن أفعل اليوم.. فقد كان تأثيره الشديد على قد أبعد عن ذهنى كل شك.

أنه رغم عدم تقيده بأى وعد فهو معنا.. بقلبه ووجدانه وتفكيره.. وروحه أيضاً.

وكان أخطر ما أردت معرفته منه فى تلك الجلسة، وهو أن اعرف شيئا عن استعداداته من حيث الأسلحة.. فقد كنت على يقين أن الرجل يملك سلاحا، وأنه يختزنه ويعرف كيف يخفيه..

وكانت مباراة بينى وبينه.. أنا أريد أن اعلم واطمئن، وهو يباعد بينى وبين ما أريد مباعدة لبقة لا تكاد تشعر بها أبدا..

وفى جو الغموض والأسرار الذى كان يحوط نفسه به، ويحوط كل أعماله وكل جماعته، كان سهلا عليه أن يقنعك بأنه يملك سلاحا، وأن يقنعك بالا تسال عنه أبداً..

وأن يقنعك بأنه أعد فعلا جماعته للكفاح، وأن يقنعك بأن تحفظ هذا سرا بينك وبين نفسك...

وأن يقنعك بأنه معتمد على قوة كبيرة مخيفة مجهولة، وأن يقنعك أيضا بأن تؤمن بهذه القوة، دون أن تعرف عنها أى شئ..

وكان هذا أخر اتصال لى بحسن البنا قبل اعتقالى.

ولكن اتصالات جديدة بدأت عقب ذلك.

اتصالات بينه وبين ضابط آخر من ضباط تشكيلنا، واتصالات بينه وبينى أثناء هربى من المعتقل.

وكانت هذه الاتصالات الجديدة، صورة أخرى من صور الفصل الكبير الذى اشترك الإخوان معنا فى صفحاته.

الفصل العاشر

عزيز المصرى يتوقع هزيمة رشيد عالى الكيلانى[1]

[1] نشر في العدد الثالث والعشرون من "الجمهورية" الصادر في يوم الثلاثاء 29 ديسمبر 1953 - 22 ربيع الثانى 1373هـ

كان اعتقالى خاتمة لفترة من فترات الكفاح الذى بدأناه يوم استقر عزمنا عليه فوق تباب الشريف.. إلى جوار منقباد.. ولم يكن هذا الكفاح يستطيع أن يتصل طول الوقت، فقد قلت أن جمال عبد الناصر كان قد نقل إلى السودان، وأن تشكيلنا الأول كان قد تشتت هنا وهناك.

وكانت الأحداث قد دفعت بعضنا لكى يعمل، فيعمل بروح التشكيل، وفكرته.. واتصل فى ذلك بمن استطاع الاتصال بهم، وتصرف وحده حين أعوزته المشورة..

وقد تلا هذا الاعتقال أحداث.. وسبقته أيضا. غير ما ذكرت. أحداث..

وكانت كل هذه الأحداث، وثيقة الصلة بالتمهيد للثورة التى كنا نقوم به، وبالعمل الفعلى الذى كانت الأحداث تدفعها إلى القيام به..

ولكي يتم اليوم ما نستطيع سرده من تفاصيل هذه الثورة وتمهيداتها سأروى قصة الدور الفعلى الذى قام به عزيز المصرى، الذى أدى إلى اعتقاله ومحاكمته..

إنه فصل سابق.. أذكره اليوم, لأذكر في الحلقة القادمة, فصلا آخر لما ذكرت..

كنا قد عدنا من الصحراء الغربية، عقب رفضنا أوامر تسليم السلاح إلى القوات البريطانية.

وكنا كما أسلفت، قد عقدنا العزم على الاتصال، بعزيز المصرى، وعلى ماهر..

ولم يتم اتصالى بعلى ماهر، ولكنى اتصلت بعزيز المصرى، على النحو الذى ذكرته..

ورغم التحفظ والحذر الشديد اللذين كنت ألتزمهما كلما ذهبت إليه إلا أننى فؤجئت ذات يوم بالقائمقام موسى لطفى، مدير المخابرات المصرية وقتذاك، وهو يقول لى إننى التقى بعزيز المصرى هنا وهناك.

وأن المخابرات البريطانية التى تراقبه، قد وضعتنى أنا أيضا تحت المراقبة!!

وسألت القائمقام موسى لطفى عما يريده منى..

فسكت ثم قال:

- أنى فقط أحذرك..

وفهمت أن تحركاتى كانت مكشوفة وذكرت لهذا الرجل إحسانه إلى بكشف هذا السر لى..

اللحظة الحاسمة:

وبدأت أزيد من حذرى، ولكنى لم أقف اتصالى، بعزيز المصرى، ولا بالجماعة الـتي كنت ألقاها من تشكيلنا..

وكان شغلنا الشاغل فى تلك الفترة، هو مراقبة تطـورات هجـوم المحـور فى الصـحراء الغربية.. كنا نتتبعه ساعة بساعة، ونحن نستعد ونتكتل انتظارا للحظة الحاسمة..

وكان يوم من أيام الصيف فى عام 1941..

كنت عائدا إلى منزلى، عقب نزهة قصيرة أعقبت فيها نفسى من متاعب التفكير وتـوتر الأعصاب، ولم أكد ادخل البيت، حتى أخبرت بـأن عزيـز المصـرى قـد مـر بى، فلمـا لم يجدنى طلب أن أتوجه إليه فور حضورى.. وكانت هذه الزيارة من عزيز المصرى، وهـذا الطلب أيضا، يحملان فى طياتهما بالنسبة إلى، شيئا خطيرا.

فلا بد أن شيئا قد وقع، وأننا على وشك أن نخوض إحدى المعارك.!!

وغادرت منزلى فورا.. وأسرعت إلى عزيز المصرى.

وجلس عزيز يروى لى تفاصيل مثيرة، ألهبت حواسى، وجعلتنى أعتقـد أن سـاعة البـدء، قد تحددت..

وأننا فى الطريق إليها..

قـال لى عزيـز المصـرى أن الألمـان قـد اتصـلوا بـه عن طريـق بعض أعـوانهم.. وأنهم يرحبون بخبرته فى شئون الشرق الأوسط والعرب، وأنهم على أتم اسـتعداد لاختطافـه، ونقله إلى قيادتهم، حيث تستطيع خبرته أن تلعب دورا عمليا كبيرا..

إذن فقد بدأت نـذر المخـاطرة.. ولن يكـون العمـل داخليـا فقـط، وإنمـا سـيكون هنـاك تنسيق لخطة من الداخل مع خطة أخرى مع الألمان..

وكان يجب أن نقرر هـل نقـوم بهـذه المخـاطر، أم نـرفض القيـام بهـا.. وكـان علينـا أن ندرس كل ذلك على أساس الاعتبارات والظروف المختلفة المحيطة بنا.. فى القاهرة..

ففى هذا الـوقت كـانت الحكومـة ومن خلفهـا مخـابرات الإنجلـيز تشـك فى نوايـا عزيز المصرى، وتتوقع منه أن يهرب إلى الخـارج ومن أجـل هـذا سـحبت منـه جـواز سـفره، ووضعت عليه رقابة شديدة..

ولم يقابل عزيز المصرى هذا الأجراء بالرضى، بـل توجـه إلى المسـئولين، وطلب منهم أن يسمحوا له بالسفر إلى الخارج فعلا. فرفضوا هذا الطلب..

ومعنى هذا، أن كل حركة من حركات عزيز المصرى كانت تسجل وتحسب عليه..

وأكثر من هذا أن حكومة مصر، ومخابرات الإنجليز كانتا تتوقعان سفره هذا من ناحية..

أما من الناحية الأخرى التى جعلت عزيز المصرى يشعر كأنـه سـبع قـد حبس فى قفص من حديد.. فهى قيام ثورة رشيد عالى الكيلانى فى ذلك الوقت بالعراق!!.

الساسة العرب!

كانت هذه الثورة، هى المتنفس الحقيقى الوحيد لنا، هنا فى مصر.. وكنا نتابع أنباء هــذه الثورة، فى حماسة بالغة، ونعلـق عليهـا آمـالا واسـعة.. ولكن نظرتنـا إلى هـذه الثـورة، كانت تختلف كل الاختلاف عن نظرة عزيز المصرى..

كانت نظرتنا مليئة بالارتياح والحماسة والتفاؤل..

واكانت نظرتنا مليئة بالضيق والتشاؤم..

فقد كنا فى شبابنا وحماستنا، نريد أن نصنع ما صنعه رشيد عالى الكيلانى..

ننقض على الإنجليز ونعلنها عليهم فى أزمتهم ثورة مسلحة..

وكانت هذه البداية من رشيد عالى هى المفتاح الذى رأيناه يفتح لنا الطريق، ويشعل نار شعوب هذه البلاد على الغزاة فيها..

ولكن عزيز المصـرى، كـان يسـمع أنبـاء هـذه الثـورة فينتابـه الضـيق والعصـبية، ويملأه التشاؤم..

وكنا نسأله فى ذلك.. فيقول:

- أنتم لا تعرفون رجال السياسة فى العراق مثلما أعرفهم..

وكان يسترسل فى حديثه فيروى لى قصصا من خيانات الساسة العرب أو أكثر الساسة العرب على الأصح، منذ اتصل بالأحداث فى عهد الدولـة العثمانيـة، وكـان إذ ذاك يـرعى الحركة العربية.

وكان يسمع أنباء هذه الثورة، ثورة رشيد عـالى، فيتوقـع الخيانـة، وتتجسـم لـه الخنـاجر التى لابد أن يطعن بها رشيد فى ظهره...

وكان يتصور هذا المصير، لتلك الثورة المخلصة، فيكاد ينفجر غيظا، وكمدا..

هروب عزيز المصرى:

ولم نكن نحن.. حتى آخر لحظة، نشاركه هذا الشعور، أو نقبل منه هذا الكمد..

هذان الظرفان: المراقبة الشديدة المفروضة عليه من الحكومة والإنجليز.. وثورة رشيد عالى التى كان يتوقع لها أن تطفئها الخيانة.. كانـا همـا العـاملين الرئيسـيين فى تكـييف الموقف عندما عرض الألمان عرضهم عليه، أن يخطفوه لستفيدوا من خبرتـه فى وضـع خططهم.

وفكر عزيز المصرى.. وفكرت معه.. ثم استقر رأينا على وجوب سفره.. وعدم إفلات هذه الفرصة... وفى اليوم التالى، عاد عملاء الألمان إلى عزيز المصرى، فأبلغهم قراره بالقبول..

ووضع الألمان خطة الاختطاف..

طلبوا منا أن نحدد لهم مكانا خارج القاهرة يصلح لنزول الطائرات.. وقالوا انهم بمجرد معرفة هذا المكان، سيرسلون طائرة تحمل العلامات الإنجليزية لتهبط فيه.. ويكون عزيز المصرى فى انتظار الطائرة.

وعلى الفور تناولنا الخرائط، واخذنا نحن الاثنين، ومعنا زميلى عبد المنعم عبد الرؤوف ندرس جميع الأماكن، وندرس أيضا كل الاحتمالات.

اخترنا مطار الخطاطبة.. ولم يكن مطارا بالمعنى المفهوم، وأما كان مجرد أرض صالحة لهبوط طائرة!.

وقمنا ثلاثتنا لاستكشافه بعربة عزيز المصرى، ثم حددنا مكانه على الخريطة بالطريقة الطوبوغرافية العسكرية.. وأرسلناه إلى الألمان!.

وبدأنا نحن ننتظر الموعد الذى سيحدده الألمان لهبوط طائرتهم" الإنجليزية" فى أرض الخطاطبة..

ولكن دهشتنا كانت شديدة عندما جاءنا رد من الألمان، يرفضون فيه فكرة "الخطاطبة" ويعينون منطقة "جبل رزة" على طريق الواحات البحرية، مكانا للقاء..

البارون التائه:

وأخذنا ندرس أسباب هذا التغير.. فوجدنا أن الألمان كانوا على حق وأنهم على دراية تامة بصحرائنا، ومعرفة حقيقية بوسائل الهروب من مصر.. ولعل هذه الخبرة قد اكتسبت عن طريق الرحلات التى قام بها كشافوهم ورحالوهم قبيل الحرب والتى تاه فى إحداها أحد باروناتهم فى صحرائنا..

لهذا قبلنا هذا التغير، وحددنا يوم السفر..

كنا إذ ذاك فى يوم أربعاء، وكان سفر عزيز المصرى قد تحدد له يوم السبت التالى على الفور...

ولا أدرى كيف توقعت مخابرات الإنجليز أننا على وشك اتخاذ خطوة خاصة...

فقد صدرت إلى فى نفس اليوم - يوم الأربعاء - أوامر بالنقل إلى الصحراء الغربية فورا، وأنبأنى مدير السلاح، وهو يصدر إلى أمره، وجوب سفرى فى اليوم التالى مباشرة.. يوم الخميس!!..

ولم يكن لهذا النقل أسباب.. وإنما كان أمرا واجب التنفيذ فحسب..

ووقفت حائرا أمام مدير السلاح اللواء أحمد الصاوى، وهو يصدر إلى أمره. وكان على أن أختار، أما أن أسافر فى الموعد المحدد وأما أن أرفض السفر، ومعنى هذا إعلان عصيانى لأوامر الجيش فى ظروف حرب..

وهى أخطر تهمة يمكن أن توجه إلى ضابط فى الجيش...

وخرجت من عند مدير السلاح، وتوجهت إلى عزيز المصرى، لأعرض أمرى عليه..

ولكنه رفض أن يشير بشئ على وفوض لى الأمر كله.. والشئ الوحيد الذى اتفقنا عليه هو وجوب سفر عزيز المصرى فى الموعد الذى تحدد فعلا.. وأن يكون عبد المنعم عبد الرؤوف فى صحبته.. حتى تطير به طائرة الألمان..

وقد تركت الأمر لهما، وتوجهت أنا إلى المستشفى العسكرى صباح الخميس.. وأدعيت أنى اشعر بآلام مترتبة على مرض فى القلب أصبت به أثر حادث تصادم كان قد وقع لى..

ولم يكن صعبا أن أحصل على أجازه مرضية من المستشفى العسكرى وأن أبطل بذلك، - ولو مؤقتا - أمر النقل إلى الصحراء..

وقضيت يومين فى المستشفى أترقب يوم السبت، وأتعجله.

سوء الحظ:

وجاء يوم السبت.. وزارنى فى نهايته عبد المنعم وكان حزينا مبتئسا!!. أن الرحلة لم تتم، ولم يستطع عزيز المصرى أن يصل إلى "جبل رزة" ولم يكن السبب انكشاف أمر هذه الرحلة، ولا رقابة البوليس، ولا أى شئ من كل الأسباب التى تطوف بالذهن لأول وهلة..

ولكنه كان القدر..

فقد خرج عزيز وعبد المنعم بسيارة جديدة اشتريت خصيصا لهذا الغرض.. وسارت بهما السيارة شوطا، وإذا بها تتوقف عن السير فجأة على مقربة من الهرم، وقبل أن تدخلا بها طريق الواحة البحرية، الذى كانت الطائرة الألمانية ستهبط فيه. وكان الاتفاق أن تهبط الطائرة عند الغروب، وأن يصعد إليها عزيز بمفرده، ثم يتصل بنا عن طريق اللاسلكي فور وصوله إلى خطوط الألمان.

وقال لى عبد المنعم، أنهما لم يتمكنا من إصلاح العطب الذى أصاب السيارة، فتركاها فى مكانها بعد أن فات الوقت المحدد لهبوط الطائرة.. وعادا.!.

وقال لى أيضا: أن عزيز المصرى فى حالة عصيبة شديدة بسبب هذا الحادث.

ومضى بعد ذلك يومان ثم أتصل أحد رجال الألمان بعزيز المصرى وابلغه أن الطائرة قد أتت فى موعدها، وأنها حومت حول المكان، ولم تجد الإشارة المتفق عليها، فعادت..

ثم مرت أيام كثيرة، دون أن يجدد الألمان اتصالهم بعزيز المصرى.. وكان لابـد لاجـازتى المرضية أن تنتهى..

وكان لابد ن أرحل إلى الصحراء الغربية...

ورحلت فعلا، تاركا كل شئ لعزيز المصرى وعبد المنعم عبد الرؤوف.

المحاولة الثانية:

وأكاد أتصور الآن الأيام التى مرت بعزيز المصرى بعد ذلـك، على ضـوء مـا أعرفه عنـه، وما لمسته من أنه إذا صمم على شئ لم تستطع قوة أن توقفه عن المضى فيه..

فقد كان عزيـز قـد صـمم على الـذهاب إلى خطـوط الألمـان، وكـانت هـذه الفكـرة قد اختمرت فى رأسه، واصبحت مسيطرة على تفكيره وآماله.. وكان من الصعب بعد ذلك انتزاع هذه الفكرة من رأس الرجل..

ومرت أيام قليلة، وإذا بـه يكلـف عبـد المنعم بـأن يبحث لـه موضـوع سـفره، على متن طائرة مصرية..

وبدأ عبد المنعم دراسته، ثم أتصل بقائد الفرقة الجوية حسين ذو الفقار، واتفق على أن يعد خطة السفر.. وأن يكون هو الذى يحمل عزيز المصرى إلى الألمان.

وتحدد موعد السفر، فى ليلة كان فيها ذو الفقار هو الضابط العظيم بالمطار.

وحمل ذو الفقار عزيز المصرى فى إحدى الطائرات.. وطارت الطائرة بهما..

ولكن القدر كان بالمرصاد أيضا.. فقد سـقطت الطـائرة.. وقبض على الـرجلين ووضـعا فى السجن..

وبعد أن قضى عزيز المصرى عاما ونصفا فى السجن، نقل إلى "ميس" الضباط تخفيفا عنه.. ثم أفرج عنه بعد ذلك فى مارس 1942 فى نفس الفترة التى بدأ فيهـا الألمانيـان أبلر وساندى اتصالاتهما بى.. وبعزيز المصرى..

كان القدر دائما ضدنا فى هذه الفترة. ولكننا كنا نستفيد من القدر وجاءت الفـترة الـتي أعقبت اعتقالى.. وتغير كل شئ..

الفصل الحادى عشر[1]

حاولنا الهرب إلى اسطنبول[2]

مرت حياتنا كتشكيل منظم بفترة ركود نسبى طويلة، فعلى الرغم من عودة جمـال عبد الناصر من السودان، إلا أنه وجد من الخير للتشـكيل وللثـورة، ألا يعـاود العمـل المنظم الفعلى إلا بعد أن تستكمل لهذا العمل أسباب النجاح، وكل وسائله..

وقد جاءت هذه الأسـباب واكتملت الوسـائل بعـد بضـع سـنوات.. وعنـدما بـدأت أعمـال وخطط منظمة وصلت إلى غايتها يوم 23 يوليو 1952..

ومع ذلك، فقد كانت هناك اتصالات، وكـانت هنـاك ألـوان من النشـاط فى نفس الفـترة التى تلت اعتقالى، وسبقت نقطة البدء التى حددها جمال..

مدة كانت فترة ركود، ولكنها لم تخل من عمل.. ومن تفكير فى عمل...

[1] هذا الفصل أعيد إلى موقعه طبقًا لما نشرته "الجمهورية" وكان الكتاب الذى جمعت فيه المقالات لأول مرة قد أخره ليكون الفصل الثانى عشر.
[2] نشر في العدد الثامن والعشرين من "الجمهورية" الصادر في يوم الأحد 3 يناير 1954 - 27 ربيع الثانى 1373هـ

عندما أتذكر اليوم تلك السنوات التى اتصلت فيها بحسن البنا، قبل اعتقالى، يأخذنى كثير من العجب للفتات كان - رحمه الله - يلتفتها فى وقت لم يكن مثلها يخطر لى ببال.

لقد كان الرجل بعيد النظر، وكان يتوقع كل شئ...

وأنا أتذكر اليوم، كم ألح على حسن البنا أن أذكر له أسما واحدا من أسماء زملائى، ليتصل به أن حدث أن عاقنى شئ عن الاتصال به.

وكنت أنزعج لهذا السؤال، وكنت أتهرب من الإجابة عليه، فقد كان متفقا بينى وبين أخواتى أن أظل أنا وحدى، الضابط الوحيد من التشكيل المعروف لمرشد الإخوان.

ولكنه ألح.. وألح كثيرا...

وفى مرة أحرجنى، فأطلت التفكير.. ثم اخترت أن أذكر له أسم عبد المنعم عبد الرؤوف...

ولا أذكر على التحديد لماذا اخترت عبد المنعم.. وكل ما أستطيع اليوم أن أذكره من أفكار ذلك الماضى البعيد الحافل بالمثيرات، هو أنى اخترت هذا الزميل، ربما لأنه كان أول من أنضم إلى تشكيلنا عقب عودتنا إلى القاهرة فى عام 1949.

ولم يعلن حسن البنا بشئ عندما ذكرت له اسم عبد المنعم، وإنما لزم الصمت والحرص اللذين لونا حياته حتى فارق هذه الدنيا، بحادث اغتياله المشهور..

ولكنى عندما قابلته أول مرة بعد ذلك، ذكر لى أسم عبد المنعم وأثنى عليه طويلا.. ثم أخذ يسرد لى تفاصيل كثيرة من تاريخ عائلة عبد المنعم وحياته وبيته..

وفهمت أن صلة ما قد وجدت بين أسرة عبد المنعم، وبين مرشد الإخوان، وأنها صلة قديمة، وأنها صلة معرفة وصداقة وبيئة، فقد كان جد عبد المنعم شيخا للأزهر. كما أن عائلته كلها كانت معروفة بالدين والتقوى.

أمسك حسن البنا عن ذكر عبد المنعم بعد ذلك، حتى ظننته نسيه.!

ثم كان القبض على عزيز المصرى وكان الإفراج عنه، ولم يشر حسن البنا أبدا...

صداقة.. وصديق:

وعندما أفرج عن عبد المنعم وكنت أنا إذ ذاك طليقا لم يقبض على فقد أفرج عنه مع الفريق عزيز المصرى فى مارس عام 1942، ولم يقبض على أنا إلا فى أغسطس من ذلك العام.. عندما أفرج عنه، لم أشأ أنا أن أتصل به فى شئ، كنت أخشئ عليه أن تثور حوله شكوك جديدة.. وكنت أريد له فترة من الراحة بعد المحاكمة والسجن والاعتقال..

ولكن يبدو أن عبد المنعم أساء فهمى حينذاك، فقد غضب فى نفسه وتضايق.. وعــرفت ذلك فيما بعد.

وجاء اليوم الذى قبض فيه على وقبض فيه على عزيز المصرى مرة أخرى.. ولم أكن إذ ذاك على صلة بعبد المنعم، ولا على شبه صلة به.

وكان آخر شئ أفكر فيه هو أن ينشط عبد المنعم بمجرد اعتقالى ليقـوم بمـا قمت بـه، لفكرتنا، وليقوم بواجبات أخرى يكلف بها نفسه..لشخصى...

إنها الصداقة التى آمنت بها دائما.. هى التى دفعته أن ينهض فورا بعبء كنت أنهض به.. ثم يفاجئنى مفاجأة أخرى..

عشرة جنيهات:

كنت قـــد نقلت إلى معتقـــل المنيـــا.. وكنت أذود عن نفســـى هم التفكـــير فى العـــالم الخارجى، بالقراءة الكثيرة أقطع بها وقتى...

وكان هم التفكير فى خارج المعتقل هما ثقيلا، مثيرا للنفس باعثا للكآبة.. والجنون.

فمثلى فقير لا يملـك غـير عملـه.. وذو زوج وأولاد.. يعيش فى المعتقـل لا يعـرف لأهلـه معينا، غير الذى خلقه واخلقهم.

وفى طريقى اليومي إلى مكتبة المعتقل التقيت بالمرحوم الشهيد يوزباشي محمد وجيه خليل، الذى استشهد فى حرب فلسطين، وكان من دفعتى ومن دفعـة عبـد المنعم عبـد الرؤوف.

وينتحى بى الصديق ناحية ليسر فى آذني أن التشكيل قد رتب لعـائلتى عشـرة جنيهـات فى كل شهر، وأنه جاء لكى يطمئنى بعد أن عزت على الجميع زيارتى..

متى نضعف؟

وكانت هذه العاطفة الصـادقة من زملائى هى أسـمى مـا يمكن أن يشـعر بـه مثلى في ظلمة الاعتقال.

فقد يعرف الذين زاولوا الكفاح من اجل فكرة أنهم لا يضعفون أمام الموت ولا يضعفون أمام السجن ولا يضعفون أمام التعذيب، وقد يخيل إليهم فى لحظات الحماس والانفعال أنهم لن يضعفوا أمام شئ فى الوجود.. ولكنهم فى هذا واهمـون.. فهنـاك الشـئ الـذى يضعفون أمامه، والذى لا يملكون حياله شيئا إلا الفرار.. الفرار من الواقـع، والفـرار من التفكير فيه.. الفرار من هذه المطارق الـتي تطـرق الـرأس والقلب والضـمير.. وتحيـل الجبار وهما ضعيفا يكاد يستسـلم ويكـاد يسـتغيث لـولا كبريـاء الكفـاح، ويقظـة الفكـرة المتأصلة فى نفسه ومثالية الهدف..

ولعلك عرفت الآن، ما هو هذا الشئ الذى يضعف أمامه المجاهدون...وأنه الولد، الطفل.. العيال!

هؤلاء الصغار الودعاء، الذين تدفعهم دفعا إلى مرارة الكفاح، وتأخذهم أخذ على الصبر والحرمان والتقشف، ولما يبرحوا بعد مهاد الطفولة، ولما يعرفوا بعد مراح الصبا...

هؤلاء هم نقطة الضعف فينا.. وهى نقطة ضعف اعترف بها، ولا تخجلنى.. لأننى أن إنسأن!

وقد كنت احتمل أن يحرم أطفالنا من رعاية أبيهم... ولكنى ما كنت أصبر على حرمانهم من ضرورات الحياة.

وكانت هذه الجنيهات العشرة، هى العون الوحيد الذى أقبله لأطفالى لأنها لم تصدر عن عطف ولا إشفاق. وإنما صدرت عن فكرة مشتركة وتكافل بين مكافحين...

وبدأت أنسى هم الحياة الوثيقة بى خارج المعتقل.. وبدأت أفكر فى خطوط المستقبل، وخطوات الجهاد.

وكان مجرد تفكير نظرى، تنقصه حكمة الواقع، ودراسة الطبيعة.

وكان أهم ما يشغلنى هو أن أخرج من هذا المعتقل، ولكنى لم أكن قد حددت بعد، لماذا أخرج، أو ماذا أستطيع أن أصنع وأنا مطارد شريد!

إلى تركيا...

ويبدو أنى لم أكن وحدى الذى فكر فى هذا الأمر.. فقد فكر فيه عبد المنعم عبد الرؤوف فى نفس الوقت الذى كنت أنا أفكر فيه...

وفى جلسات متعاقبة مع بعض أعضاء التشكيل من سلاح الطيران، وكانوا من أكثر أعضاء تشكيلنا حماسة واندفاعا.. أخذ عبد المنعم يضع خطة لتهريبنا.. عزيز المصرى وأنا...

وكانت خطته تعتمد على عدد من المجازفات، ولم تكن خطة عملية على أى حال...

كانت خطته تقوم على الهجوم على المعتقل الذى يقيم فيه عزيز المصرى واختطافه اختطافا مسلحا من حرسه ليهرب عزيز من معتقله فيجد عربة فى انتظاره تحمله إلى المنيا.

وكان الشق الثانى من الخطة مماثلا للشق الأول فهو قائم على الهجوم على معتقل المنيا واختطافى من هناك بالقوة لأهرب فأجد عبد المنعم فى انتظارى.

أما الشق الثالث.. فكان قائما على أن تقوم طائرة من القاهرة لتهبط فى المنيا فى نفس الوقت الذى يصل فيه عزيز المصرى إليها، وأخرج أنا من المعتقل.

وكان الاتفاق أن تحملنا الطائرة فورا إلى سوريا.. أو إلى إسطنبول وكانت كفة الأراضى التركية هى الراجحة فى هذه الخطة، للموقف الذى كانت تركيا تتخذه من الحرب.

ولكنها - كما قلت - لم تكن خطة عملية.. فلو قدر لهذين الهجومين المسلحين أن ينجحا لما كان من السهل ضبط التوقيت فى العمليتين معـا، بحيث لا تزيـد مـدة بقـائى خـارج المعتقل عن دقائق معدودة تحلق بنا الطائرة بعدها إلى خارج الحدود.

لم يكن هـذا سـهلا.. ولعـل أسـهل مـا كـان فى هـذه الخطـة هـو الـدور الخـاص بسـلاح الطيران.. فقد كان زملاؤنا الطيارون، أكثرنا اندفاعا وحماسا فى كل شـئ.. وكنـا نرجـع ذلك دائما إلى طبيعة عملهم كطيارين كل حياتهم مغامرة مستمرة والى قـوة أعصـابهم التى تعتبر شرطا أساسيا فيمن يقبل فى هذا السلاح.

كان الجزء الخاص بالطائرة.. هو الجزء العملى الوحيد فى هـذه الخطـة، أمـا القسـمان الآخران منها فكانا يحتويان على كثير من الثغرات الكافية لخلق متاعب جديـدة لنـا، كنـا في غنى عنها.

وكانت هذه الخطة هى خطة عبد المنعم وحـده.. فقـد كـان التشـكيل - كمـا قلت - فى فترة من فترات الركود.

تطورات.. بالجملة!

ولكن هذه الفترة كانت تحوى تطورات كثيرة فى الحياة المصرية، وفى موقف العناصـر المختلفة التى كانت ذات تأثير فى سياسة البلاد.

فقد أصبح للملك - مثلا - موقف جديـد وتطـورت نظرتـه إلى عرشـه، وإلى شـعبه وإلى مستقبله وإلى الإنجليز تطورا كبيرا..

هذا الملك الذى كان يمثـل عنصـرا من العناصـر الوطنيـة حـتى 4 فـبراير 1942 والـذى اعتبرناه فعلا رمزا لمصر.. واعتبرنا الاعتداء على قصـره اعتـداء على مصـر.. وأردنـا أن نثأر له بإبادة الإنجليز.. قد تطور أو تغير.. ووضح لنا هـذا التطـور والتغـير بصـورة جعلتنا نضعه فى الصف الأول من صفوف الأعداء...

وأحمد ماهر.. الذى ملأ قلوبنا يوم أن وقف وقفته أمام الإنذار البريطاني فى عام 1942 والذى علقنا عليه أملا كبير يوم عاد إلى الحكم فى عام 1944.

لم يكد يستقر فى مقعد رئيس الوزراء حتى أصـدر أمـره بـالإفراج عن جميـع المعتقلين فورا.. ألا نحن.. فقد أصدر أمره ببقائنا فى الاعتقال وكان هذا الأمر بناء على "أمر" من الإنجليز، ولا أقول بناء على طلب أو رغبة أو تفاهم!

وحسن البنا، الذى كان قد أصبح قوة رهيبة يخشاها الملك، ويعلن عن مخاوفه منها، بـدأ يضع لنفسه سياسة جديدة يضمن بها القفز بحركة الإخوان المسـلمين فى جـو آمن من

مقاومة القصر أو غدره.. وكان رحمه الله قـديرا على إقناعنـا بخطتـه، وعلى الإمسـاك بطرفى حبلين فى قبضته.

جمال يعود...

وفى هذا الوقت هربت أنا من المعتقل.. هربت فى نوفمبر 1944 أى بعـد تـأليف وزارة أحمد ماهر بشهر..

وكانت ظروف كثيرة متعاقبة...

ففى الوقت الذى انصرف فيه عبد المنعم عبد الرؤوف إلى الإخوان المسلمين انصـرافا كليا. وفى الوقت الذى هربت أنا فيه من المعتقـل، وبـدأت أكـافح لأعيش هاربـا شـريدا أقتات من عـدد من الأعمـال الغربيـة هنـا وهنـاك متنكـرا مسـتترا حـتى ألغيت الأحكـام العرفية عام 1945 فبدأت أظهر بوجهى.

فى هذا الوقت.. كان جمال عبد الناصر قد بدأ يتولى بنفسه أمر التشغيل داخل الجيش، لينظمه جديدا وليضع له خطة بعيدة المدى طويلـة الأمـد قائمـة على فلسـفة مدروسـة واقعية.

وبدأت حركتنا تتخذ صورتين...

صورة داخل الجيش يرسمها ويكون عناصرها جمال عبـد الناصـر وصـورة خـارج الجيش توليت أنا أمرها...

وكان الغالب على الصورتين، روح فدائية، وكانت بين الصورتين صلات...

كنا قد بدأنا نعتمد على أنفسنا كل الاعتماد أثر أحداث وأحداث.

وكنا قد رسمنا خطتنا القريبة على أن ننشـئ تشـكيلا شـعبيا وتشـكيلا عسـكريا، يعملان جنبا إلى جانب، كل بوسائله وكل بخططه، ولا يرتبـط أحـدهما بـالآخر أى ارتبـاط ظـاهر حتى تأتى اللحظة المناسبة لذلك.

ومر بنا تاريخ طويل... ووقعت أمام أعيننا هزات عنيفة.

نسف السفارة...

وكنت أتعجل الخطى.. وكان جمال يتريث...

حتى أتى اليوم الذى شكلت فيه وزارة المرحوم النقراشى عقب مصرع المرحـوم أحمد ماهر.. وذهب النقراشى إلى السفارة البريطانية فقابله كيلرن.. على سلم السفارة.

وكانت هذه القصة حديث مصر...

فقد كانت قصة بغيظه فاضحة.. ولم يكن فى البلاد مصرى واحد يحتمل سماعها، دون أن تفور الدماء فى عروقه ويهم بأى عمل يمكن أن يسمى من أعمل الجنون.. فقد كانت خلاصة هذه القصة أن النقراشى لم يكد يشير إلى مطالب مصر، حتى هز ذلك اللورد كتفيه فى استهتار وسخرية، وقال النقراشى، دعك من هذا الكلام.. فإن حديث الجلاء والوحدة ليس ألا حديث خرافة.

وكانت لطمة قاسية أردنا أن نردها.

وذهبت إلى جمال.. وفى يدى خطة من التشكيل الشعبى، لنسف السفارة البريطانية على كل من فيها.

واستمع لى جمال طويلا. وناقش خطتى مناقشة كاملة. وأقر كل أطرافها وعناصرها..

ولكنه فى آخر الأمر.. هز رأسه وقال: لا..

كان يستعرض فى ذهنه الإجراءات التى يستطيع الإنجليز اتخاذها عقب نسف سفارتهم وكان يستحضر فى ذهنه مصرع" لى ستاك" سردار السودان..

وقال: لا .. نحن لا نريد أن نعيد مأساة السودان التى وقعت منذ عشرين عاما..

وكان على حق.. فعشرون عاما فى عمر أمة مكافحة، ينبغى لها أن تغير من أساليب كفاحها بما تتضمنه من تجارب ومن دروس..

ولم تنم هذه الخطة.. ولكن بدا صراع من نوع آخر جديد..

هذا أجمال لفترة طويلة.. ولكن هل يكتفى القارئ منى بإجمال..؟!

إن للقارئ أن يسأل عن موقف الملك وكيف تطور...

وله أن يسأل عن موقف الأحزاب وكيف تطورت..

وله أن يسأل عن موقف حسن البنا وكيف تطور وكيف تعاونا معه وكيف تعاون معنا.

وله أن يسأل عن جمال عبد الناصر كيف بدأ خطوطه الجديدة.

وله أن يسأل عن سر التشكيلين الفدائيين.. تشكيل الجيش وتشكيل الشعب.

وله أن يسأل عن دور الأحرار فى معركة القنال...

وله أن يسأل عن ثورة الأحرار فى نادى الضباط...

وله أن يسأل عن خطة الأحرار التى اتبعوها بين صفوف الشعب...

وله أن يسأل عن الترتيبات والظروف التى أخرت موعد قيام الحركة؟!

له أن يسأل عن كل هذا؟

وعلى أن أجيب في الحلقات القادمة.

الفصل الثانى عشر[1]

كيف أقيلت وزارة النحاس؟[2]

فى الساعة الخامسة تماما من مساء 8 أكتوبر 1944، انقطع صوت الإذاعة المصرية فجأة، وكانت تذيع إحدى الأغاني.. ثم عادت تصدر صوتا كان مألوفا لدى المصرين طول فترة الحرب هو صوت الأستاذ محمد سعيد لطفى، الذى كان مستشارا للإذاعة فى ذلك الوقت..

كان يحمل أمر الإقالة التى وجهها فاروق إلى النحاس لينهى بها عهدا بدأ بدبابات الإنجليز..

وكان واضحا فى صوت مستشار الإذاعة، وفى إلقائه لهذه الإقالة، أنه طروب بها مستبشر.. شمتان!

وكان سهلا على المدركين لحقائق الأمور أن يعرفوا الأسباب التى تدعو مستشار الإذاعة إلى الفرح الشديد بهذه الإقالة، فقد كانت هذه الإقالة بشرى - من السماء! - هبطت على ذلك الرجل، لتنقذه من عذاب طويل، وضيق وحرج لا مثيل لهما، عاش فيهما أكثر من عامين ونصف عام..

كانت الحكومة طيلة تلك الفترة تتحدى القصر وكان القصر طيلة هذه الفترة يتحين الفرص لإقالتها...

ولو كان الخلاف قائما على أساس دستورى، لكان خلافا فى سبيل مصر.

---

[1] هذا الفصل أعيد إلى موقعه طبقا لما نشرته "الجمهورية" وكان الكتاب الذى جمعت فيه المقالات لأول مرة قد قدمه ليكون الفصل الحادى عشر.

[2] نشر في العدد التاسع والعشرين من "الجمهورية" الصادر في يوم الإثنين 4 يناير 1954 - 28 ربيع الثانى 1373هـ

راس الملك!

ولكن النحاس كان يتحدى الملك، باسم الإنجليز، لا باسم الشعب، ولا باسم الدستور.

والملك كان يحنى رأسه، لأنه كـان يعلم أنـه لا يسـتطيع شـيئا غـير الانحنـاء، حـتى تحين الفرصة، ليبطش بهذه الحكومة التى جاءت رغم أنفه، لتذل كبرياءه، وتهدر كرامته!

وكان الملـك قـد جـرب حظـه مـرة خلال حكم الوفـد.. فأرسـل حسـين يفـاوض كيلـرن ليسمح الإنجليز بتغيير وزارة النحاس، فكان الرد الـذى تلقـاه على ذلـك، هـو برقيـة من تشرشل يقول فيها:

- لا تغيير.. "No change".

وسكت الملك، وسكت حسنين، وعلم الوفد بالأمر، فازدادت حكومته صلفا، وبطشا...

والمهم أن هذا الخلاف والتحدى بين الحكومة وبين" الملك" كان مصـدر متـاعب وحـرج شديد لرجل الإذاعة المسئول...

كان الملك مثلا يأمر بإذاعة القـرآن الكـريم من القصـر، فترسـل الإذاعـة رجالهـا وآلاتها لإعداد ما يلزم للملك.. وتسمع الحكومة بالأمر فترسل رجالها لسحب آلات الإذاعة.

ويبدأ الحرج، وتبدأ المتاعب، للإذاعة ورجال الإذاعة..

وكان الوفد يقـرر القيـام بـرحلات فى الأقـاليم، فيـأمر الإذاعـة بإذاعتهـا، ويسـمع الملك الهتافات والدعايات، فيغضب، ويبلغ غضبه بطريقته المعروفة، لرجل الإذاعة المسكين..

وهكذا، كان على الإذاعة أن ترضى الإنجلـيز، وأن ترضـى الحكومـة، وأن ترضى الملـك، وكان هذا أمرا، لا سبيل إليه!

فـإذا أقـال الملـك حكومـة النحـاس، فقـد كـان من الطـبيعى أن يفـرح رجـل الإذاعـة ويستبشر.

وسـمعنا هـذه الإقالـة من الأسـتاذ محمـد سـعيد لطفى، وسـمعنا بعـدها مباشـرة الأمـر الملكى الصادر بتكليف أحمد ماهر بتشكيل الوزارة ... وكنـا فى المعتقـل، قـد اسـتطعنا أن نحصل على جهاز راديو يسمح لنا باستعماله كلما رضيت عنا إدارة المعتقل.

ولا أخفى على القارئ أنى أنا أيضا طربت لهـذه الإقالـة.. فقـد كـانت عنـدى الـرد الأول على إنذار 4 فبراير المشئوم..

وفى غمرة هذا الطرب، غفلت عن تحليلها، والتعمق فى مدلولها.

فإن الأمر لم يكن بعد قد ترك الملك يتصـرف فيـه كيـف يشـاء.. لابـد من مصـدر لهـذه القوة التى لبسته، حتى أقال وزارة النحاس.. ولابد من اتفاق سابق، وأن التغيير آت من الإنجليز، لا من الإرادة الحرة الملك!

تجاربنا:

غفلت عن هذا التحليل، فى غمار النشوة التى بعثتها فينا هذه الإقالـة.. وغفلت عنـه فى غمار النشوة التى تلتها. إذ أصدر الرئيس الجديـد أمـره بـالإفراج عن جميـع المعتقلين.. وبدأت أعد نفسـى للحريـة... وكـان من عـرف الاعتقـال يعـرف كيـف يكـون الأمـل فى الحرية، وكيف تتزاحم مشروعاتها على الرأس، وتتواثب صورها أمام الخيال...

ولكنى أفقت بعد ذلك بقليـل.. أفقت من الآمـال، وافقت من الخيـالات وافقت من هـذا الطرب الذى غمرنى عندما سمعت أقاله النحاس.

فقد رأى أحمد ماهر أن يفرج عن جميع المعتقلين.. ولكنه رأى أن فينا خطرا داهما يهدد النظام العام!

وبدأنا التحليل، وتعمقنا فى سر الإقالة، وتكفلت الأيام بعد ذلك بإفشاء الأسرار!

وبدأت أضيق ذرعا بالمعتقل وأصبح وجودي فيه بعد ذلك ضربا من المستحيل.. فوضعت خطة هربى وهربت فعلا، هربت فى الشهر التالى لإقالة النحـاس، أى فى شـهر نوفمـبر 1944...

وبدأت أتصل سـرا بـإخوانى فى تشـكيل الجيش، وأتصـل سـرا بـالمرحوم حسـن البنـا، وأعمل سرا فى سبيل الحصول على ضرورات الحياة...

إنها فترة طويلة على قصرها، لأنها كانت مغامرة كاملة.. ولعل القـراء قـد قـرأوا طرفـا منها بقلم غير هذا القلم.. ولعلى أعود إلى ذكرها يوما من الأيام بالتفصيل.

ولكنى لا أفعل اليوم، وقد حددت لهذه الصفحات المجهولة، خطا تسير عليـه، يسـتهدف الكشف عن الأسرار التى يمكن كشفها من تاريخ التمهيـد لهـذه الثـورة، وتـاريخ تجاربنـا خلال ذلك التمهيد...

خرجت من المعتقل لاكتشف عددا من الحقائق الجديدة، ولا عرف عددا من الأسرار...

خرجت لأسمع حديث الملك، عندما ذهب يزور تشرشل فى السفارة البريطانية...

وكان حديث عجيبا.. فالرجل الذى ضربه الإنجليز، أو ضـربوا مصـر كلـه فى شخصـه، لم يكن يخلق به، ولا بكرامة عرشه، ولا بكرامة البلد التي "يملكها" أن يذهب بنفسه لزيارة رئيس وزراء الإنجليز، الذى أصدر أمره بتحرك الدبابات فى قصـره وطعنـه هـذه الطعنة الدامية... ولكن.. متى كانت لفاروق كرامة، ومتى كان يعرف كرامة لعرشه وبلده...

القوة التى فى الميدان:

لقد ظننا هذا يوما.. وكنا فى ظنوننا مخطئين... فالضربة التى أصـابت كبريـاء مصـر من أجل الملك، لم تصب أبدا كبرياء الملك من أجل مصر.. لأنه لم تكن له كبرياء.

وخرجت لأرى قصر رأس التين، القصر الرسمى الثانى فى البلاد، وقد أمر الملك بتحويله إلى مستشفى عسكرى، لا لجنود مصر وضباطها، الذين حاولوا الموت فى سبيل عرشه يوم هوجم عرشه، ولكن الجنود الإنجليز وضباطهم الذين تحركوا بالدبابات يحطمون بها باب قصره الأول، فى قلب العاصمة!

وخرجت لأرى فاروق قد ترك كل ما كنا رجوه فيه من معانى الشباب والوطنية، وارتمى بين أحضان جنود أمريكا، وضباط أمريكا.. يلعب معهم، ويسهر معهم، ويقوم برحلاته معهم، ويلهو فى لياليه معهم... وكأنه رأى فيهم الجدار القوى الذى يستطيع الاستناد إليه، إن تخلى عنه الإنجليز!

وخرجت لأعرف السر فى كل هذا.. فقد سيطرت على الملك روح من الرعب الشديد من ذلك اليوم الذى اقتحم فيه قصره بالدبابات والمدافع.. ورأى فيه عينى كيلرن تقدحان بالشرر!

أصبح الملك يخاف.. يخاف على حياته، ويخاف ضياع العرش منه، حتى لقد كان يتتبع أنباء التحركات الداخلية لجنود الإنجليز، فلا يكاد يسمع عن أى تحرك من تحركاتهم، حتى يؤوله بأنهم يقصدونه به، وأنهم يعتزمون أزاحته عن العرش مثلما أزاحوا من قبل بعض أسلافه..!

وكان تصرفه الواحد فى كل مرة من هذه المرات، هو أن يترك قصره، ويهرب إلى انشاط.. وكان أنشاط كانت بعيدة عن دبابات الإنجليز!!

وإذن فقد أصبح الملك ألعوبة فى أيدى الإنجليز، ولم يعد فى استطاعتنا أن نعول عليه فى شئ من خططنا.. بل لعل الأسلم كان أن نعتبره.. من الأعداء...

وهكذا، ذهبت مع الأعداء، صفوف الوفد وصفوف السعديين، وقوة الملك. ولم يبق فى الميدان إلا قوة الإخوان.

هل نستعين بهم.. وهل نعول عليهم؟

عاودت اتصالى بالمرحوم حسن البنا، وأنا هارب من المعتقل... وتبسط معى حسن البنا بصورة لم تسبق له من قبل.. فرغم كل الصلات التى قامت بينى وبينه كنت أشعر دائما أنه يقول شيئا، ويخفى فى نفسه أشياء..

ولكنه فى تلك المرة، تبسط كثيرا وشرح كثيرا، وأفاض كثيرا...ثم.. ثم كلفنى بأمر!

شرح لى حسن البنا متاعبه التى تأتيه من ناحيتين:

ناحية الملك.. وناحية الأجانب...

وقال لى أن الملك قد بدأ يشعر شعورا قويا بخطورة دعوة الإخوان، لما كان يسمعه من أن دعوتهم تقوم على أن يكون الملك بالمبايعة لا بالوراثة وقال لى أن الملك يدبر أمره ليبطش بهذه الحركة، وأنه يخشى أن يضرب الملك ضربته، والحركة لم تبلغ بعد أوج قوتها....

العملاق الذى لا يقهر:

وكانت هذه أول مرة يفصح فيها حسن البنا عن شعوره بعدم وصول دعوته إلى ذروة القوة والمناعة.. فقد كان دائما يعطى سامعه صورة للجماعة، أشبه بصورة العملاق الذى لا يقهر ولا يخشى عليه...

واستطرد بعد ذلك إلى ذكر طرف آخر من متاعبه، وكان هذا الطرف، هو موقف الأجانب من الدعوة...

فقد بدأ يشعر بأن الأجانب أيضا يرهبون دعوته، ويعتقدون أنها إذ تقوم على وجوب الأخذ بشريعة الإسلام ستتعرض حتما لأعمالهم وأموالهم، وحرياتهم الممنوحة لهم بمقتضى القانون السائد، والدستور..

وقال لى أن هذه النظرة الموحدة إلى دعوته، من جانب الملك، ومن جانب الأجانب، تجعل الدعوة فى خطر جسيم، فما أيسر أن تتحول هذه النظرة الموحدة إلى تحالف عمل للقضاء على الدعوة، وعلى الجماعة التى تدعو إليها.. ويومئذ لا يعرف من أين تصوب إليه الضربات!

واستمعت إليه، منصتا، ومناقشا.. ثم رأيته يطرق فجأة يستجمع كلمات معينة، يريد أن يبدأ بها حديثا جديدا...

وبدأ حديثه الجديد...

قال لى أنه يريد أن يضع حدا لهذه المتاعب، وأنه يعتقد أن الأجانب يمكن أن يطمئنوا إلى الدعوة، أو أطمان إليها الملك...

ونظر فى عينى طويلا وهو يقول:

أنا أستطيع أن أكسب طمأنينة الملك، لو تقابلت معه...

وكان وجهه ينبئ فعلا عن الثقة الكبيرة التى تملأ نفسه بقدرته على كسب طمأنينة الملك.

وظهرت هذه الثقة أكثر وأكثر، وهو يصف لى كيف يستطيع أن يزيل من نفسه جميع الأوهام والشكوك لو تيسرت له مقابلته...مرة واحدة!

ثم أوضح لى أنه لا يريد مع الملك سياسة وفاق، وتعاون.. ولكنه يريد أن يشيع جوا من الطمأنينة فى نفس الملك، يجنب به سفينة الإخوان أية عقبات تعترض الطريق.

وقصد رحمة الله إلى هدفه بعد ذلك مباشرة، فقال لى: أنت تعرف يوسف رشاد...

قلت له: نعم... أعرفه، وبينى وبينه صداقة كبيرة ومودة.

فقال: ويوسف اليوم ذو خطوة، فلو استطعت أن تشرح له هدفى.. وأن تفهمه أنى لست خطرا على الملك، ولا أريد أن أكون خطرا، لأمكنه إقناع الملك بمقابلتي...

وأجبته أنا: أحاول...!

ومضت فى تلك الليلة، أبحث الأمر بينى وبين نفسى.. هل أقوم بهذه الوساطة، وكيف أقوم بها.. وما مدى ما يمكن أن يترتب عليها. وكنت إذ ذاك لا أزال هاربا أعيش متنكرا، واتحاشى الظهور فى أى مكان ولكنى مع ذلك.. ذهبت إلى يوسف رشاد... وابلغته رسالة حسن البنا، فناقشني فيها، ثم وافق على أن يلعب هذا الدور.

الملك يخشى وكيل الوزارة:

وعندما رأيت يوسف رشاد بعد ذلك قال لى: لقد فاتحت الملك فى هذا الأمر، في محادثة تليفونية بينى وبينه وإذا به يقطع حديثى قطعا ويوجهه وجهه أخرى.. وقابلته بعد ذلك فقال لى:

- كيف تكلمنى تليفونيا فى أمر كهذا، ألا تعلم أن حسن رفعت يراقب التليفونات؟!

ودهشت أنا عند سماع هذه الكلمة.. فقد فهمت منها أنه يخشى المراقبة، حتى من حسن رفعت وكيل وزارة الداخلية المصرية!

وعاودت الإلحاح على يوسف رشاد بعد ذلك وفى هذه المرة، استطلع يوسف أن يحصل على أذن من الملك، بأن يقابل هو أولا حسن البنا، ويستمع غليه.. وينقل حديثه إلى الملك ليرى أن كان يقابله..

وكدنا نحدد موعد المقابلة بين حسن البنا ويوسف رشاد.. وفى أحد الأيام كنت في منزل يوسف رشاد فدق جرس التليفون وكان الملك هو المتكلم.. واستمع يوسف لحظات قصيرة.. ثم قال حاضر.. وانتهت المكالمة.. ونظر إلى يوسف وقال لى: أن الملك يقول:

- الغ كل ما قلته لك بشأن حسن البنا..

ويئست أنا من المحاولة، وخصوصا أنى كنت أقوم بها فى حالة تنكرى واختفائى.. وأبلغت حسن البنا بيأسى...

ومرت أيام.. وسقطت الأحكام العرفية، وبدأت أظهر من جديد.

اتحاد الكلمة:

وكنت فى بيتي بعزبة النخل فى إحدى الليالي، عندما أقبل حسن البنا، ومعه المرحوم محمود لبيب، فتناولا معى طعام العشاء...

وأخذ حسن البنا يتحدث عما يمكن أن تجنيه البلاد إذا ما أتحدث الكلمة، وهدأت شكوك الملك فى الإخوان.. ولكنه كأن فى هذه المرة شديد التحفظ يكتفى بالتلميح عن التصريح، لوجود المرحوم محمود لبيب...

وفهمت أنا أنه يريد منى أنم أعاود الكرة، والح فى تدبير مقابلة له مع الملك.. فلمحت له بدورى، بأنى سأفعل...

وفى اليوم التالى، قصدت إلى الإسكندرية، فقد كان الملك هناك فى تلك الأيام، وكان يوسف رشاد إلى جانبه، وتحدثت مع يوسف رشاد فى الأمر وأقنعته بمعاودة المحاولة.

وبذل يوسف رشاد جهدا كبيرا مع الملك...

وضحى فى سبيل ذلك تضحية.. كانت كبيرة فى ذلك الوقت!

فقد غضب منه الملك، واقصاه عن صحبته عشرة أيام طوال.. وعندما عاد يقربه، قال له: إياك أن تفاتحنى مرة أخرى فى هذا الموضوع!

إخلاص حسن البنا!

وللتاريخ بعد ذلك أذكر، أن الملك فى يوم من الأيام، قد دعا إليه يوسف رشاد، وطلب منه أن يتصل بحسن البنا، وأن يستمع إلى ما كان حسن البنا يريد أن يقوله له..

والتقى يوسف رشاد بحسن البنا وتحدث معه ثلاث ساعات.. وقال لى يوسف رشاد، أنه خرج من هذه المقابلة، مقتنعا تماما بخصوص نية حسن البنا نحو الملك.. وأنه ذهب إلى الملك فنقل إليه كل شئ...وإذا به يفاجأ بالملك يقول له: حسن البنا ضحك عليك!!

وحاول يوسف رشاد أن يدافع عن نفسه، وأن يقنع الملك بأنه ليس الساذج الذى يضحك عليه الناس.. ولكن الملك ضحك ضحكته المشهورة. وأعاد جملته: حسن البنا ضحك عليك..

هذا ما قاله لى يوسف رشاد...

وقال لى أيضا بعد ذلك بأعوام، أن الملك فى أواخر عهد إبراهيم عبد الهادى قال له:

- أحنا غلطنا فى ضربة الإخوان. وحقنا نرجع لسياستنا القديمة..

الله أعلم!

وسالت يوسف رشاد، وما هى السياسة القديمة؟... فقال:

صدقنى.. أنا لا أدرى... ولكن يبدو أن صلة أخرى قد حدثت بين حسن البنـا وبين الملـك عن طريق غير طريقى.. وأن الملك قد أتخذ لفترة قصيرة خلال عام 1946 موقفا معنا من الإخوان... ثم عدل عنه بعد حرب فلسطين..

قال لى ذلك.. ثم قال: والله أعلم...

هذه هى العناصر الـتى كـانت فى الأجـواء خلال الفـترة بين عـامى 1945 و1946 وفى هذه الفترة، كان جمال عبد الناصر قد بدأ خططه الجديدة.

الجزء الثانى

رقم الإيداع 17083 / 2006

الترقيم الدولى: I.S.B.N 977 - 236 - 536 - 7

الفصل الأول

جمال عبد الناصر يرسم خطوط الثورة[1]

يستطيع قارئ هذه الصفحات أن يبدأ من هنا فصلا جديدا من تاريخ هذه الثورة.

وهو فصل يختلف عن كثير عما تضمنته الصفحات السابقة.. فحيث قام التمهيد الأول، للثورة، على أساس أكثره عاطفى، وحيث استطاعت الظروف والأحداث والتقلبات السياسية أن تكون عاملا اساسيا فى دفع خطواتنا الأولى وتوجيهه.. وإملاء أعمال واتصالات معينة علينا.. فإن الشطر الثانى من هذا التمهيد الطويل للثورة، أو الفصل الثانى الذى نبدأ تاريخه اليوم يتميز أول ما يتميز بسيطرة العقل على كل خطواته، التى بدأت تقوم على أساس معين مدروس، ولهدف محدد مدروس.. وفى تتابع منطقى، لا صلة للأحداث الوقتية به، اللهم الا صلة العوامل المساعدة على زيادة الوعى بين عناصر الشعب والجيش، وبعث اليقظة الحقيقة، وإشعار الأفراد بأن القضية قضية كل منهم.. واشعارهم.. بضرورة الثورة..

وإن كانت الصفحات السابقة، قد حوت أعمالا، واتصالات، أساسها انفعالات فردية أو شبه فردية بالأحداث.. فلن تضم الصفحات التالية سوى أعمال، تنظيمية، تنتفى منها الروح الفردية، ويسيطر عليها عقل التشكيل المنظم، ونتائج المناقشات والأبحاث بين العناصر التى اجتمعت وتآلفت، وحددت أهدافها.

لقد آن وقت العمل الجماعى المنظم.. وبدأ جمال عبد الناصر يخرج من صمت المراقب، إلى حركة القائد الذى يعد العدة لأكبر معركة تنتظرها مصر منذ غلبت على أمرها تحت أقدام الطغاة..

يوم السلام:

[1] نشر في العدد الرابع والثلاثين من "الجمهورية" الصادر في يوم السبت 9 يناير 1954 - 4 جماد الأول 1373هـ

لو قدر لهذا الفصل أن يوضع تاريخ لبدئه.. لامكن أن يقال إنه بدأ فى 8 مايو 1946، نحدد هذا التاريخ، ولا نقصد به أن أعمالا معينة بدأت فى هذا اليوم بالذات.. وإنما نعنى فقط أن هذا اليوم، قد وضع حدا لفترة من تاريخ العالم، تبدأ بعدها فترة أخرى.. ومصر، كجزء من العالم، تتأثر حتى بأحداثه الكبرى كما أن ظروفها الداخلية، كانت لابد أن تتاثر، بهذا اليوم أيضا.

إنه يوم انتهاء الحرب فى أوربا..

اليوم الذى انتظره العالم طويلا، وخدع به العالم كثيرا.

فقد سمى يوم السلام!

وقد سمى يوم النصر!

واعتقد الناس، أو هكذا ضللهم سادة الغرب، أن العالم قد بدأ حقبه حقيقة من السلام.. وأن قوى الخير قد انتصرت فعلا على سلطان الظلام، وأن هذا الخير سيعم جميع الأمصار والشعوب، وأن المواثيق والعهود التى كانت تبرم وتقطع خلال فترة الحرب، ستصبح منذ اليوم حقائق بارزة فى تاريخ الإنسانية.

ولم يقل أحد لهم أبداً، أن سلطان الظلام قائم فى نفس القوى التى كانت تحاربه، وأن المواثيق والعهود، قد أعدت لأحاديث الدعاية فى إذاعاتها ونشراتها وأفلامها وصحفها، وأنها ستصبح تاريخا بمجرد انتهاء الحرب. ألم نكن قد سمعنا بميثاق الأطلنطى وألم نكن قد قرأنا عنه فى مئات من الصور المختلفة، وألم تكن نشرات الدعاية وإذاعاتها تقول حينئذ أن هذا الميثاق يجب أن تتضمنه محفوظات تلاميذ المدارس، أانه دستور الحياة والكرامة والعدالة التي تمخضت عنها الإنسانية بعد أبشع مجزرة شهدتها الحياة.

الفرصة المناسبة:

كنا نسمع هذا، كما كان العالم يسمعه، وكنا ننتظر اليوم الذى تضع فيه الحرب أوزارها، لا أيمانا منا بصدق هذه الدعايات، ولكن لنبدأ خطى جديدة على أرض واضحة المعالم.

فقد كان انتهاء الحرب عندنا يعنى أشياء كثيرة...

يعنى تبلور الأوضاع بصورة لا تسمح بالفروض ولا المخادعات ولا الاحتمالات.. وإنما تسمح بشيئين إثنين.. لا وجود لثالثهما العمل لمصر.. والعمل ضد مصر.

ولكل من العملين طريق واضح، ومظاهر لا نخفى على أحد.. وليس بين الطرفين طريق وسط..

هذا هو أول ما كان انتهاء الحرب يعنيه بالنسبة إلينا.

وكان يعنى شيئا آخر..

كان يعنى قرب انتهاء الأحكام العرفية.. الكابوس اللعين الذى وضع مصائر الأحرار تحت رحمة مخابرات الإنجليز وجواسيسهم والذى كان يتهدد كل من يحاول لأن يخطو خطـوة وطنية واحدة خلال إعلانها..

وأن لم تكن هـذه هى الفرصـة المناسـبة لبـدء العمـل المنظم، فليسـت هنـاك فرصـة أخرى...

تجارب السنين:

ولمح جمال عبد الناصر هذه الفرصة التى كان قد فكر فيها طويلا خلال الحرب.

ثم بدأ ينظم خطوطه، ويحدد أعوانه، ويرسـم خطواتـه لهـدف كبـير وكـان جمـال الـذى يعمل، هو جمال الناضج الذى مرت به تجارب السنوات الست الكثيرة، سنوات الحـرب، وما تخللها من أحداث داخلية وخارجية، وما رآه فيهـا من هـزات عنيفـة، ومن محـاولات وطنية وأخرى خائنة.. ومن بطـولات زائفـة، وأسـاليب خادعـة ومن أوضـاع غريبـة حلت بـالجيش، أو فرضت عليـه، ومن دعايـات مثـيرة، غـرق فيهـا الشـعب وتهـدف كلهـا إلى تضليله لكي يكسب الاستعمار وأذنابه من الخونة واصحاب المصالح والحكام الفاسدين.

وكان جمال يرى أن هذه الظروف والأحداث والصور قد مـرت بغـيره مثلمـا مـرت بـه.. وأن هذا الغير قد تأثر بها والفعل، واكتسب وعيا جديدا، نشأ فى فـترة الحـرب، وآن لـه أن يتجمع.. وأن يعمل وعيا فى كثـير من عناصـر الشـعب.. ووعيـا فى كثـير من عناصـر الجيش.. وعيا لابد أن يحرك أصـحابه إلى عمـل معين أو اتجـاه نعين.. ولا بـد لكى تنجح خطى أصحابه، أن تتجمع وأن تتوحد وأن تتحدد أهدافها.

الجيش والشعب:

وكان أيضا يرى عقبات فى الطريق.

فعلى الـرغم من ثقتـه بـأن العناصـر الواعيـة فى الجيش، تسـيطر عليهـا نفس الأفكـار والمبادئ التى تسيطر على العناصر الواعية فى الشعب.. وعلى الرغم من شعوره بـأن ما يسخط منه أفراد الشعب وجماعاتهم هو عين ما يسخط منه ضباط الجيش وجنوده.. وعلى الرغم من ثقته بأن المعركة التى يجب أن تبدأ هى معركة الجيش والشعب معـا.. إلا أنه كان يشعر بانعـدام ثقـة الشـعب فى الجيش وانعـزال الجيش انعـزالا ظـاهرا عن قضايا الشعب..

فقد كانت صورة الجيش فى ذلك الوقت هى صـورة "الكربـاج" الـذى يلهب بـه الطغـاة ظهور أبناء الشعب، هو سيف التهديد الذى يملكـه الحـاكم ويملـك أن يسـخره ضـد هـذا الشعب كلما ثار أو سخط.

إنها الصورة التى رسمها الإنجليز وشاركهم فى إظهارها.. ووضع الإطار حولها، حلفاؤهم: القصر، والأحزاب.

وأصبح الشعب لا يخشى الملك، لا لأنه مقدس، أو لأن القانون يحميه، ولكن لأنه القائد الأعلى للجيش، والمسيطر على تحركاته، والآمر فيه والناهى...

والجيش مظلوم...

والشعب مظلوم...

فلم يكن جيش مصر أجنبيا عن أبنائها، لم يكن جيشا من المماليك أو المرتزقة.. ولكنه كان جيشا من الشعب.. مشاكله هى نفس مشاكل الشعب..

ولم يكن الشعب يجهل هذه الحقيقة ولكنه كان يضلل عنها بأساليب كثيرة وفى مناسبات متعددة، تجعله يخشى جيشه، وكأنه جيش احتلال.

كانت هذه هى الحقيقة الأولى فى الموقف.. أن الشعب يعتقد أن هذا الجيش هو جيش فاروق لا جيشه.. وأنه يائس من إمكان القيام بالثورة الكبرى، لأن الجيش عندئذ لن يثور في صفوفه، ولن يقاتل عن مطالبه. وإنما سيقف فى وجه أبنائه يضربهم بالحديد والنار، ويحطم معنوياتهم، وينصر عليهم الظالم والطاغية والمحتل.

وكان حاجزا ليس من اليسير تحطيمه، فليس من ليسير أن تخلق ثقة وأيمانا، حيث لا ثقة ولا إيمان.

الحلف الكبير:

وكان هناك إلى جانب هذا العامل حلف آخر كبير.. جمعت عناصره مصالح مشتركة كثيرة.

وكان هذه الحلف، يجمع بين الملك والأحزاب، والرجعية ويعمل بوحي الاستعمار، أو يعمل لصالحه.

وقد لا نذهب وراء الاستنتاجات كثيرا.. فنتم عناصر هذا الحلف بالخيانة العامدة.. ولكن شيئا فى الوجود لا يستطيع أن ينفى عن هذه العناصر جميعا، أنها كانت تخدم الاستعمار، ضالة.. أو عامدة.

فأما الملك.. فقد كان عامدا متعمدا فاهما لما يعمل حق الفهم، كان الملك قد عرف تماما أن الهوة سحيقة بينه وبين هذا الشعب.. وكان الذين حوله، من الحاشية الفاسدة والرواد الخائنين.. قد أقنعوه تماما، بأن كل تقرب من ناحيته إلى الشعب، سيزيد من نهم هذا الشعب فى مطالبه.. وأن هذا الشعب إن لم يضرب بالسياط سيتغول، ويتحول إلى خطر داهم عليه وعلى أسرته وعلى عرشه أيضا..

من يحمى الملك؟

وكان حسنين[1] يقول بلسان الملك، "لقد عرض الملك عرشه فى الطريق، فلم يتقدم لإنقاذ هذا العرش أحد من أبناء شعب مصر"...

وهو يعنى يوم 4 فبراير، حينما تحدى الإنجليز.. فلما انتصر الإنجليز عليه وعين النحاس رئيسا للوزراء، هتف الشعب للنحاس ولم يلتقط عرشه الذى ألقى الإنجليز به.. في الطريق!.

وكان حسنين يبرر بهذا الملك، الذى بدأ يبدو[2] من تقربه للإنجليز، وخضوعه لأوامرهم وبيعه نفسه لهم.. فالملك بحاجة إلى من يحميه.. وقد أثبت الشعب، فى 4 فبراير أنه غير مستعد لحماية الملك.

أحزاب الأقلية:

وكان فى هذا الحلف مع الملك.. أحزاب الأقلية، التى لم تحلم يوما بالوصول إلى مقاعد الحكم عن طريق انتخابات نزيهة بريئة من التزوير، وكانت هذه الأحزاب منذ نشأت تعرف أن طريقها إلى الحكم هو الإيقاع بين حزب الأغلبية وبين الملك، والاعتماد على قوى السلطة المحتلة والسلطة الداخلية فى حكم البلاد.

وكانت لذلك تأتى إلى الحكم بغيضة كريهة، وتذهب عنه مشيعة بلعنات شعب مصر....

ولكن الطريق قد دخلت عليه عوامل جديدة بعد 4 فبراير...وجدت هذه الأحزاب فرصتها لتضليل الشعب بما تزعمه من وطنية الملك، ومن أنها تأتى إلى الحكم، لتنتقم للوطنية المصرية من قبول حزب الأغلبية الحكم على حراب الإنجليز.

وبهذا بدأ الشعب يتعرض لحملة تضليل كبير مثيرة تشنها عليه أحزاب الأقلية، متحالفة مع القصر.. مع الملك وأعوانه ورواده وحاشيته.

الفساد...

أما حزب الأغلبية.. فقد أغرق فى الفساد، وداخلته شياطين الشهوة فضم إليه الإقطاعيين والسماسرة.. وربط بمصالحهم مصيره، وبدأ هو الآخر ينعزل عن تمثيل الشعب.. تمثيلا صحيحا يقوده به إلى أهدافه الحقيقة.

لقد تمثلت ديكتاتورية الأغلبية فى أبشع صورها وأصبح من العبث التفكير فى إصلاح هذا الحزب بعد أن قوض بنفسه الأساس الشعبى الذى يقوم عليه..

---

[1] أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى.
[2] في الأصل "يبدو" والأرجح أنها "يزيد" وحدث بها خطأ مطبعى.

... والرجعية

ولم يكن هذا وحده هو كل شئ فى الجانب الآخر، كانت حملة الرجعية المتجـرة بـالقيم الروحية لشعب مصر.

وشعب مصر مؤمن متدين ولكن الإيمان والتدين شئ، ومحاولة اسـتغلال هـذه الحقيقـة العميقة في الشعب، استغلالا يحولها عن الغاية السامية منها تحويلا كاملا.. شئ آخر.

فالإيمان والتدين خيران أصيلان فى طبيعة شعب مصر.

والاتجار بالدين شر مستطير يخلق الدين أهدافا غير أهدافـه، ويجعـل منـه عـاملا رجعيـا يستتبع الجمود والتحجر، ويفسد الجماعات.

أمراض الشعب:

ولكن هذا هو الموج المتلاطم الذى كان يحوط سفينة الشعب.

استعمار قائم.. أحلاف من القصر والأحزاب والرجعيـة.. ودعايـات تنصـب انصـبابا فـوق رؤوس هـذا الشـعب المسـكين، وكلهـا تحـاول أن تنحـرف بـه عن دوره الحقيقى فى المعركة إلى أدوار كثيرة أخري تخدم أهداف الاستعمار وحلفائه المستترين والظاهرين.

وفوق هذا كله.. فهناك جبهة الشعب أيضا، وما تعانيه من أمراض.

أمراض وراثية بعيدة الغور متأصلة الجذور.

أمراض أورثه إياها ذله الطويل تحت سياط الإقطاع والملوك والطغاة وجيوش الاحتلال.

أمراض منها الـتردد، ومنهـا النفـاق ومنهـا الاستسـلام للواقـع، ومنهـا الخـوف... ومنهـا، ومنها.. ومنها.

أمـراض لا سـبيل إلى بعث هـذا الشـعب، الا باستئصـالها، ولا سـبيل إلى استئصـالها الا بإزاحة أسبابها من الطريق...

لابد من قوة:

فلابد أذن من قوة تعمل لإزاحة هذه الأسباب...

لابد من قوة تزيل من البلاد الملكية الطاغية لتزيل بعد ذلك آثارها.

ولابد من قوة تقضى على الإقطاع قضـاء مبرمـا لتسـتطيع بعـد ذلـك أن ترفـع مسـتوى الشعب، ومعنوياته، وتزيل منها أثار الخضوع والخنوع والاستسلام والخوف...

ولابد من قوة تقود الشعب كله للـذود عن حقوقـه وحريتـه المقدسـة الـتى سـلبها منـه الاستعمار قرونا حتى فقد الشعب الأمل فى الخلاص منه.. أو كاد يفقد هذا الأمل.

ولابد من قوة تستطيع أن تقف فى وجه الأحزاب التى تستغل الشعب لتخـدم مصـالحها ومصالح الإنجليز، وتقف فى وجه الرجعية التى تضلل الشعب، وتنحـرف بـه عن طريقـه الذى رسـمته لـه فطرتـه السـليمة طـوال القـرون الماضـية، وتثبت أقدامـه فى طريـق التطور والنهوض.

لابد من قوة تصنع كل هذا.. لنصـل بالشـعب إلى الأمـل الـذى يـراوده: أن يحكم نفسـه بأيدي أبنائه، وأن تكون له بنفسه الكلمة العليا فى مصيره.

ولم تكن هناك قوة تستطيع أن تقوم بهذا العمل.. غير الجيش.

الجيش الذى لا يثق به الشعب، والذى يعتبره سوطا يلهب ظهـره بـأمر الطغـاة، والـذى استطاع الاستعمار وأعوانه أنم يعزلوه عزلا كاملا عن الشعب الذى ينبت منه.

هذا الجيش الذى كان يطمع الشعب فى معونته، ولكنه طالما وجد نفسه منأى ومنعـزل عنه.

وبدأ جمال يرقب هذه الجبهات، الأعداء، والملك، والأحـزاب، والرجعيـة، والانحلال الـذى بدأ ينخر فى عظام الأمة...

ووضع جمال عبد الناصر هذه العوامل والقوى جميعا أمام ناظريه... ثم بدأ....

بدأ يرسم الوسيلة.. ويضع الخطوط، ويعد التنظيم الـذى يسـتطيع أن يقـود الجيش على معركته الكبرى باسم الشعب.

بدأ يصنع ذلك، فى الفترة التى يوم 8 مايو 1945.. يوم النصر كما أسماه الإنجليز.

الفصل الثانى

اللجان الخمس التى أوجدها جمال عبد الناصر[1]

بعد الدراسة المستفيضة التى قام بها جمال عام 1945 للموقف، وما يحيط به من ظروف وملابسات قرر أن يبدأ العمل الداخلى فى الجيش.

والذين يعرفون" جمال" يعرفون أنه رجل لا يبدأ عملا حتى ينتهى تماما من بحث جميع تفاصيله، ولا يخطو خطوة حتى يدرس الأرض التى سيخطو عليها، وبتبين جيدا معالم طريقه ويدرس قبل كل هذا، ما سبقتها من خطى...

ويوم قرر جمال أن يبدأ عمله التنظيمى الجديد.. كأن كمن يقف فى منتصف طريق متصل.. وراءه خطوات تتلاشى مع الليل، وأمامه خطوات تبدو مع النهار...

وكان لابد له أن يسلط أضواءه القوية على الليل الطويل من خلفه، ليدرس كل خطوة من الخطى السابقة فقد تعود أن يستفيد من هذه الدراسات وأن يكسب كثيرا من التأمل فى أفكاره السابقة، وفى أفكار الآخرين.

وقد كان هناك شبه تنظيم حركى لنا، قبل عام 1945 وكان هذا التنظيم المبدئى، هو أول شيء أكب جمال على دراسته، يوم أراد أن يبدأ العمل الجديد.

كنا قبل عام 1942 قد انتهينا فى تنظيم أنفسنا، إلى تشكيل خمس إدارات رئيسية، تنفرد كل منها بدور خاص فى خدمة التشكيل...

وكانت هذه الإدارات على التوالى هى:

1- الإدارة الاقتصادية.

2- إدارة التشكيلات.

3- إدارة الدعاية والاتصال بالكتل الشعبية.

4- إدارة الإرهاب.

5- إدارة الأمن.

وكانت ظروف كثيرة قد اقتضينا أن ننشئ هذه الإدارات الخمس، لنحقق عن طريق كل منها هدفا معينا...

[1] نشر في العدد السابع والثلاثين من "الجمهورية" الصادر في يوم الثلاثاء 12 يناير 1954 - 7 جماد الأول 1373هـ

وقد نجحنا فى بعض ما أملناه منها وفشلنا فى بعضه الآخر...

ولكنها جميعا قد أقامت بواجبها فى ظروف الحرب القاسية، واستطعنا عن طريقها أن نحقق كثيرا من الأعمال التى كنا نقررها.

وقد تبدو أسماء هذه الإدارات أسماء ضخمة، فيخيل لسامع كلمة "إدارة الاقتصاد" أو "الإدارة الاقتصادية" مثلا، أنها كانت إدارة منوطة ببحث المسائل الاقتصادية أو المالية للبلاد أو تصميم السياسة الاقتصادية المستقبلية عند نجاح فكرتنا.

قد يبدو شئ من ذلك.. وعندئذ تبدو مهمة هذه الإدارة عندما نفصح عنها ضئيلة هزيلة...

فقد وجدت هذه الإدارات لتكون فى خدمة التشكيل وحده، من حيث هو تشكيل عسكرى داخل الجيش.

وكانت لكل منها أهمية قصوى، عند إنشائها، وإلى كل منها يرجع جانب من نجاح هذا التشكيل فى الاحتفاظ بكيانه خلال سنوات الحرب، وما يحيط بالكفاح فيها من خطر.

وسأضع أمام القارئ هنا صورة لكل من هذه اللجان، أو الإدارات، ووظائفها وأهدافها.

الإدارة الاقتصادية:

نشأت فكرة هذه الإدارة نتيجة للواقع الذى درسناه فى ماضى المكافحين والذى توقعناه لأنفسنا.

فالذي يدرس تاريخ الكفاح الوطنى فى مصر، والذى يدرسه فى بقاع الأرض جميعا، يعرف دون مشقة كبيرة، أن من أهم العوامل التى تعوق المكافحين عن مواصلة الكفاح، والتي تثبط همم المقبلين عليه لقمة العيش.. لقمة العيش التى لا يغرى الحصول عليها، ولكن يرهب الحرمان منها ولنحصر أنفسنا فى تاريخ مصر لنرى صور المكافحين سبقونا، وكيف جعل الاستعمار وحكوماته منهم عبرا، ورموزا للشقاء، ترهب كل من تحدثه نفسه بالكفاح.

فقد كان من "يوصم" بالكفاح الوطنى، ينظر حوله فلا يجد يدأ تمتد إليه...

لا يجد عملا فى حكومة، ولا فى شركة من الشركات.. ولا رعاية من أصحاب الوطنية والمتجرين بالكفاح.

وانظر إلى الذين حكم عليهم بالسجن سنوات كثيرة وصلت إلى حد الأشغال الثالثة المؤبدة فى عام 1919 وما تلاه من أعوام الثورة المصرية المجيدة...

منهم من عفى عنه قبل أن تنقضى مدة عقوبته.. ومنهم من قضاها كاملة في الشقاء...

فانظر إلى الفريق الأول، تجده قد انقسم طائفتين: طائفة غنمت الغنم كله فأصبح منها الزعماء والحكام والثراة وأعضاء مجالس الشركات الكبرى والمساهمون فيها وحملة الألقاب والرتب والنياشين...

هذه طائفة...

وطائفة غرمت الغرم كله.. خرجت من السجون لتجد تعاسة الحياة.. لتجد عقوق الوطن والأصدقاء وزملاء الكفاح.. لتعيش مشردة تسعى إلى لقمة العيش، فإن لم تجدها وما تجدها فى رعاية الوطن، ذهبت تقتاتها فى معسكرات الإنجليز!

وأما أولئك الذين خرجوا من ظلام السجون بعد انقضاء مدة عقوبتهم... فياويلهم...! خرجوا للنسيان والتشرد.. خرجوا أشبه بفاقدى الرشد.. تزوغ أعينهم فى جنبات الوطن.. لترى الشباب يهتف للزعماء، ويهتف للحرية.. ولو نظر أمام عينه لرأى كيف يكون عقوق الزعماء، وإلى أى مصير ينتهى رواد الحرية والمكافحون عنها...

وكانت هذه الأمثلة كلها أمام أعيننا فى تلك الفترة التى أقدمنا على اجتيازها بجرأة الشباب، وحماسة الذين وهبوا للجهاد أنفسهم..

وقلنا أننا بشر...

وأننا لا نريد أن يتعرض أحدنا لمثل ما تعرض له هؤلاء المساكين. وأن علينا أن نتدبر أمر تمويل هذا التشكيل بحيث يصبح قادرا على أعاله أى فرد منه يتعرض لنكبة من هذه النكبات.

ونشأت هذه اللجنة.. لجنة كل مهمتها جمع المال، واختزانه، واستثماره إن أمكن بوسائل مأمونة لا تكشف عن حقيقتها، لكى لا نسير فى طريقنا، وظهرنا من هذه الناحية مكشوف.

وبدأت هذه اللجنة تكون لها راس مال...

وبدأته فى حقيقة الأمر على حسابنا

فكلفتنا أن يضغط كل منا ميزانية ضغطا شديدا ليرى كم جنيها - أو كم قرشا! يستطيع أن يقتطعه من مرتبة كل شهر لصالح التشكيل...

وفعلنا...

وكلفتنا بعد ذلك، أن يستدين كل منا على مرتبة قيمة شهرين من أحد البنوك، كما يفعل كثير من الموظفين.

وفعلنا. وأى فعل أعضاء التشكيل جميعا، فقد اعفتنى أنا اللجنة من هذا التكليف لأنى إذ ذاك كنت المتزوج الوحيد بين أعضاء التشكيل، وكنت أنفق على أولادى وزوجى من مرتب "اليوزباشى" المعروف..!

وعلمت اللجنة أن الفريق عزيز المصرى قد باع محصول حديقته من ثمار المانجو بخمسين جنيها فاستولت على هذه الجنيهات الخمسين!

ولم تجد وسيلة للتمويل السريع بعد ذلك.. فاكتفت!

وكان يمكن لرأس المال البسيط، الذى جمعناه حينئذ أن يكون نواة لا بأس بها لتمويلنا. ولكن عام 1942 جاء بأحداثه التى قررنا خلالها الاستعداد لإبادة الإنجليز العائدين من العلمين.. وكانت وسيلتنا إلى ذلك الزجاجات المعروفة بكوكتيل "مولوتوف" والقنابل والمسدسات المصنوعة محلية، والمفرقعات.

وكانت المشكلة فى هذه الخطة، هى مشكلة الحصول على الزجاجات الفارغة.. فوطننا لذلك رأس المال.. ثم فكرنا فى كيفية استخدامه.

وكان أن فتحنا "دكانا" لتجارة الزجاجات الفارغة، وأجلسنا فيه رجلا أمينا، أخذ يتعرف ببائعى الزجاجات الفارغة المتجولين. حتى عرفوا واعتادوا إليه آخر كل نهار، بما جمعوه من الزجاجات الفارغة.

ولم يكن هذا الفيض يكفى، فذهبنا إلى سوق الزجاج بشارع كلوت بك وابتعنا منه ما يلزمنا.

كنا بحاجة إلى عشرات الألوف من الزجاجات الفارغة.. وكان رأس المال الصغير الذى جمعته لجنة الاقتصاد هو الذى مكننا من إتمام هذه العملية.

وعلى الرغم من أن المال الذى جمعته هذه اللجنة لم يستثمر، ولم يستعمل فيما جمع من أجله.. إلا أن وجود هذه اللجنة كفكرة، ظل ماثلا أمام جمال عبد الناصر وهو يعد عدته للتنظيم الجديد.

لجنة التشكيلات:

واللجنة الثانية، أو الإدارة الثانية كانت إدارة التشكيلات..

وكانت لهذه الإدارة أهمية خاصة نظرا للعمل الخطير الذى كانت منوطة به..

فهى التى كانت تجمع العناصر التى يمكن ضمها إلينا من ضباط الجيش فى مختلف الأسلحة...

وهى التى كانت تبوب هذه العناصر باعتبار أسلحتها واختصاصاتها وتكون منهم الخلايا والتشكيلات المختلفة.

وهى التى كانت تراقب مدى تقدم التشكيل أو تأخره بما لديها من المعلومات الدقيقة عن عدد الضباط الذين ينضمون إلينا، والذين يخرجون علينا.. ومعرفة أسباب زيادة الإقبال على تشكيل أو نقصه...

وكانت هذه اللجنة هى وحدها التى تعرف جميع الضباط الذين يناصرونا، وهى وحدها التى تعرف - فعلا - مدى قوتنا...

فعلى الرغم من أننا حرصنا منذ البدء على أن يضم تشكيلنا ضابط من كل سلاح يكون مسئولا عن صلة سلاحه بالتشكيل الا أن هذا الضابط نفسه لم يكن فى أكثر الأحيان يعرف أكثر ضباط سلاحه، لأنهم ليسوا من دفعته.. أو لأنهم لم يخدموا معه فى مكان واحد..

أما هذه اللجنة فكانت مهمتها أن تعرف الجميع.. وأن تجمعهم لا على أساس اختبارات الجمعيات السرية المختلفة ولكن على أساس الصداقات القائمة بينهم وبين بعضهم.. فقد كان أساس تشكيلاتنا، هو الصداقة التى تخلق الثقة وتنفى الشكوك.

وكأن مفروضا أن تنتهى مهمة اللجنة عند هذا، وأن تحيل أمر الضباط الذين يخرجون على التشكيل إلى لجنة الآمن...

ولكننا لم نكن قد تقدمنا فى أساليبنا فى الفترة الأولى إلى هذا الحد...وكانت هذه الصورة للجنة التشكيلات هى التى وجدها جمال أمامه.. عند ما بدأ تنظيمه الجديد..

لجنة الدعاية:

واللجنة الثالثة كانت لجنة الدعاية والاتصال بالكتل الشعبية...

ولم تكن هذه اللجنة تفتعل الدعاية ولا كانت تلجأ على الأساليب الشائعة فيها كطبع المنشورات أو مراسلة الصحف..

وإنما كانت تساير الأحداث لتثير مناقشات عارضة تستعرض فيها الحالة العامة، في جلسات الضباط في "ميساتهم" أو بين الشلل المختلفة فى منازلهم..

وكانت الحوادث التى تقع فى تلك الفترة الكثيرة الأحداث، هى التى تدفع بدعايتنا كثيرا إلى الأمام.

ومن أهم الحوادث التى استغلتها لجنة الدعاية حادث تسليم فرنسا عام 1940 وما تبعه من انعزال إنجلترا ووقوفها وحيدة أمام العدو، مما كان يثير حماسة الضباط لكل فكرة تقول بضرب إنجلترا فى محنتها، لأنها لن تسلم بمطالبنا، ولن تخرج من بلادنا ألا وهى مرغمة صاغرة..

ومن الأحداث التى دفعت بدعايتنا كثيرا إلى الأمام أيضا فى تلك الأيام حادث الأمر الذى صدر إلينا بتسليم أسلحتهم للإنجليز، ورفضنا هذا الأمر، وحادث خروج على ماهر بعد بيانه المعروف.. ثم أخيرا حادث 4 فبراير الذى غطى على كل ما عداه!

هذا من حيث الدعاية داخل الجيش أما الاتصال بالكتل الشعبية فقد كان هم هذه اللجنة أن تقوم بعملية موازنة تماما لعمليتها الأولى داخل الجيش.. وهذه العملية الجدية، هى

جس نبض الكتل الشعبية ومعرفة اتجاهاتها ومدى تأثرها بالحوادث المختلفة. ونوع هذا التأثر ومدى استعدادها للمعركة..

وعن طريق هذه اللجنة تعاونا حينا من الزمن مع بعض شباب الحزب الوطنى كما عرفنا عن طريقها الأستاذ عبد العزيز على وكان إذ ذاك لا يزال مسيطرا على الجهاز السرى للحزب الوطنى الذى شكله بنفسه عام 1919.. وقد ظل يتعاون معنا بعد ذلك لفترة طويلة. وأفدنا من معونته كثيرا..

وكان هذا هو كل عمل هذه اللجنة حينما بدأ جمال يضع تنظيمه الجديد.

وبقيت لجنتان.. لجنة الإرهاب ولجنة الأمن ولهاتين اللجنتين صفحة نفردها.

الفصل الثالث

قصة اللقاء الأول بين عبد الناصر وعامر[1]

---

[1] نشر في العدد الرابع والسبعين من "الجمهورية" الصادر في يوم الخميس 18 فبراير 1954 - 14 جمادى الثانية 1373هـ

بهذه الحلقة يبدأ الطور الثانى من أطوار التمهيد لثورة 23 يوليو.. وهو الطور الذى بدأه جمال عبد الناصر، بعد التجارب العديدة التى مرت بنا فى تلك السنوات الأولى المليئة بالمخاطر والمشقات..

وإن كان جمال قد أشعل الجذوة فى ليالى منقباد.. وأن كانت هذه الجذوة قد ظلت مشتعلة بأيدينا، نلهب بها سواد الأعوام المظلمة.. فقد ظل جمال مراقبا لهيبها مسجلا لانتصاراتها، مستفيدا من تجاربها..

وكان فى صمته، خلال نقله إلى السودان، وبعد عودته من هناك ما بعد لجذوره أخرى لا يظهر ضوءها، ولا يفرغ زيتها.. جذوة حكيمة لا تشعل النار ولكن تضئ الطريق..

وفى خلال الأعوام التى كنا فيها نظهر لنختفى، ونختفى لنظهر.. كانت عينا جمال الفاحصة تبحث عن الرجال والأعوان..

ولعل انتصاره الأول فى هذا الميدان.. كان لقاؤه لعبد الحكيم...

وبقصة هذا اللقاء.. يبدأ هذا الطور، من أطوار التمهيد للثورة.

إلى السودان:

السودان...

السودان.. الذى يهرع اليوم شيقا للقاء مصر.. وتهرع مصر للقائه جذلى.. كان في تلك الأيام منفى المغضوب عليهم من رجال الجيش...

ولا يسال أحد: لماذا كان السودان منفى؟! فهكذا كان.. وكانت أسوان أيضا منفى.. والعريش.. والصحراء الغربية.. وكل بقعة خلا القاهرة.. والإسكندرية!

وفى الجيش، كان الملازم جمال عبد الناصر ضابطا صغيرا مغضوبا عليه.. فمنذ أيام منقباد وثورتنا على الأوضاع هناك.. على البعثة الإنجليزية.. وعلى اللواء المصرى الذى كنا نسميه السلطان عبد الحميد.. منذ تلك الأيام المجيدة من أعوام الشباب.. كسب جمال كراهية القومندانات.. وحقدهم.. وتوقعهم الفرصة لإيقاع الأذى به.

وكان معروفا أن الكتيبة الثالثة ستتحرك إلى السودان..

وعندما يقترب رحيل كتيبة إلى السودان، يرسلون إلى الكتائب الأخرى فى أنحاء الديار، لكى تبعث إليهم بأسماء "المغضوب عليهم" من ضباطها.. لكى يساقوا إلى المنفى يوم الرحيل..

ولكنه لم ينتظر أن ترسل به كتيبته إلى المنفى.. وإنما سارع بنفسه ليقدم اسمه، ليكون بين الراحلين...

ودهش إخوانه لهذا التصرف... وكانوا يحبونه، ويحبون أن يبقى بينهم..

ولكنه كان قد رسم لنفسه طريق السير.. وكان قوة مجهولة تدفعه دفعا إلى زيارة شطر الوادى الحبيب.. واستقراء الحقيقة فيه...

عبد الحكيم.. هناك

وكانت الكتيبة الثالثة التى تتهيأ للرحيل، لا تزال فى المكس بالإسكندرية وكان على جمال أن يمضى إلى الإسكندرية ليلتحق بها، ثم يرحل معها إلى أرض الجنوب...

وفى ليلة السفر إلى الإسكندرية، التقى به الصاغ عثمان نصار من ضباط كتيبته، وكان من أصدقائه الخلصاء.. وسأله:

- أترحل غدا؟

بإذن الله..

- هل تعرف أحدا من الضباط هناك؟

أبداً..

- اسأل إذن عن الملازم عبد الحكيم عامر، وتعرف به..

ولعل هذا هو كل ما يذكره جمال من حديث الصاغ عثمان نصار إليه عن عبد الحكيم...

فلم يكن جمال ممن ينشئون صداقاتهم على هذه الأسس السطحية البسيطة.. ولم يتوقع أبدا أن يكون عبد الحكيم - هذا - صديق عمره، ورفيق جهاده الكبير...

ولا يذكر جمال عن يوم لقائه الأول بعبد الحكيم شيئا.. ولكن عبد الحكيم هو الذى يذكر...

يذكر أن نبأ وصول جمال إلى الإسكندرية كان قد سبقه إلى هناك.. ويذكر أنه قام من فوره، وذهب يستقبله كصديق، أو زميل جديد.. ويذكر أنه قدم إليه نفسه.. ثم قدم إليه التسهيلات المستطاعة.. ويذكر أيضا.. أن جمال كان "قرفانا" وأنه قابل صنيعه شاكرا.. ولم يبد عليه أثر لهذه التوصية التى كان يحملها من الصاغ نصار...

نقيضان...

وقد تسجل الأيام أن لقاء عد الحكيم وجمال قد تم فى ذلك اليوم.. بالإسكندرية...

ولكن هذا اللقاء، لم يكن شيئا...

لم يكن هو اللقاء الحقيقى بين الصديقين اللذين لم يفترقا بعد ذلك أبدا فى حياتهما.. واللذين ارتبطا معا بأقوى ما يرتبط به صديقان.. رباط العقل والقلب والكفاح المشترك..

أما اللقاء الحقيقى.. والتعارف الكامل.. فقد بدأ فى الخرطوم..

هناك عاشا معا.. وعرف كل منهما صاحبه.

ولكنهما لو يقطعا مرحلة التعارف فى يوم أو إثنين، ولا فى أسبوع أو أسبوعين...

فقد كانا نقيضين فى كل شئ...

كان جمال شديد التحفظ..

وكان عبد الحكيم شديد الاندفاع..

كان جمال هادئ الأعصاب دائما.. مهما حدث، ومهما رأى.. وما أكثر ما كان يرى مما يشقى النفس الأبية...

وكان عبد الحكيم سريع الانفعال، سريع الغضب تستفزه الصغيرة والكبيرة على حد سواء!

والذين يعرفون عبد الحكيم اليوم، فى هدوئه، وصمته، واتزانه البالغ، قد لا يصدقون هذا الكلام، وقد ينكرون هذه الصورة...

ولكن الأيام التى مرت بعبد الحكيم فى إثنى عشر عاما.. والأحداث التى هزته هزا.. قد استطاعت أن تغير فيه كل شئ.. وأن نبدله أنسانا آخر، لا يعرفه اليوم من عرفه بالأمس القريب...

الأسد الهصور:

وأخذت عوامل كثيرة تعمل فى توطيد الصلة والصداقة بين الضابطين الصغيرين..

وكان أول هذه العوامل.. قومندان الكتيبة.

كان قومندانا من نوع فريد قل أن يوجد بين الضباط مثله..

فقد عرفنا قومندانات ذلك الزمان، قططا فى ثياب أسود..

عرفناهم أذلة للضباط الإنجليز.. أعزة علينا، نحن أبناء الفلاحين..

عرفناهم يتحكمون فى مصائرنا وأعمالنا وخطواتنا بالباطل أكثر مما يتحكمون بالحق...

بل لعلنا لم نعرفهم يتحكمون بالحق أبدا.. ولو كانوا كذلك ما غضبنا ولاعتبرنا صلفهم من مستلزمات الحياة العسكرية...

ولكن الصلف والغطرسة، كانا مظهر التعويض عن مركبات النقص التى كانوا يعانون منها...

جهلاء.. فى مناصب القيادة..

أذلة لأصغر ضابط إنجليزى.. وعلى أكتافهم المزيد من النجوم والتيجان..

وتحت أمرتهم، شبان صغار.. كبرت بالعلم مقاييسهم، وبالصورة والوطنية أنفسهم وقلوبهم..

هكذا كان موقف القومندانات منا..

أو هذه كانت أسباب هذه الموقف...

ولكن قومندان الكتيبة الثالثة فى السودان، كان يجب أن يتحكم فى ضباطه الصغار، تحكما من نوع جديد، لم نعرف له فى الجيش مثيلا.

من النافذة!

كان الرجل ولوعا بالشراب.. ما يكاد المساء يقبل، حتى يعد عدته لسكرة تذهب بعقله.. وتريه نفسه أسدا هصورا يملا زئيره الفلوات...

ولم يكن يجب الشراب وحده..

ولم يكن يظفر بفرصة الشراب مع الإنجليز..

فكان الحل الطبيعى عنده.. أن يأتى بضباطه.. بالأمر!! وأن يكلفهم بمجالسته وبمشاربته كلما جاء المساء..

وتصوروا.. شرابا بأمر القائد.. وفى مجلس الأسد الهصور..

لقد كان الضباط جميعا - حتى الذين يشربون الخمر منهم - يضيقون بهذا التكليف الثقيل..

ولكن جمال، لم يكن يضيق فقط، بل كان يضيق ويسخط ويقاوم... ويفسد على القائد مجلس الشراب...

وماذا يستطيع أن يصنع، وقد أمتنع عن المشاركة فى الشراب، فصدر إليه الأمر بالمشاركة في جلسة الشراب...

وكانت ليلة لا ينساها جمال، ولا عبد الحكيم.. حينما حاولا أن يتركا مجلس القائد.. فرفض وزمجر وقام إلى أبوابه فغلقها...

وتلفت جمال حوله.. وانتظر حتى شرب القائد كأسين أو ثلاثة. وبدأ يصول في المكان ويزأر...

ثم أشار إلى عبد الحكيم.. وقفز من النافذة.. وقفز عبد الحكيم خلفه.. وتبعهما الضباط جميعا...

وعاد القائد إلى مجلس الشراب، ليجده خاليا خاويا من السمار...

ولم يغن صراخه ولا زئيره شيئا!.. فبعد دقائق كان الضباط جميعا قد استقروا في إحدى دور السينما يشاهدون فيلما ضاحكا...ويضحكون..

والذى لم يضحك فى تلك الليلة.. هو القومندان المهيب.!

ومنذ الصباح التالى، بدأت حرب باردة بين القومندان وبين جمال وعبد الحكيم.. فقد فهم أنهما كانا رأس الحربة التى فتحت الثغرة فى نافذة داره...

وبلغ التفنن من الطرفين أقصاه فى هذه الحرب الباردة.. حتى جاء يوم تنفس فيه القائد الصعداء شيئا ما.. لأن عبد الحكيم قد هبط إلى القاهرة ليلتحق "بفرقة" دراسية من فرق الجيش...

انتفاع...

وادرك القائد انه لم يعد أمامه سوى جمال. وأن جمال وقد أصبح وحده الآن، لن يجد من يشاركه فى معارك كل يوم!

ولكنه لم يلبث أن نكب فى فطنته.. فقد استمرت الحرب الباردة بينه وبين جمال.. وزادت فنونها..

وفى يوم من الأيام، أصدر القومندان أمره بنقل جمال إلى جبل الأولياء.. ليستريح منه.

واستراح فعلا.. ولم يره بعد ذلك حتى اليوم..

وأتم عبد الحكيم فرقته، وعاد إلى الخرطوم.. فلم يجد "جمال" ووجد أركان حرب الكتيبة يسأله فى حذر:

- ماذا بينك وبين القومندان؟..

ويجيب عبد الحكيم فى حذر أيضا:

- لماذا؟

فيسر إليه أركان الحرب، أن القومندان لم يكد يعلم بنبأ عودته، حتى استشاط غضبا وأصدر أمره بنقله إلى كسلا..

خطة...

وكان عبد الحكيم قد عرف أن "جمال" قد نقل قبله إلى جبل الأولياء.. وفهم أن القومندان يريد التخلص منه كما تخلص من جمال..

وكان عبد الحكيم يعرف نفسية القومندان جيدا.. ويعرف أن هذا النقل ليس الا انتقاما..

وكان يريد أن يذهب إلى جبل الأولياء بدلا من كسلا بأى ثمن...

وابتسم عبد الحكيم فى وجه أركان الحرب، وقال له:

- أن "عفشى" لا يزال مربوطا.. وأنا أحب أذهب إلى كسلا..

وتركه قليلا ريثما بلغ هذا القومندان.. ثم طرق باب القومندان، ودخل.. ولم يكد ينته من التحية حتى سأله فى تلهف:

- متى أذهب إلى كسلا؟!

ودهش القومندان، وقد وقع فى روعه أن لعبد الحكيم أصدقاء أو أقرباء أو مصالح من أى نوع هناك.. ثم زمجر وقال:

- من قال لك أنك ذاهب إلى كسلا.. أنى لن أبعث بك إليها.. وستذهب إذا إلى جبل الأولياء!!

ولعل هذه كانت أول خطة من خطط عبد الحكيم الماكرة الماهرة!

وكان صباحا مشرقا عندما ذهب عبد الحكيم إلى جبل الأولياء.

إلى صديقه.. جمال..

فكر الحياة:

وفى جبل الأولياء. زادت الصداقة عمقا بين الزميلين.. واكتمل التفاهم بينهما.. في كل شئ..

كانا يقضيان معا سهراتهما يلعبان الشطرنج وكانا يقضيان معا أيامهما.. فى رحلات الصيد.. وعندما يذكر أحدهما تلك الأيام وتلك الليالى، لا يكاد يذكر الشطرنج ولا يصيد، بقدر ما يذكر المشاجرات الكثيرة التى تقع بينهما.

فليس يسيرا أن تقوم صداقة حقيقية بين هذين الرجلين دون أن يسبقها عدد كبير من المشاجرات!!

ولم يكن فى جبل الأولياء من الضباط سواهما...

فكان جمال هو القومندان، وكان عبد الحكيم ضابطه الوحيد!. ولم يكن بد إذا تشاجرا صباحا أن يصطلحا فى المساء.. وإذا تشاجرا مساء أن يصطلحا فى الصباح.!

ولكن هذه الفترة.. قد انتهت بالتفاهم التام بينهما.. وبالتفكير المتصل الموحد.. في حالة الجيش.

فقد اقتنا تماما، أن المشكلة ليست مشكلة الكتيبة.. ولا القومندان ولا الرؤساء الإنجليز...

ولكنها مشكلة الجيش كله.. والبلد كلها..

وكـان الحـاكم العـام فى السـودان يزودهمـا بكـؤوس المـرارة والحقـد على الاسـتعمار والأوضاع القائمة فى البلاد.. كان الحاكم العام فى السـودان، هـو القائـد الأعلى للجيش هناك، بما فى ذلك الجيش المصرى.. وكان لا يخفى احتقاره لجيش مصـر.. ولا كراهيتـه للمصريين ولا نزعاته الاستعمارية العاتية التى لا تقاوم.

وما حدث فى تباب الشريف..

حدث فى جبل الأولياء..

إنهـا الجـذوة الـتى يوقـدها جمـال فى بسـاطته وعمقـه واتـزان تفكـيره...إنهـا القـرار، والتصميم الذى تتمخض عنه المناقشات معه.

إنها الفكرة "فكرة الحياة" التى انبعثت هناك فى تباب الشريف، قد كسبت رجلا جديدا.. عبد الحكيم عامر..

لابد من القضاء على الاستعمار.. بأى صورة، وبأية وسيلة.. لابـد من تطهـير أرض مصـر والسودان من هذا العار الجاثم فيهما.

لابد من عمل شئ .. شئ عظيم..

ومثلما حدث معنا أيام تباب الشريف.. حين صدرت حركـة التنقلات فى الجيش، فـذهب كل منا إلى مكان.. حدث مع جمـال وعبـد الحكيم.. فلم تلبث الأوامـر أن صـدرت بنقـل عبد الحكيم إلى منقباد.. ونقل جمال إلى الصحراء الغربية.

وافترقا فى ذلك اليوم افتراقا ظاهرا.. ولكن الصلة بينهما لم تزد الا وثوقـا وقربـا، حـتى التقيا مرة أخرى فى القاهرة فى ديسمبر 1942... عقب حادث 4 فبراير المشئوم..

وعندما التقيا.. بـدأت أحـداث جديـدة، لم تعـرف القـاهرة أكثرهـا.. ولكن تسـجلها هـذه الصفحات.

الفصل الرابع

لحساب من كان يعمل أحمد حسنين!؟[1]

الحقيقة التى يجب أن يدركها كل من يقرأ هذه الصفحات، أو يحاول دراسة تاريخ هذه الثورة، والخطوات التى مر بها التمهيد لها، هى أن الذين قاموا بها وأعدوا لها، لم يبدأوا خطواتهم بوعى كامل وإنما تدرجوا فى وعيهم السياسى ، مع الأحداث والأيام...

ولعلهم أحسنوا الظن يوما برجل أو جماعة أو حزب.. ولعلهم علقوا على هذا الرجل، أو هذه الجماعة، أو هذا الحزب أملا.. ولعلهم ساروا أشواطا خلف هذا الأمل...

ثم جاءت الأيام، تكشف لهم عن حقائق لم يكونوا يعرفونها، وجاءت الأحداث تطرق أعصابهم طرقا عنيفا يهز كيانهم هزا، ويفتح عيونهم لإدراك جديد، ويوجه خطواتهم إلى طريق أكثر وعيا، وأقرب صلة بالهدف...

والهدف الواحد.. الهدف الكبير الذى لم يتغير، والذى تعتبر كل الأهداف الجزئية فى تاريخ هذه الثورة، وسائل إليه، هو القضاء على الاستعمار، وإزالة كابوسه الجاثم فوق صدر مصر...

[1] نشر في العدد السادس والسبعين من "الجمهورية" الصادر في يوم السبت 20 فبراير 1954 - 16 جمادى الثانية 1373هـ

وليس غريب فى سبيل الوصول إلى هذا الهدف، أن تلتقى جماعتنا بكثير من الأحزاب والهيئات والأفراد.. فقد كان هذا الهدف، هو البيرق الذى يرفعه كل تشكيل سياسى فوق بابه، والذى يخطف بريقه أنظار الشباب المتعطش للخلاص.

وليس غريبا أيضا فى سبيل الوصول إلى هذا الهدف، أن تنأى جماعتنا بنفسها نأيا شديدا، عن كل وسيلة يظهر عنصر التضليل فيها، سواء أكانت الوسيلة حزبا، أم جماعة أم فردا.

وقد كانت الفترة التى بدأت بعد حادث 4 فبراير، فترة نشاط ثورى كبير، لا فى جماعتنا وحدها، ولكن هنا، وهناك.. فى الجيش، والجماعات، وطوائف الشباب القومى والحزبى، والتكتلات الصغيرة العلنية والسرية، المدنية والعسكرية.

وكانت هذا الفترة لذلك، محكًا للأفراد والجماعات، ومختبرا يظهر معادن النفوس وفرصة للتعاون بين المخلصين.

كانت فترة عصيبة تلك التى تلت حادث 4 فبراير..

وكانت مجالا لنشاط كبير.. وهنا وهناك..

فقد كان الملك - مثلا - يظهر أمام الشعب بمظهر الوطنى الذى تحدى المستعمرين، وأراد أن يقود شعبه إلى الخلاص منهم فغلبوه على أمره، واستلوا منه سيفه وصولجانه وألزموه قصره كالطير السجين.

وكانت الأحزاب المعادية للوفد، تحاول بنشاطها الخفى والظاهرى، أن تكسب من تصويرها للحادث نفسه ومن نقائص الحكم الوفدى المعروفة ومن عطف الشعب على موقف الملك المطعون فى قصره، وسيلة لإكساب الأنصار، وبث الدعاية الحزبية، والتمهيد للوثوب إلى الحكم فى ثوب وطنى، بعد أن كانت لا تعرف طريقها إلى الحكم إلا وأنف الشعب راغم تحت أقدام القصر والإنجليز.

وكانت طوائف الشباب المجاهد المختلفة الاتجاهات، قد زج بها فى السجون والمتعقلات ومستشفيات المجانين...

وبقيت خارج الأسوار جماعة الإخوان المسلمين من ناحية وجماعات صغيرة ضئيلة العدد من الشباب الساخط تجتمع لتذكر وتزداد سخطا، أو تجتمع لتدبر أمرا كهذا الذى كنا ندبره والذى اعتقلت بسببه واعتقال معى عزيز المصرى.. وآخرون..

جماعات.. واتجاهات:

كنت أنا إذن أعمل من ناحية..

وكان الإخوان المسلمون يعدون أنفسهم على النحو الذى تحدثت منه فى بعض الصفحات السابقة..

وكانت هناك اجتماعات متفرقة تعقد هنا وهناك، وتضم شبابا ثائرا ساخطا..

فمن هـذه الاجتماعـات مثلا، اجتماعـات كـانت تعقـد فى حى الزيتـون ضـمت عـددا من ضباط الجيش من بينهم الصاغ كمال الدين حسين، القائمقام صـلاح حتاتـه مـدير سـلاح المشاة الآن.. وكانا إذ ذاك لا يزالان صغيرين سنا ورتبة..

واجتماعات أخرى كانت تضـم اليوزباشـى مصـطفى كمـال صـدقى وعـددا من الضـباط وضباط الصف، على نحو سنفصله على صفحات قريبة.

كان كل يعمل فى طريـق.. وكـانت أغلب الخـواطر تتجـه ناحيـة القتـل والإرهـاب. قتـل الإنجليز وأعـوانهم، فلم يكن هنـاك متنفس حقيقى للثـورة المكبوتـة فى الصـدور.. ولم تكن هناك آمال واضحة تدعونا إلى التريث والتفكير، أو تستطيع أن تحدد خطواتنـا إليهـا فى أتزان.. كنا قد فقدنا كل صمام يحمينا من الانفجار، حتى صمام التعزى بالأمل...

وكان جمال وعبد الحكيم فى ذلـك الـوقت، كسـائر هـذه الجماعـات الشـابة السـاخطة، يحاولان أن يصنعا شيئا..

ولكى الميزة التى أمتاز بها جمال، ميزة الصبر والتريث والتفكير الكثير.. اسـتطاعت أن تنأى بهما وبمجموعة أصدقائهما عن كل عمل طائش، أو خطوة غير مأمونة..

الحركة الأولى:

حـتى كـان عـام 1944.. أى بعـد أن قضـت وزارة النحـاس فى الحكم مـا يقـرب من العامين.

وكان قد أصبح واضـحا أن هـذه الـوزارة قـد وطنت نفسـها على تسـليم كـل مـا يطلبـه الإنجليز إليها.. وأن الملك قد أصبح عاجزا عن كل مقاومة... وأن مقاليد الحكم الداخلى نفسه فى مصر، قد وضعت نهائيا بين يدى تشرشل رئيس وزراء إنجلترا..

ولم تعد الأعصاب، تستطيع مزيدا من الاحتمال...

ولقد أصبح هذا الوضع الشائن مثارا لأحاديث بين الضباط فى كـل مكـان.. الكـل يتكلم.. الكل يهمس.. الكل يفكر..

ورأى جمـال أن فى الإمكـان اسـتغلال هـذه الحركـة الواسـعة من الهمس والنشـاط والسخط فى دوائر ضباط الجيش، بتحويلها إلى حركة موحدة واضحة، وسيلتها معارضة هذا اللون من الحكم، وهدفها تحدى الإنجليز..

واشترك جمال وعبد الحكيم فى تنظيم هذه الحركة وأعداد العدة لكل احتمال..

ثم اتفق جمال وعبد الحكيم على ألا يظهرا بصورة واضحة فى هـذه العمليـات، على أن يكون عبد الحكيم هو المحور الظاهر فيها..

ومرت أيام، فوجئ بعدها أعضاء مجلس إدارة نادى ضباط الجيش، وكبار اللواءات والقواد فيه، بدعوة موجهة إلى الضباط لعقد اجتماع عام فى النادى للبحث فى شئون البلاد والحكم...

ثم فوجئوا بعدد ضخم من الضابط يحضر هذا الاجتماع فى موعده... ثم فوجئوا بمناقشات سياسية واضحة، وخطابات جريئة، وقرارات تتخذ...

وقام اللواءات يحاولون الاعتراض على هذه الحركة وهذه الخطابات السياسية، وهذا النشاط الذى لا تقره تقاليد الجيش...!

وإذا بعاصفة من السخرية والتحدى تثور فى وجوههم، من جانب الضباط الصغار.. وإذا بالاجتماع يواصل برنامجه الموضوع له، رغم هذا الموقف من اللواءات المسيطرين على الجيش والنادى جميعا..

نصيحة حسنين[1]:

وانتهى هذا الاجتماع بتشكيل لجنة من ضباط مختلف الأسلحة، كان من أعضائها الصاغ صلاح سالم، ولم يدخل اللجنة جمال ولا عبد الحكيم، طبقا للقرار الذى اتخذاه من قبل..

وكلفت هذه اللجنة من قبل الضباط المجتمعين جميعا بالتوجه لمقابلة المرحوم أحمد حسنين "باشا" للتفاهم معه فيما يمكن عمله لوضع حد لهذا الحكم الإنجليزي السافر فى البلاد.. وإفهامه أن الضباط جميعا مستعدون لأى أمر، مهما كان هذا الأمر.. أنهم إذ يلجأون إليه في هذا السبيل. إنما يريدون بذلك أن يوجههم الوجهة الشديدة التى تضمن ألا تضار مصلحة البلاد بشئ...

وذهبت اللجنة فعلا إلى المرحوم أحمد حسنين وقابلته فى مكتبه.. وناقشته كثيرا.. ولكنه خذلهم.. وأضاع هذه الجهود التى جمعتهم وكتلتهم، بنصيحة واحدة وجهها إليهم، ثم تشبث بها تشبثا شديدا.. هى ألا يقوموا بأى عمل من أى نوع كان - فى نظره - غير مناسب لشيء.

وعادت اللجنة بهذه النصيحة.. ولم تكن تعلم، ولا كان أحد فى البلاد يعلم بما كشفت عنه الوثائق والوقائع بعد ذلك من الأسرار..

وعندما تكلمت الوثائق والوقائع، أثبتت أن أحمد حسنين.. رائد فاروق، ورئيس ديوانه وظهيره ومرشده يوم حادث 4 فبراير، وقبله، وبعد.. والرجل الأول فى القصر المعتدى عليه.. أحمد حسنين هذا، كان طوال حكم الوفد فى تلك الفترة، يتصل بالإنجليز.. لا لمصلحة البلاد.. ولكن لكسب ثقتهم فيه كحاكم جديد، يستطيع أن يقضى لهم من المصالح ما كان الوفد يقضيها.. وأن ينفذ لهم سياستهم "الديمقراطية" فى حكم البلاد وتوجيهها...

[1] أحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى للملك فاروق.

أحمد حسنين كان يريد أن يكون بطل 4 فبراير الثانية.. ولكن بغير دبابات!!.

ومع ذلك، فلم تكن شكوكنا فى أحمد حسنين قد بدأت فى ذلـك الـوقت ولم نكن لـذلك أن نجد تحليلا سليما لموقفه..

وعندما علم الضباط بهذه النصيحة، هاجوا وماجوا.. وأوشكوا على الانفجار..

سباب فى الطريق:

وكان لابد من صمام أمن آخر...

ولم يكن صمام الأمن هذا سوى التفتيش.. التنفيس بالقول: بالصوت، بالكلام.. ما دامت الكتابة ممنوعة، والأعمال الإيجابية...لا يرضى عنها الرجل الأول فى قصر الملك..

وتم الاتفاق على أن يخوض الضباط معركة من نوع جديد.. معركة لا تجمع فيها ولا تكتل ولا منشورات، ولا اعتداءات.. معركة ليست بالفردية، ولا بالجماعـة، وإنمـا هى جماعيـة الحقيقة فردية المظهر.

ورأت القـاهرة ضـباط الجيش، بملابسـهم الرسـمية، يختلطـون بالنـاس فـرادى، في المقاهى والمجتمعات، وعربات الأتوبيس والترام ... وساعات الصلاة.. ويثيرون مسـائل الحكم. ويوجهون السباب علنا، للإنجليز وللوزارة التى أقامها الإنجليز..

ولم يكن المراد بهذه العملية، مجرد إثارة الشعور الشـعبى ضـد الإنجلـيز وضـد حكومـة النحاس.. ولكن كان الغرض منها إشعار الإنجليز والحكومة نفسهما، بـأن ضـباط الجيش قد فاض بهم، وأنهم قد أصبحوا على استعداد لأى شئ...

حذاء.. لا قنبلة:

وظلت القاهرة تسمع هذا السباب العلنى وترى هذا التحدى السـافر من صـغار الضـباط فترة طويلـة من الـوقت.. حـتى كـان حـادث، لم يكتـف فيـه بطلـه" الضـابط" بكلمـات السباب والتجريح...

كان النحاس ذاهبا لصلاة الجمعة بمسجد الرفاعى...

وما إن انتهت الصـلاة وخـرج النحـاس لـيركب عربتـه، إلا وتقـدم منـه ضـابط شـاب من السواحل هو أبو شبانه وألقى بحذائه على عربة النحاس ويبدو أنه لم يسـتطع أن يسـدد قذيفته جيدا على العربة، فقد أخطا الحذاء عربة النحاس، والتقى بعربة عبد الحميد عبد الحق...

وثارت ثائرة الحكومة ورجالها.. وظن البعض أن الحذاء يخفى قذيفة من نوع آخر أشد خطرا وفتكا.. فارتاعت القلوب، وهلعت الأفئدة، وحوقلت الألسنة، وبسملت الشفاه. وانتهى الآمر بالقبض على الضابط.. صاحب الحذاء..

... ومحاكمات!

وفى ثوان معدودة، كان الفريق حمدى سيف النصر "باشا" وزير الحربية، قد أبلغ بنبأ العدوان الأثيم.. وفى الدقائق التالية، كان قد توجه إلى وزارته وجمع هيله وهيلمانه، وقرر عقد مجلس عسكرى مستعجل لمحاكمة هذا الضابط المقبوض عليه..

ولأول مرة عقد المجلس العسكرى، فى الدور الأسفل من وزارة الحربية.. وجئ أمامه بالضابط المتهم.. وشرع فى محاكمته على وجه السرعة، بينما كان حمدى سيف النصر فى غرفة مكتبه، يستجوب الشهود بنفسه قبل أن يمثلوا أمام المجلس، ويلقى إليهم بتفاصيل ما يشهدون به، ويهددهم بكل تهديد مستطاع!

وليس أمر هذه المحاكمة، هو ما يهمنا فى هذه الصفحات، فقد كان الضباط جميعا في انتظار محاكمات مثلها، لكل منهم.. وكانت كل كلمة مما كانوا يقولون علنا فى الطرقات والمجتمعات كافية لإدانة قائلها.. وسامعيها.!

ولكنها حادثة من الأحداث، التى وقعت فى تلك الأيام، نتيجة لعدم اكتمال الوعى السياسى فينا...

فحقيقة كنا إلى ذلك العام، نأمل كثيرا فى وطنية الملك... وكنا نصنع كل هذا، لمقاومة الإنجليز فى شخص الحكومة التى فرضوها.

ولكن عامًا واحدًا لم يكد يمر بنا، حتى أدركنا أننا كنا على خطأ عظيم وحتى تغيرت فكرتنا تغيرا كاملا، وأصبح واضحا أمامنا أن كل شخص ممن كنا نعرفهم، ونعلق الآمال عليهم، كان يضع مصلحة البلاد تحت كعب حذائه، وأنهم جميعا كانوا يعملون فى سبيل تقوية نفوذهم، والوصول إلى مقاعد الحكم، والسيطرة والسلطان...

حتى الملك المطعون فى قصره، أدركنا من أمره مالم نكن ندركه ، وما لم نكن نتصور حقيقته...

وحتى الأحزاب التى لبست أثواب الملائكة، لم نكن نستطيع أن نتصور مدى القذارة الموغلة فى أبدانها تحت هذه الأثواب البيضاء الناصعة...

أين الطريق؟

الكل سواء...

الكل يعمل لنفسه..

الكل لا يهتم بمصلحة البلاد فى شئ...

الكل على استعداد للبيع.. والتسليم..

الكل عدو لمصر.. صديق لأعدائها..

والظلام كثيف..

لا أمل فى الملك.. ولا أمل فى الأحزاب..

والأمل الوحيد قد يخالج خيالنا فى وجوه جديدة مجهولة.. وجوه خرافية تصنعها أوهامنـا، وتتمنى أن تلقاها على مسرح الحياة..

ولكن.. أين الوجوه. وأين مقام هذا الأمل، فى عالم الحقيقة...

هذا ما لابد أن نصل إلى جواب إليه..

ولكن كيف تستطيع هذه الوجوه أن تظهر والظلام كثيف..

لابد أذن أن ينقشع الظلام..

ولكن.. كيف ينقشع الظلام؟

هـذا محـور التفكـير الـذى أدى إلى تشـكيلات كثـيرة عسـكرية وشـعبية.. تتناولهـا هـذه الصفحات.....

الفصل الخامس

دور عزيز المصرى فى معركة الحرية[1]

عندما يتكاثف الظلام، وتتعذر الرؤية، ويتخبط الناس فى طرقات الحياة، وتتشعب بهم مسالكها.. يختار الله من عباده المخلصين من يتيح لهم البصيرة التى تغنى عن البصر، فإذا هم يتوقفون عند العثرة، لأنهم يتوقعونها، وإن لم ترها منهم الأبصار..

وقد كان الله معنا فى طريقنا الطويل إلى هذه الثورة، فأودعنا البصيرة كلما ادلهمت الظلمة، وجنب خطواتنا أكثر العثرات..

وفى طريقنا هذا الطويل، لمعت أمامنا أضواء، وتبعت أقدامنا أقدام.. ولكن خطواتنا ظلت محتفظة باتزانها وشخصيتها، واستقلال توجيهها واستطاعت أن تؤكد للجميع، أنها تستطيع أن تلتقى بخطوات الآخرين، ولكنها لا تستطيع أن ترتبط بها، لا متبوعة ولا تابعة، لأنها خطوات لا تمضى الا بإرادة أصحابها، وأصحابها لم تكن تعوزهم البصيرة، مهما افتقدوا الضوء في الطريق...

منذ عام 1942.. وعقب حادث 4 فبراير ببضعة أشهر تقررت هذه الحقيقة، حقيقة استقلال خطواتنا داخل الجيش عن كل مؤثر خارجى وعن كل قيادة خارجية..

وكل لهذا القرار، الذى أصبح تقليدا راسخا لنا بعد ذلك، سبب مباشر وظروف.

ففى يوم من الأيام، توجه المرحوم الشهيد "وجيه خليل" إلى عبد الحكيم عامر وكان يعرفه ويعرف حماسه واتجاه تفكيره ويعرف أنه واحد من جماعة الضباط الأحرار يتشاورون دائما فيما ينبغى عمله عقب ذلك الحادث المشئوم...

ولا شك أن بعضنا كان يرى العنف ويفكر فى القيام بأعمال إرهابية واسعة النطاق.. فالإرهاب دائما هو أول الحلول التى تتبادر للشباب المتحمس فى أيام المحن القاسية التي تجتاح الوطن...

[1] نشر في العدد التاسع والسبعين من "الجمهورية" الصادر في يوم الثلاثاء 23 فبراير 1954 - 19 جمادى الثانية 1373هـ

ولم تكن هذه الفكرة تجد معارضة كبيرة أو محسوسة من أكثرنا.. بل لقد كان بعضنا يدبر الأمر للتنفيذ وكأنها خطة مرسومة لا اختلاف عليها..

ولم تكن زيارة الشهيد "وجيه خليل" لعبد الحكيم الا صدى لوجود هذا الاتجاه.. فقد كان مقصورا بهذه الزيارة تدبير اغتيالات متعاقبة واسعة النطاق تشل حركة الإنجليز وأعوانهم فى تلك الأيام العصيبة من أيام الحرب.

وانتهت هذه الزيارة والتقى عبد الحكيم بجمال فأنباه بنبئها..

لا آلات ولا أدوات:

وكعادة جمال أنصت طويلا إلى هذه القصة.. والأسلوب الذى سيتبع فى التنفيذ، وتمويل الفدائيين ورعاية أسر من يتعرض منهم لسوء، والاستعدادات الموجودة لهذه المعركة التي "سوف" تدور فى الظلام... وشئ واحد لم يستطع جمال أن يستخلصه من حديث عبد الحكيم.. من الذى سيدير هذه المعركة.. وما هى أهدافه منها...

ولم يكن الشهيد وجيه خليل قد قام بهذا الاتصال باسمه الخاص ولكن باسم جماعة تقف من خلفه هى التى بعثته رسولا إلى جمال..

وقال عبد الحكيم أن وجيه قد احتفظ بما بعد ذلك سرا وأن جماعته تريد أن تستعين بنا لما تعرفه عنا من استعداد لخوض معركة من هذا القبيل...

وقال جمال فى هدوء:

- لا...

ثم أردف:

قد نرى القيام بحملة إرهابية واغتيالات، ولكننا عندما نصنع ذلك يجب أن نصنعه بأنفسنا ونتحمل وحدنا كل مسئولياته ونتائجه...فالخط الذى يجب أن نسير عليه كضباط في الجيش هو ألا نكون آلات ولا أدوات فى يد أحد من الناس ولا جماعة من الجماعات مهما كانت وحدة أهدافنا وهما كانت درجة إخلاصهم...

قال هذا جمال فى عام 1942.. وانتهت بهذا قصة "وجيه خليل" قبل أن تبدأ..!

ولكن قصة أخرى لوجيه خليل قد بدأت بعد ذلك.. قصة عظيمة مجيدة وهب فيها حياته كأشجع ضابط فى أقدس الميادين...

فقد انضم وجيه بعد ذلك إلى الأحرار وأصبح عنصرا من أهم العناصر في تشكيلاتهم.. فلما كانت حرب فلسطين كان من أسبق الضباط إليها.

وهناك فى الميدان جرح زميل له وكان هو فى مصـفحته فهبـط ليحمـل زميلـه الجـريح. وهبط تحت نيران اليهود ليخر صريعا شهيدا كأشجع مـا يكـون ضـابط وكأنبـل مـا يكـون إنسان.

يمين الإخلاص للدعوة:

وفى عام 1945ـ 1944فى الفترة التى تناولتها هذه المجموعة من الصفحات، تكـررت الصلات بين الضباط الأحرار وبين تشكيلات كثـيرة عسـكرية، ومدنيـة ولكن هـذا القـرار الذى صدر فى عام 1942، ظل دستورا لهذا المجموعة من الضباط.

فى هذه الفترة نشطت جماعة الإخوان المسـلمين نشـاطا كبـيرا فى اجتـذاب عـدد من ضباط الجيش إليها.. ونشطت نشاطا كبيرا فى الاتصال بجمـال عبـد الناصـر، ومجموعة أصدقائه..

وليس سرا أن عدد من الضباط كانوا قد آلفو دعوة الإخـوان، وأحبوهـا.. ورأوا فيهـا أملا ومخرجا لمصر من محنتها.

وعندما تلتقى ببعضهم اليوم قد يقص عليـك قصـة ذلـك اليـوم الـذى تم فيـه "اختبـاره" بواسطة الجماعة، ثم طلب منه أن يذهب إلى مكان ما... لحلف اليمين.

كانوا إذ ذاك يذهبون ليلا، إلى حى الصليبة فإذا مـا ينطـوى الحى عليهم، قـادهم رسـول الإخوان فى أزقة مظلمة متعرجة... حتى يصلوا إلى بيت عتيق.. فيصعدون درجـا يـؤدى إلى غرفة مظلمة، لا أحد فيها، ولا يفتح نوافذها..

ويجلس الضابط، وضع عليها مصحف، ومسدس.. ثم يدخل إلى الغرفة فى الظلام رجل لا يراه الجالس، ويلقنه يمين الإخلاص لـدعوة، فيـؤدى، هـذا القسـم وأبـداه موضـوعتان على المصحف والمسدس.

وتنتهى هـذه العمليـة فيخـرج الرجـل من الغرفـة أولا.. ثم يخـرج الضـابط ليجـد رسـول الإخوان الذى جاء به فى انتظاره يقوده مثلما جاء به إلى خارج الحى..

التعاون.. لا الانضمام:

وكـانت الصـلة بين الإخـوان، وبين ضـباط الجيش، ضـابط هـو الصـاغ عبـد المنعم عبـد الـرؤوف.. وكـان عبـد المنعم، يـدعو ضـباط الجيش إلى الانضـمام لصـفوف الإخـوان، ويعرفهم دائما بالصاغ "محمود لبيب" ليتولى هذا قيادتهم فى طريق الدعوة..

وكان الضباط يرحبون بهذا التعاون.. أنهم كانوا يريدون متنفسـا ينفسـون بـه عن آلامهم الحبيسة، كقوة وطنية مقيدة بأغلال الحياة العسكرية...

وكـانت كـثرة الضـباط تـرى أن يقـوم التعـاون دون الانضـمام.. فمن سـمات الرجل العسكرى ألا يخضع لأوامر تأتيه عن طريق العسكرى الذى يندرج فيه..

ولعـل أخطـاء كثـيرة قـد وقعت من جماعـة الإخـوان فى صـلتهم بالضـباط.. فقـد كـان الضباط ينضمون إلى هذه الجماعة، أو يتعاونون معهمـا، وفى يقينهم أن دورهم فى هـذا التعـاون هـو دور التنظيم والتـدريب لشـباب الإخـوان المتحمس الـذى يتحـرق شـوقا للتدريب العسكرى وحمل السلاح فى انتظار الفرصة التى تأتيه فداء الوطن.

ولكن تنظيمات الإخوان، كانت لا تفرق بين الضباط وغيرهم.. حـتى لقـد كـانوا يحـددون للضباط مواعيد التـدريب.. فـإذا أقبلـوا وجـودا واحـد من المـدنيين، يعطيهم دروسـا في كيفية استعمال المسدسات..

وكانت هذه الأساليب تزعج الضباط إزعاجـا شـديدا.. فهم يقبلـون على الإخـوان، وعلى دعوتهم، كضباط مدربين، لا كجماعات فى حاجـة إلى التـدريب.. وهم يشـعرون بمـرارة واسى يملآن قلوبهم عندما يجدون الجزاء الوحيد لهم على هذا الإقبـال الرضـى، هـو أن يعلمهم مدنى، كيف يستعملون السلاح!

وفوق ذلك، فلم تكن خطة الإخوان واضحة لهم.. ولم يكن أحد يصارحهم بشىء..

وكانوا يتساءلون.. متى نعمل، وما هو نوع العمل الذى نعد أنفسنا ونعـد شـباب الإخـوان له.. فلا يجابون على سؤال..

وكانوا يسألون: فما هو المطلوب منا..؟!

فيقال لهم: أن تثقوا فى قيادة الدعوة.. وأن تعملوا ما يطلب منكم فى حينه فحسب...

ولم تكن هذه الفترة قصيرة.. فقد امتدت أكـثر من عـامين وحـدثت فى خلالهـا أحـداث ظن هؤلاء الضباط أن كل حدث منها، سيكون النـاقوس، الـذى تصـدر على أثـره أوامـر العمل المطلوب...

ولكن هـذا الأحـداث مـرت، بكـل رنين النـواقيس.. والإخـوان فى جمـود.. والضـباط المنضمون إليهم فى حيرى من أمرهم.. لا يعرفون ماذا يصنعون...

نصيحة العمر:

وكضباط لم يكونوا يستطيعون أن يأخذوا أنفسهم هذا المأخذ الشديد.. فكـانوا يتكلمـون فيمـا يضـيقون بـه من الأمـر. وكـانوا يلجـأون إلى أصـحاب الـرأى يسـألونهم العـون والتوجيه...

وكان ممن ذهبت إليهم جماعة الضباط المنضمين الإخوان الفريق عزيز المصرى...

وللفريق عزيز المصرى، طبيعته النزاعة إلى التحرر من كل قيد.. وشخصيته المستقلة دائما وطريقته فى تربية ضباطه وأبنائه على الاستقلال بالرأى وقوة الشخصية، والعمل بالإرادة...

ويقول لك هؤلاء الذين ذهبوا إلى الفريق عزيز المصرى، أنه قال لهم "كونوا إخوانا إذا شئتم.. ولكن لا تقفوا عند هذا الحد"..

ولما سألوه عما يصنعون أجابهم:

- اقرأوا.. اقرأوا كل كتاب.. اقرأوا فى السياسة ومذاهبها والاقتصاد وفنونه، والاجتماع وأبوابه.. اقرأوا وأضيئوا فى رؤوسكم هذا المصباح الذى وضعه الله فيها لكى يهمل ويهال عليه التراب...

اقرأوا.. ثم إضربوا فى الأرض. واعرفوا الناس، وجربوا بأنفسكم كل شئ.. ولا تتقيدوا بدعوة، ولا بزعيم.. ولا تربطوا أنفسكم برأى قد ترون غيره إذا ما استنارت بالعلم رؤوسكم..

ينضمون للأحرار:

هذه كانت نصيحة عزيز المصرى للضباط الذين ذهبوا إليه تلك الأيام..

وقد ظل هؤلاء الضباط على صلتهم بدعوة الإخوان. ولكنهم جميعا أخذوا هذه النصيحة مأخذ الجد.. وبدأوا يقرأون.

ومن هؤلاء عدد من الضباط الذين يفخر بهم جيش مصر.. لأنهم استطاعوا أن يجمعوا بين روحانية الدين، وبين ضوء العلم، وحقائق الحياة المادية التى خلقنا لكى نعيش فيها..

وكل هؤلاء قد انضموا إلى الأحرار بمجرد تكوينهم على النحو الذى سنفصله فى هذه الصفحات..

وفى خصم تلك الأيام العصيبة من أعوام 1944، 1945، 1946.. حدثت أحداث أخرى من تشكيلات أخرى.. بعضها مدنى.. وبعضها عسكرى..

منشورات مصطفى صدقى:

وكان أول هذه الأحداث، هو حادث التدبير للاعتداء على الفريق إبراهيم عطا الله.. الذى اتهم فيه اليوزباشى مصطفى صدقى وزملاؤه.

وكان مصطفى كمال صدقى قد كون مجموعة من العسكريين، أكثرهم من ضباط الصف.. تهدف إلى تطهير الجيش من رؤسائه الجهلاء.. وكان أسم الفريق إبراهيم عطا الله في رأس القائمة التى فكر مصطفى كمال صدقى وجماعته فى التخلص منهم.

وكان مصطفى كمال صدقى ضابطا فى إدارة المخابرات فى الجيش فاختار في مجموعته عددا من صولات الإدارة.. وأخذ يعد المنشورات ويطبعها داخل الإدارة، وبآلاتها، ظنا منه أن هذه الوسيلة هى أسلم الوسائل لكى لا ينكشف أمر مجموعته..

ولكن تقديره لم يكن سليما.. فقد ضبطت المنشورات.. وضبطت قائمة فى داخل إدارة المخابرات تحوى أسماء ثلاثة وعشرين ضابطا.. وصولا..

وألقى القبض على الجميع، وتقرر حبسهم وتقديمهم إلى المحاكمة.

حيلة من القاويش:

وكان الحادث الثانى الذى أحدث دويا فى البلاد هو حادث اغتيال أمين سامى.. وقد قام بهذا الحادث تشكيل فدائى خارج الجيش...

وكان متفقا عند تقريره، ألا يبوح القاتل إذا قبض عليه بأى شئ أو أى أسم من أسماء أخواته...

وكان حسين توفيق، هو الذى تقدم فى اللحظة الأخيرة واصر على أن يوكل إليه أمر التنفيذ.. وعندما قبض عليه، ظل مصر على عدم الاعتراف، حتى استطاع كامل القاويش أن يلعب بأعصابه، بقصة مختلفة، إن دلت على شئ فعلى ذكاء القاويش وادراكه الصحيح لنفسيات من يقوم بالتحقيق معهم..

فقد أدرك القاويش أن حسين توفيق قد قام بهذا العمل، كعمل من أعمال البطولة يذكره له التاريخ.. فأراد أن يطعنه فى حلمه العزيز طعنة دامية، تجعله ينسى عهده للجماعة، ويبوح بكل شئ...

وذهب القاويش إلى إحدى الصحف الكبيرة، وأملى عليها خبرا مؤداه أن التحقيق قد أسفر عن وقوع الحادث لأسباب نسائية.. وجعل فى الخبر تلميحا إلى قيام صلة بين أمين عثمان وبين سيدة عزيزة جداً على القاتل حسين توفيق...

وفى الصباح دعا القاويش القاتل إلى مكتبه.. واطلعه على هذا الخبر

وجن جنون حسين توفيق...

لقد قتل أمين عثمان، وفى يقينه أنه يعمل عملا من أعمال البطولة الوطنية.. فكيف يقبل أن تذهب كل هذه البطولة هباء.. وأن تلوث أيضا سمعة أسرته، وسمعة أعز النساء عليه..

وانفجر يعترف.. يعترف بالجماعة التى دبرت هذا الحادث، وأسماء أعضائها، وأهدافهم، ومكان اجتماعاتهم، وتفاصيل ما يملكون من أسلحة.. اعترف بكل شئ...

وكنت بين من شملتهم اعترافات حسين توفيق، فالقى القبض على وشاركته السجن واحدا وثلاثين شهرا، حتى برأنى القضاء.

سياسة جمال:

وهكذا...

كانت هذه الفترة نشاط كثير.. نشاط من الإخوان كجماعة منظمة.. ونشاط فى داخل الجيش أو ألوان من النشاط فى داخل الجيش، واتصالات بالفريق عزيز المصرى.. وتدبيرات عنيفة واغتيالات..

وكان لجمال عبد الناصر رأى فى كل هذا...

فيوم طلب منه عبد المنعم عبد الرؤوف أن تقوم بينه هو وجماعته صلة مع الإخوان.. رحب بقيام هذه الصلة.. على أن تظل لجماعته شخصيتها المستقلة، وتفكيرها الخاص..

ويوم وقع حادث الفريق إبراهيم عطا الله قرر معاونة جميع المقبوض عليهم من الضباط وضباط الصف، فقام هو ومجموعة أصدقائه بجمع الاشتراكات ودفع مرتبات المقبوض عليهم جميعا طيلة فترة إيقافهم...

وحدث أن علمت إدارة الجيش بهذا الصنيع فأصدرت أمرها بمنع الاتصال بهؤلاء الضباط، ومنع القيام بأيه معاونة لهم.. ولكن جمال وأصدقاءه رفضوا هذه الأوامر، وتحدوها علنا وواصلوا العمل لمعاونة المعتقلين...

وقد ظنت هذه الجماعة يوم خرجت من الاعتقال، أن هذا الموقف من جمال معناه رضاءه عن العمل معها.. ولكن جمال رفض ذلك عندما عرض عليه.. وقررت المجموعة عدم التعاون مع هذه الجماعة، لأنها تضم أفرادا أكثرهم يتصف بالعبث وعدم المبالاة وحب الشهرة.. وعدم التقدير لحقيقة العمل، الذى يريدون عمله..

أما لماذا قام بمعاونتهم.. فقد قام بذلك، لأنه رأى إشعار الرؤساء فى الجيش، بأن هذا الرأى الذى رأته فيهم جماعة مصطفى صدقى.. يمكن جدا أن يكون رأى الجميع!

ويوم قام التشكيل الفدائى باغتيال أمين عثمان، ظلت المجموعة على صلة بى، حتى أعدت خطة لتهريبى من السجن..

وهكذا كانت تقاليد المجموعة قد بدأت تتخذ صورا واضحة فى مواقف متعددة..

وكان أهم هذه التقاليد، هو أن تظل الجماعة قائمة بنفسها، عاملة بإرادتها، محددة لخطواتها...

وفى كلمتين اثنتين..

ألا تكون آلة، ولا أداة فى أى يد

أما وسائلها.. فقد تطورت...

تطورت من صداقة تجمع الضباط، إلى تشكيل له نظام وأدوات...

وتطورات من السرية.. إلى العلنية إلى السرية مرة أخرى.. وكان لكل مرحلة من هــذه المراحل ظروفها وأسبابها وغاياتها الوقتية المحددة أيضا...

وظلت الجماعة تسير.. خطوة خطوة.. نحو أعداد كبير...

الفصل السادس

القواعد التى قامت عليها حركة الأحرار[1]

أن السر الحقيقى فى نجاح هذه الثورة، راجع إلى الروح التى سادت فى التمهيد لها..

فقد يجتمع الناس حول مبادئ، حول نظريات يقرؤونها، ويعتنقونها، أو أفكار يبشر بها دعاتها وقد يبلغ بهم الاقتناع بهذه المبادى والنظريات، والأفكار غايته، ويبلغ بهم التعصب لها ذروته، وما بعد الذروة أيضا أن صح هذا القول...

ولكن هذه المبادئ، والنظريات، قد تتعرض للجدل، فتتعرض الجماعة للانقسام.. وقد يتفاقم الجدل، فينحرف عن الآراء إلى أصحابها، وتبرز الأشخاص، وتختفى الآراء.. وتتلاعب أهواء النفوس.. ثم تنهار الجماعة وما اجتمعت عليه..!

حدث هذا كثيرا.. حدق فى مصر، وحدث فى غير مصر.. وفقدت الشعوب فرصا كثيرة للتحرر والتطور، لأن مجادلات قامت بين قادتها، أورثتهم التفكك والتحزب، وفتحت الثغرات بينهم لمطامع النفوس وأهوائها...

ولست أكتب هذا غضا من قيمة المبادئ والنظريات فما استحق الحياة من لا مبدأ له يعيش من أجله.

ولكننى فقط أرى أن المبادئ وحدها لا تكفى، لأن الرباط الذى يربط العقول، لا يستطيع دائما أن يربط القلوب، أن يذيب الهوى، ويقتل الأطماع...

ولذلك أرجع الفضل فى نجاح هذه الثورة، وعدم انكشاف أمر مدبريها والممهدين لها.. إلى شئ أهم كثيرا من المبادئ التى قامت عليها، وقامت من أجلها.. إلى الصداقة العزيزة الوثيقة، التى ربطت بين كل من شارك فيها، صغيرا كان أم كبيرا...

وهل كان يمكن، لولا هذه الصداقة أن يزيد عدد الضباط الأحرار قبيل الثورة على الألف ضابط، فلا يوجد بينهم خائن، ولا وجل ولا ثرثار؟..!

---

[1] نشر في العدد الثالث والثمانين من "الجمهورية" الصادر في يوم السبت 27 فبراير 1954 - 23 جمادى الثانية 1373هـ

وهل كان يمكن، لولا هذه الصداقة، أن تقوم الثورة فعلا، وتنجح، فلا يعـرف من الأحـرار إلا هذا العدد الضئيل، الذى ألزمته ظروف الثورة أن يظهر بوجهه على مسرح الأحـداث، وأن يتحمل بنفسه مسئوليات العمل الكبير؟..!

إنها الصداقة فقط.. الصداقة التى استطاعت أن تحوط مبادئ الثـورة بسـياجها المـتين، وأن تحمى النفوس من نزواتها.. لأنها احتلت من كل قلب منزل الأطماع..

وبهذا الدستور.. دستور الصداقة... بدأ التكوين الفعلى للأحرار فى عام 1944.

اجتماعات:

كانوا قد أصبحوا جماعة من الأصدقاء. جماعة صـغيرة عـرف بعضـها بعضـا في ظـروف كثيرة مختلفة.. وقربت بينهم صداقة أثيرة واعية...

ومنهم من عرفـه النـاس فى مجلس الثـورة بعـد ذلـك.. ومنهم من لا يـزال بنصـيبه من العمل فى وحدته أو سلاحه أو الإدارة التى ينتمى إليها..

كان منهم مثلا، جمال عبد الناصر...

وكان منهم طلعت خيرى وعبـد المجيـد فـؤاد من سـلاح المدفعيـة.. وكـان منهم عثمـان نـورى من ضـباط المخـابرات وكـان منهم كمـال الـدين حسـين.. وكـان منهم حسـين حمودة... وعبد المنعم عبد الرؤوف...

وكان معهم آخرون أيضا.. فليست أذكر الأسماء هنا على سبيل الحصر.. فقد كـان معهم مثلا الصاغ خالد محيى الدين، وكانوا يجتمعون أحيانا فى بيتـه بشـارع الخليج بالحلميـة.. كما كانوا يجتمعون فى بيت جمال الذى كان يقـع عنـد تقـاطع شـارع الملـك مـع شـارع الملكة نازلى.. وأحيانا، كـانوا يجتمعـون فى بيت عثمـان نـورى بشـارع جسـر السـويس بضاحية مصر الجديد... وأحيانا فى بيت حسين حمودة بمنشية البكرى.

رأى عام:

أصدقاء متفاهمون.. يريدون أن يعلموا شيئا.. ويسـتعرض هـؤلاء الأصـدقاء حالـة البلاد.. فيخرجون بعدد من الحقائق التى يجب أن يحسب لكل منها حسابها..

يستعرضون حالة الجيش، فإذا هى حالة أليمة غير مشجعة.. فلم يكن لضباط الجيش إذ ذاك رأى عام. ولو فرض أن كل ضباط صغير كان إذ ذاك ساخطا فى نفسـه.. فـإن هـذا السخط لا يمكن أن يؤدى إلى نتيجة عملية. ما لم يصبح سـخطا عامـا. محـدد الأسـباب، دافعا إلى التكتل والعمل..

فالمشكلة الأولى إذن، هى مشكلة خلق رأى عام واع بين ضباط الجيش، حتى يستطيع هذا الرأى العام أن يحرك الجيش كله نحو هدف واحد، بصورة منظمة منسقة تؤتى ثمارها..

ولم يكن يغيب عن ذهن هذه المجموعة، ما سبق من أحداث خلال الفترة الأولى من أيام الحرب.. فقد كنا إذ ذاك نعمل.. ولكننا كنا نعمل اعتمادا على أنفسنا، لا على رأى عام موحد بين الضباط.. ولذلك كانت أعمالنا فردية، أو شبه فردية.. وقد تأكد لهذه المجموعة ألا جدوى هناك من أى عمل فردى.. وأن العمل يجب أن يكون عملا جماعيا ما يأتى نتيجة لرأى عام يجمع الضباط...

الجيش والشعب:

والمشكلة الثانية التى كانت هذه الجماعة تفكر فيها.. هى مشكلة انعزال الجيش عن الشعب، وتسخيره دائما ضد كل حركة شعبية تقوم فى البلاد...

فقد كان الشعب فى تلك الفترة يتحمل العبء كله.. عبء الثورة بعد الثورة.. عبء التضحيات الجسمية والاستشهاد برصاص السلطات المصرية والإنجليزية أيضا..

وكان الجيش.. الجيش المصرى.. هو القوة الخارقة التى يحسب الشعب حسابها، كلما فكر فى الثورة من أجل تحقيق أهدافه..

كانت هذه هى صورة الجيش فى نظر الشعب.. أو كان هذا هو الوضع المتعارف عليه.. ولم يحدث أبدا أن حاول الجيش إزالة هذه الفرقة بينه وبي الشعب، لا لأن ضباط الجيش كانوا يكرهون ذلك، ولكن لأنهم كانوا منصرفين عنه انصرافا غير واع.. أى أنهم كانوا مستسلمين للأمر الواقع المتعارف عليه..

وكانت هذه المجموعة ترى أن الشعب الذى تحمل حتى اليوم كل التبعات والتضحيات ينبغى أن يطمئن إلى جانب جيشه.. وأن يدرك أن هذا الجيش معه لا عليه.. وعلى الأقل: أن يدرك أن هذا الجيش، أن لم يستطع أن يكون معه بحكم ظروفه وواقعة، فلن يكون عليه بحكم مصريته...

أهداف...وهدف:

واستقرت المجموعة على خطة طويلة المدى... خطة لها أهداف صغيرة بعضها بعضا.. ولها هدف كبير غاية يجب أن تصل إليها مهما بعدت الشقة وطال المدى..

وأصبح دور هذه المجموعة منذ تلك الأيام، هو السير خطوة خطوة حسب برنامج مرسوم على الوجه التالى:

- خلق رأى عام قوى بين ضباط الجيش.

• إشعار الضباط أن عليهم مسئولية كمواطنين لا تقل مسئولية أفراد الشعب العادين.

• التدرج فى بث الوعى السياسى بين الضباط حتى يصــبح من الممكن وجيههم إلى أن يكــون للجيش نفســه دور فى عمليــة إنقــاذ البلاد، أو أن يكــون على الأقــل محايــدا بين الشعب والسلطات الغاصبة الحاكمة، بحيث لا يشترك إلى تسديد الضربات إلى الشعب إذا تقدم أحد لحمل تبعة الإنقاذ...

أما الهدف البعيد من كــل هــذه فهــو الوصــول بــأى صــورة من الصــور إلى تغير النظـام الملكى القائم فى البلاد.

لا سرية..

وبدأت المجموعة بعد ذلك تسير إلى هــذه الأهــداف وفــق نظــام معين أيضــا تم الاتفــاق عليه..

فقد تم الاتفاق مثلا على نبد السرية نبذا تاما فى هذه المرحلــة مراحــل الــدعوة... فــإن السرية توحى بالتآمر، وتنذر بالخطورة ولا تستطيع أن تجمع الأنصار بسهولة، لان عامــل الخوف والحذر قد تغلب فى آخر الأمر.

فلتكن العلنية إذن هى الوسيلة.. ففى جوها يمكن تكوين الصــداقات وتعزيزهــا، واختيــار الأشخاص الــذين يبــدو إخلاصــهم وقــدرتهم على العمــل دون أثــاره لغــط أو شــكوك فى صفوف الضباط أو فى الأوساط الحاكمة..

وكانت هذه هى الخطوة الأولى.. فقد أثبتت هذه المجموعة بين جماعــات الأصــدقاء في الجيش تثــير المناقشــات العلنيــة فى جميــع مشــاكل الدولــة السياســية والاجتماعيــة والاقتصادية.. الداخلية والخارجية... وبــدأت هــذه المناقشــات العلنيــة تســتهوى الضــباط الشبان المتحمسين.. وتملأ حياتهم بشىء جديــد يعطيهــا قيمــة أكــثر.. فقــد كــانت حيــاة ضباط الجيش حتى ذلك الوقت حياة خاويــة الا من النظريــات العســكرية الــتى يدرســها والتدريبات التى تقوم بها، ومشاكله الفردية الجدية أو العابثة على حد سواء...

وانتشرت هذه الاجتماعات المفكرة.. أو انتشرت هــذه المناقشــات العلنيــة بين الضــباط بصورة مبشرة ناجحة..

لابد من قيادة:

وبدأت بواكير النجاح تظهر سريعا..

فقد بدأت تسمع نفس المناقشات هنا، وهناك.. وبــدأت تــرى الضــباط يلتقــون، فــإذا هم متفقون فى السخط، متفقون فى الشعور بحاجات الــوطن، متفقــون فى التفكــير فيمــا يجب عمله من أجل إنقاذه...

ومعنى هذا أن الرأى العام قـد بـدأ يتكـون.. وأن عقبـة كبـيرة من عقبـات الطريـق، قد أخذت تزول..

وكان لابد بعد ذلك من التوجيه.. فقد كان واضحا أن هذا السخط عنـدما ينمـو، يمكن أن يكون خطرا كبيرا، إذا لم يصحبه توجيه سديد..

فقد تقع أحداث كالتى كانت تقع بين شهر وآخر وبين يوم وآخر من تلـك الأيـام العصـيبة السوداء.. وإذا بالساخطين ينفجرون فرادى.. أو ينفجرون دون وعى، فيؤخرون الحركـة بدلا من أن يساعدوا على تقدمها.

وقد تستطيع بعض الهيئات أو الجماعات، إذا تشعر بهذه الروح الجديدة تدب بين ضـباط الجيش، أن تحاول ضمهم إليها بصورة أو بأخرى.. وعندئذ تلفت من الجيش قيادتـه، إلى أيد قد لا تحسن التوجيه..

وعادت المجموعة تنفق على أساسين آخرين تعتبر المحافظة عليهما عاملا جوهريـا من عوامل النجاح:

• العمل على الا يتأثر الضباط بالأحداث الجارية أى تأثر يدفعهم فرادى أو جماعات على القيام بأى عمل دون وعى أساسى، ودون خطة حكيمة مرسومة..

• والعمل على أن يحتفظ ضـباط الجيش باسـتقلال تفكـيرهم، فلا يرتبطـون كـأفراد، أو كجماعات بأية هيئـة أو حـزب خـارج نطـاق الجيش فـإن الجيش عنصـر خطـير يجب أن يظل توجيهه فى الأيدى القادرة على تقدير خطرة، فلا يكون أداة فى يد أحـد أو جماعـة من الناس...

تجمعات:

وكـان لابـد لضـمان هـذين العنصـرين من نشـاط منظم تسـيطر على توجيهـه مجموعة بنفسها..

ويوما بعد يوم.. وجدت حلقتان كبيرتان تجتمعان علنا، وفى نطاق واسـع، وعلى أسـاس الصداقة أيضا...

وعن طريق هاتين الحركتين، بثت الأفكار، وحذر الضباط من التأثر بالحوادث تأثرا فرديا ومن الارتباط بأية جماعة أو فرد خارج نطاق الجيش...

وبدأت هاتان الفكرتان ترسخان فى نفوس الضباط.. وأصبحنا جـزءا لا يتجـزأ من الـرأى العام المنتشر الموحد بين ضباط مختلف الأسلحة واطمـأنت المجموعـة إلى أن الجيش لن يقوم بأى عمل أخـرق أو أحمـق وأن الضـباط سـيظلون بمنـأى عن التـأثر الفـردى.. وأنهم لن يعملوا إلا جبهة واحدة منظمة..

وبطبيعة الحال لم تكن سيطرة المجموعة قد شملت جميع ضباط الجيش، ولا نسبة كبيرة منهم..

فقد كانت فى الجيش العناصر السلبية التى لا تضر ولا تفيد.. والتى لا يمكن الاعتماد عليها فى أى شيء..

وكانت فى الجيش عناصر أخرى مستقلة عن هذا التكوين، كجماعة مصطفى صدقى التى رفضت جماعتنا التعاون معها..

وكانت فى الجيش عناصر انتهازية، لم يكن من الشعب تحديدها واتقاء خطرها..

وفى ظلال هذه الاجتماعات العلنية.. والمناقشات المخلصة، والوعى الذى بدأ ينمو.. تكونت الصداقة القوية بين الضباط.. التى كانت سياج الحركة منذ ذلك التاريخ.. وظلت سياجها حتى اليوم..

ومثلما كان من المستحيل الوصول إلى السيطرة الكاملة على جميع ضباط الجيش وعناصره. فقد كان من المستحيل منع الضباط من التأثر بالإحداث الجارية فى البلاد.. ولكن المبدأ الذى اتفقت المجموعة عليه. منذ البدء.. هو الا يؤدى هذا التأثر فى أى عمل فردى. قد ظل سائدا طول الوقت.. وكان تأثر الضباط بالإحداث. عاملا مساعدا لاكتمال صفوفهم حول الفكرة والهدف البعيد، ولتحديد دورهم تحديد واضحا وضوح الشمس..

الإخوان وصدقى:

ففى فبراير 1946 - مثلا - وقعت حوادث الجامعة المشهورة فأثارت حماسة الضباط للحركة الشعبية. وحقدهم على السلطة الحاكمة المستعمرين...

وفى خلال الأيام التى تلت هذه الحركة، وقعت المهادنة بين صدقى وجماعة الإخوان المسلمين.. فأيدت هذه المهادنة دعوتنا إلى عدم الارتباط بأية جماعة خارج نطاق الجيش. إذا وضح فى أثنائها التناقض بين ضباط الجيش الذين كانوا كأفراد على صلة الإخوان المسلمين، وبين الإخوان كجماعة لها سياستها التى أوحت لها فى ظرف من الظروف أن تهادن حكومة صدقى ضد حركة الشعب.

.. ثم الوفد:

وعندما ذهب النقراشى إلى مجلس الأمن يعرض قضية مصر.. قوبلت الطريقة التى هاجم بها الإنجليز هناك بإعجاب شديد فى صفوف الضباط جميعا.. وفى الوقت نفسه، كشف النحاس عن وجه غير وطنى عندما أرسل برقيته المشهورة إلى سكرتير الأمم المتحدة يعلن فيها أن النقراشى لا يمثل شعب مصر.. فى وقت كان النقراشى فيه يهاجم الإنجليز.

ولعل هذين الموقفين قد أحدثا مقارنات كثيرة بين موقف النحاس وموقف النقراشى. فقد كان شعور الإعجاب بالنقراشى فى موقفه، المقابلة شعور الاشمئزاز من النحاس في موقفه..

ولكن عودة النقراشى من مجلس الأمن، وأعماله التى تبعت ذلك بمنع الحركة الشعبية بالحديد والنار، قد بعث فى الضباط الشعور باليأس من كل الرجال.. وسوت بينه وبين غيره من الذين تشدقوا بالوطنية وخانوا قضية الوطن..

مصابيح فى الطريق:

هذه الأحداث بالذات..

حادث الكبارى، وحادث المهانة بين الإخوان وبين صدقى، وحادث برقية النحاس، وحادث قمع الحركة الشعبية على يد النقراشى... قد كان يمكن أن تؤدى جميعا، أو أن يؤدى أى حادث منها إلى انفجار فردى أو جماعى من ضباط الجيش على غير وعى، أو تنظيم سليم..

ولكن المبدأ الذى كان قد ساد الضباط وشاع بينهم، جعل من هذه الأحداث مجرد مصابيح تضىء لهم طريق العمل القادم، وتزيد من وعيهم الحقيقى بما يجرى فى البلاد، وبالدور الذى يجب أن يقوموا به..

ومع الأيام التى تمر.. بدأت المرحلة الثانية، مرحلة التنظيم والتكوين.. بعد أن اطمأنت المجموعة إلى المرحلة الأولى.. مرحلة إشاعة الوعى، وتكوين الصداقات..

الفصل السابع

التفكير فى تكوين تشكيل سرى داخل الجيش[1]

كانت الروح التى سادت الجيش قد بدأت تبشر بنجاح عظيم خلال الإحداث الكثيرة المتعاقبة فى عامي 1946 - 1947.

فقد ازدادت جماعات الساخطين بصورة ملحوظة وانتفت السلبية انتفاء يكاد يكون كاملا.. وأدرك الضباط إدراكا كاملا أنهم على وشك أن يخوضوا معركة من أجل الخلاص.. خلاص الشعب وخلاص الجيش الذى ينبت من صميمه..

وشعر الحكام.. الملك الطاغية، والقواد" العظام" والسياسيون، بعدوى السخط التى بدأت تنتشر فى صفوف الضباط. وخيل إليهم أن "المصل الواقى" من وباء السخط يكمن فى خزائن الدولة، وأنهم إذا استطاعوا أن يحقنوا بهذا المصل جيوب الضباط لأمكنهم أن يعيدوهم إلى السلبية المطلقة التى كانت قد أصبحت عن تقاليد الجيش المصرى الراسخة دهرا طويلا..

وكانت السلبية هى كل ما يأملون فيه، ليستطيعوا عن طريقها عزل الجيش عن معارك الشعب، وتسخيره فى الوقت المناسب لإلهاب ظهره..

وبدأت ترقيات الضباط تنشر فى الصحف متتابعة متلاحقة.. كوسيلة لإرضائهم من جانب ولا يقاع الفرقة بينهم وبين طوائف الشعب المأزومة من الجانب الآخر..

ولكن حسابهم كان مليئا بالأخطاء الجسيمة.. والخطأ الأول والأكبر فيه، هو أن الروح الوطنية عندما تستيقظ، يصعب تخديرها.. وأن الإغداق المعتقل يكشف بنفسه عن دوافعه ويصبح عاملا من عوامل إشاعة السخط لا إشاعة الرضى..

وفى الوقت نفسه، كانت الأحداث تتلاحق.. وكانت أحداثا جسيمة الغطاء عن كل شىء، وبدأت تجرف الضباط جرفا.. نحو المعركة..

تحول إلى العمل السرى:

فى ذلك الوقت كانت حلقات الساخطين، تضم كل منها خمسين ضابطا على وجه التقريب.

---

[1] نشر في العدد السابع والتسعين من "الجمهورية" الصادر في يوم السبت 13 مارس 1954 - 8 رجب 1373هـ

وكانت الأسلحة جميعا ممثلة فى هذه الحلقات. والصداقة القوية تربط بين أفرادها، من مختلف الأسلحة، ومختلف الرتب التى لم تكن قد تجاوزت رتبة الصاغ فى ذلك الوقت..

ورأت المجموعة أن تبدأ تنظيمها بداية تدريجية.. فلا تنتقل من الاجتماعات العلنية إلى العمل السرى دفعة واحدة.. وإنما تتدرج إلى ذلك، حتى يصبح واقعا طبيعيا تؤمن عواقب السير فى طرقائه..

فقد كان رأى المجموعة قد استقر فعلا على تكوين جهاز سرى فى داخل الجيش يناط به الأعداد للعمل الكبير، والقيام بهذا العمل أيضا فى اللحظة المناسبة، مطمئنا إلى تأييد الضباط جميعا فى المرحلة الحاسمة، بعد أن اشتعلت فى قلوبهم شرارة السخط، وإنما الوعى الشعبى فيهم، كأفراد وكجماعات...

وكان اختيار أعضاء هذا الجهاز السرى، يحتاج إلى دقة، ووقت غير قصير.. خصوصا وأنه لم يكن من تقاليد هذه المجموعة، أن تركن إلى أساليب الاختبارات المفتعلة التي تركن إليها الجماعات السرية على اختلافها كما لم يكن من تقاليدها الاعتماد على حلف يمين أيا كان شأنه.. وإنما الاعتماد - فقط - على الإخلاص الواعى المقترن بالصداقة الكاملة.. وبدأ التدرج إلى الهبوط - تحت الأرض - والإيذان ببدء العمل السرى يأخذ طريقه هادئا حتى لا يشعر الضباط بأن هناك حركة غير عادية، أو عمليات فصل بين الجهاز السرى وبين جموعهم الساخطة.

اشتراكات.. ومنشورات:

وكانت الخطوة الأولى فيه، هى اقتراح جمع اشتراكات من الحلقات الساخطة جميعا...

وفهم الضباط من هذا الاقتراح أن هناك اتجاها إلى عمل.. فعند مناقشة الاقتراح، وتعليل أستبه.. ذكر احتمال اللجوء إلى طبع منشورات.. واحتمال إيقاع الحكومة لونا من الأذى ببعض الضباط، وأنه يجب أن يكون لدى "الضباط" لا لدى "المجموعة" قدر من المال ينفق منه على المنشورات، وعلى معاونة الضباط الذين يمكن أن يصيبهم الأذى من جراء هذه الأعمال، وإعالة أسرهم إذا أصابهم شر..

وفى الوقت المناسب.. نوقشت جبهة الأعداء.. وحددت تحديدا واضحا، بأنها مكونة من الاستعمار.. والملك.. والأحزاب السياسية جميعا..

وأدرك كل ضابط أنه مشترك اشتراكا فعليا فى محاربة هذه الجبهة...فسهل بعد ذلك إنشاء التنظيم السرى، فى مأمن من الفضول، لقد كان كل ضابط بعد ذلك يعتقد أنه واحد من التنظيم السرى، ولا يفكر فى اكتشاف أمر، يعتبر اكتشافه خطرا داهما على الحركة كلها.. وعلى المشتركين فيها، وعلى البلاد..

فلسطين..

وبينما كانت المجموعة تدبر أمر البدء فى التشكيل السرى. جاءت الأحداث، تؤجل هـذه الخطوة وتحول اتجاه السخط إلى ناحية أخرى. لم تلبث أن كانت حجر الزاوية فى تهيئة الجو لنجاح هذه الثورة.

فقـد أقبـل عـام 1948.. وأقبلت معـه أحـداث فلسـطين. أو بصـوره عامـة.. حـرب فلسطين...

والقراء يذكرون كيف التهبت المشاعر عقب الاعتـداءات اليهوديـة المتتابعـة على عـرب فلسـطين العـزل من السـلاح.. وكيـف قـرر الشـباب العـربى فى مختلـف البلاد خـوض الحرب المقدسة، دفاعا عن العروبة فى أعز ديارها..

وفى الأيام الأولى لهذه الأحـداث، لم يكن قـد تقـرر أن يخـوض الجيش هـذه المعركـة.. ولكن الحكومة كانت فى موقف لا تستطيع معه منع الجماعات الثائرة من الشـباب، من خوض هذه الحرب كمتطوعين..

وكانت أكثر الجماعات فى تلـك الـوقت تحمسـا للتطـوع والقتـال، هى جماعـة الإخـوان المسلمين.. وكانت المجموعة ترى من واجبها تدريب الشبان الـذين يتطوعـون للقتـال، والتطوع معهم لقيادتهم خلال المعركة.

الإخوان.. والمفتى.. والجامعة العربية:

وبدأت فى تلك الفترة صلات جديدة مع جماعة الإخوان.. صلات بين ضـباط المجموعـة، وبين قيادة الجماعة..

فقد عقدت اجتماعات فى بيت المرحوم حسن البنا، ضمت جمال عبد الناصـر، وكـان إذ ذاك فى كليـة أركـان الحـرب، وكمـال الـدين حسـين ضـابط المدفعيـة، وبعض الضـباط المنتمين للإخوان..

وفى نفس الـوقت نشـأت صـلات بين المجموعـة وبين الحـاج أمين الحسـينى مفـتى فلسطين.. وبين المجموعة وبين الجامعة العربية..

وكان هدف المجموعة من هذه الصلات جميعا، هو تكوين تنظيمات وتشكيلات مسـلحة، وتدريبهم وأعدادها أعداد كاملا بكل ما تحتـاج إليـه من خـبرة ومن سـلاح، قبـل التطـوع لخوض غمار المعركة المقدسة..

وكان الإخوان يقولون إنهم مستعدون إلى أقصى الحدود، أنهم لا ينقصـهم شـىء سـوى السماح لهم بالسفر إلى ميدان المعركة..

وكان المفـتى والجامعـة العربيـة على جانبـه، ويكونـان تشـكيلات من المتطـوعين، وقد أعلنت الجامعة أنها على استعداد لتسليحهم والأنفاق عليهم..

الاستيداع أو الاستقالة:

وبقى دور الضباط.. فقد كان الضباط لا يستطيعون الاشتراك فى الحرب الا إذا أعلنت الحرب من الدولة أعلانا رسميا، واشترك الجيش فيها، ولم يكن قد تقرر بعد إعلان الحرب..

ولذلك فكر الضباط فى الخروج من الجيش، والاشتراك فى الحرب كمتطوعين..

وبدأت الطلبات تنهال على قيادة الجيش من ضباط المجموعة، ومن عدد كبير من الضباط الآخرين.. وكانوا يكتبون فى طلباتهم، أنهم مستعدون لتقديم استقالاتهم، أو طلبات الإحالة إلى الاستيداع على أن تتركهم الحكومة يذهبون إلى الميدان بأسلحتهم..

وكانت الحكومة مترددة فى ذلك أشد التردد، مما أوجد الضباط فى حالة من الغضب، وزاد من حدة السخط فى قلوبهم..

ولكن ضغط الحوادث كان قاسيا وخطيرا.. وشعرت الحكومة بأنها لابد أن تعمل عملا.. واقتربت اللحظات الحاسمة، مع ازدياد فظائع اليهود يوما ما يوم..

قبول التطوع:

وفكرت الحكومة فى أن ترسل جماعة من ضباط سلاح المهندسين إلى فلسطين، ليقوموا ببعض الأعمال الاستكشافية.. ووجدت أن خير وسيلة لذلك، هى أن تقبل ما كان الضباط يطالبون به من أباحه إحالتهم إلى الاستيداع أو قبول استقالاتهم. وتركهم للذهاب إلى الميدان بأسلحتهم كمتطوعين..

وفوجئ الضباط بإشارات تأتيهم لمقابلة الفريق عثمان المهدى "باشا" رئيس هيئة أركان حرب الجيش فى ذلك الوقت..

ولبى الضباط الإشارة، وفى مكتب رئيس أركان الحرب، وجدوا الفقيد أحمد عبد العزيز.. وأخبرهم الفريق عثمان المهدى، أن طلباتهم قد قبلت. وأنهم يستطيعون أعداد أنفسهم للتطوع للقتال..

4 قطاعات:

كانت الجامعة العربية إذ ذاك بدأت تنظم تشكيلاتها بالاشتراك مع فتى فلسطين، وكان قد تقرر تقسيم فلسطين إلى أربعة قطاعات بأربع قيادات ميدان، على أن تخضع القيادات الأربع للجنة العسكرية التى تجعل مقرها دمشق، ومثل مصر فيها اللواء صالح حرب.

وكان القطاع المصرى فى فلسطين هو قطاع الجنوب، وقد عينت الجامعة لقيادته اللواء سليمان عبد الواحد سبل.

وكانت المجموعة تعرف اللواء سبل من قبل.. فقد كـان الفريـق إبـراهيم عطـا اللـه قد أخرجه من الجيش.. فأقام الضباط له حفلة تكـرين فى نـادى الضـباط. لا لتكريمـه فعلا ولكن تحديا لإبراهيم عطا الله.

وكان مع اللواء سبل، ضابط مخابرات هو اليوزباشى مصطفى كمال صدقى، وقد سافر سبل إلى فلسـطين مـع متطـوعى الجامعـة العربيـة والمفـتى.. ولكنـه لم يمكث هنـاك طويلا، فقد دب النفور بينه وبين ضابط مخابراته.. ثم عاد هو، ولم يرجع مرة أخـرى إلى الميدان.

استعداد..

وكـان الضـباط المتطوعـون فى تلـك الأيـام يعـدون أنفسـهم للسـفر.. بـدون أنفسـهم بالسلاح، وتدريب الجنود الذين سيحاربون تحت أمرتهم فلمـا عين المرحـوم أحمـد عبـد العزيز قائدا لقوات المتطوعين فى فلسطين، ذهبت المجموعـة معـه إلى مـنزل اللـواء سليمان عبد الواحد سبل لتحصل عليه على معلومات عن الجبهة.

وكان مؤسفا، أنها لم تستطيع الحصول على أية معلومات ذات قيمة عسكرية..

ومضى الضباط يواصلون استعداداتهم..

وكان أقسى ما يواجههم هى عمليات الاستعداد.. فللأسف الشديد كانت ظروف الأعـداد قاسية موئسة لأى ضابط، مثبطة للهم، قاتلة للأرواح..

بنادق فقط!

كانت الحكومة مثلا تريد من الضباط والجنود أن يسافروا إلى ميدان القتال غير مزودين الا بالبنادق!

وكان الضباط يحاولون إقناع المسـئولين بـأن البنـادق وحـدها لا تكفى وأن السـفر بغـير مدافع، يعتبر انتحار، أو يعتبر مهزلة يدفع المتطوعون منها من أرواحهم.. ولكن الحكومة لم تكن تتحرك لصرخاتهم..

وبدأت الأيام تمر، ومع مرورها بـدأ اليـأس يخيم على النفـوس، حـتى قـد عـاد كثـير من الضباط فى قرار التطوع، ورجعوا إلى خدمة الجيش بعد أن كانوا قد قطعوا شـوطا في استعداداتهم..

وأى ضابط يسمح لنفسه أن يذهب إلى القتال.. ومعه بندقيـة: وليس مـع جنـوده سـوى البنادق.. والميدان ميدان حرب حديثة لم يكن أحد يشك فى أنها حرب ضـد عـدو مجهـز بأحداث وسائل القتال..

وأخيرا.. وبعد جهود طائلة سمحت الحكومة للمتطوعين بأن يأخذوا معهم عددا من المدافع.. وكان هذا انتصارا عظيما، فرح الضباط به والجنود!

خطابات...

وجاءت ليلة السفر.. وفى ليلة السفر وقعت بعض المفارقات والحوادث التى لا تنسى...

فى ذلك اليوم: يوم السفر.. أعتذر عبد المنعم عبد الرؤوف الذهاب إلى الميدان.. وكان متطوعا، ولا يدرى أحد لماذا تردد، كان حتى ذلك اليوم شديد الحماس.

ولم يكد نبا اعتذاره يعرف حتى تقدم اليوزباشى خالد فوزى ليحسن محله في التشكيلات المسافرة.

وعندما ذاع نبأ اعتذار عبد المنعم عبد الرؤوف، دب الذعر فى نفس أحد الضباط، فاعتذر بدوره أيضا، وإذا بالمرحوم اليوزباشى أنور الصيحى يتقدم لكى يحل محله، وكأنما كان بسعى إلى قدره.. استشهد أنور الصيحى فى أول معركة عقب وصوله إلى أرض فلسطين.

وفى مساء ذلك اليوم جمع أحمد عبد العزيز جميع المتطوعين، وخطب فيهم قبل السفر.. وكان من حضر تلك الليلة يذكر خطاب أحمد عبد العزيز.. ويذكر قوله بحماس لهؤلاء المتطوعين، أنكم لا تذهبون لقتال عدو فحسب.. ولكنكم ذاهبون لتكتبوا التاريخ.

وفرغ أحمد عبد العزيز من خطابه.. إذا بالجمع يرى المرحوم حسن البنا ومعه الشيخ فرغلى، قادمين لوداع المسافرين.. وخطب حسن البنا، وخطب الشيخ فرغلى.. وأشتد الحماس وبلغ أوجه.

المتطوعون:

وفى الحقيقة كانت الروح عالية، وكان الحماس شديدا.. وكان الكل هبا لكى يموت أقدس ميتة وأشرفها. ولكن هذا لم يكن يعنى أمام ضابط العارف بأسرار القتال وفنون المعارك، أن العمل من أوله إلى آخره، يؤدى إلى نتيجة تذكر مهما حسنت الظنون.

فقد كان المتطوعون خليطا من شباب الإخوان المسلمين، ومن أفراد الليبيين.. وما تعرفه الجيوش النظامية جميعا باسم الضبط والربط.. كان مفقودا تماما بين هذا الخليط الذى لم يتعود الحياة العسكرية، ولا يستطيع أن يفهمها فى أيام معدودة.

وكان الضباط حيارى بين الإخوان المسلمين بنظمهم الخاصة وتقاليدهم المعروفة، وبين اللبيبين الذين كان السيد عبد الرحمن عزام قد آتى بهم لأنهم خير المحاربين وأشدهم بأسا وأقواهم شكيمة.

ولكن روح الفداء التى كانت مسيطرة على الجميع كانت توحى بإمكان تغلب على جميع المصاعب والعقبات..

ورحلت قافلة المتفرقين..

والذى أفادته حركة الجيش من هذه المرحلة.. رحلة المتطوعين إلى القتال، لا يمكن تقديره بحال من الأحوال.. فقد كانت هذه الرحلة كافية لكى تخلق فى كل ضابط قدرا من السخط، يكفى لكى يدفعه إلى الموت فى سبيل تغيير الأوضاع القائمة فى البلاد، إذا حدث وعاد من الحرب سليما.

كشوف العهدة:

بدأت المهازل بما رآه الضباط من قوات الأسلحة المختلفة بخصوص التى كانت لديهم فى أسلحتهم.. فأسوأ الأسلحة أعطيت للمسافرين وأسوأ العربات أعطيت لهم.. وأكثر من ذلك، قام كل صاحب عهدة بجرد جردا خاصا، لكى يحصر الناقص منها، ويكتبه فى كشوف الأسلحة والمعدات المسافرة إلى الميدان...

وهكذا كنت تجد فى كشوف ما لا تجد فى الحقيقة.. بل كانت الكشوف تحوى أضعاف الأسلحة والمعدات الموجودة فعلا فى أيدى الجنود لأن أصحاب "العهد" وجدوا فى هذه المناسبة فرصة العمر لتغطية ما فى ذمتهم من نقص شديد...

مساعدات:

والذين كانوا يعطفون على المسافرين فعلا، ويسعدونهم فعلا، هم إخوانهم الضباط والجنود والعمال الذين التقوا بهم فى الطريق..

ففى العريش مثلا، قام رجال الصيانة بفحص العربات المسافرة، والذعر والأسى والحزن مخيم عليهم جميعا.. فقد كانت كلها سيارات قديمة لا تصلح لشىء.. وقضى رجال الصيانة هناك ليلهم ونهارهم عاكفين على إصلاح السيارات وأعدادها لكى تستطيع أن تكمل الرحلة إلى الميدان...

وكان الضباط يقومون لأخونهم "الله معنا.. فالذهاب إلى الحرب بسيارات كهذه نوع من الانتحار"..

ومع كل هذا، فقد كانت الروح اقوى، والحماسة أشد من أن يجرفها اليأس..

وسافر المتطوعون، وقد لزموا فى طريقهم فلنكات السكة الحديد، حتى وصلوا إلى رفح.. ثم إلى خان يونس.

وفى خان يونس.. فؤجى الضباط فى اليوم التالى بحضور عبد المنعم عبد الرؤوف.. وهكذا لم يتخلف هذا الضابط الذى كان معروفا بين إخوانه بالحماس.

ولنترك المتطوعين الآن.. فلسنا بسبيل كتابة تاريخ حـرب فلسـطين، لنـتركهم، والحقـد على الأوضـاع يغلى فى قلـوبهم.. ونلتقى بـالجيش المصـرى المسـافر رسـميا إلى فلسطين يعد هذه الرحلة بأسابيع قليلة..

الفصل الثامن

كيف ذهبنا إلى فلسطين وكيف عدنا![1]

أن قصة حرب فلسطين على حقيقتها قصة مثيرة مفجعة.. هى مأساة حقا ومأساة من النوع الذى لا ينسى...

ولقد حاولت أن أكتب الصفحات الخاصة بالتمهيد لهذه الثورة فى أثناء حرب فلسطين.. ولكننى أمسكت.. فما أعرفه أنا عن الحقبة المجيدة من حياة شعب مصر وجيشها أعرفه بالسمع، لا بالممارسة والتأثر والانفعال.. وعندما أتذكر ما كنت أسمعه خلال تلك الأيام من مآسى الحرب، وخيانة القيادات، ترتبط هذه الذكريات بأيامى الخاصة، ومتابعى الشخصية إذ كنت إذ ذاك سجينا.. فلم يكفنى حبس حريتى، ولكن كان مقدرا على أيضا أن أحرم من خوض هذه الحرب المقدسة، التى طالما تاقت نفسى لخوضها.

وأيام السجن يمكن أن تكون لها صفحات..

وأيام الحرب، لها بدورها صفحات...

وإن ارتاحت نفسى إلى ذكر صفحات من أيام سجنى فى يوم من الأيام، فلن ترتاح لكتابة شئ عن أيام الحرب التى لم أخضها، والتى خاضها زملاء لى، كاتبون...

فإلى أن يكتب أخى صالح سالم، قصة حرب فلسطين، سأكتفى هنا بالإشارة إليها، أو الإشارة إلى ما سمعته منها من أخوانى وزملائى ضباط وجنود الجيش المصرى الباسل، فى هذه الحرب المقدسة...

الحرب:

والذى لابد من ذكره لكى تستقيم هذه الصفحات هو الصورة الذهنية والعاطفية، لضباط الجيش، ومنهم ضباط مجموعتنا يوم دخولها، والصورة الذهنية والعاطفية لضباط الجيش وضباط مجموعتنا يوم عادوا منها..

أما يوم الخروج للحرب.. فيوم ذاكره مجيدة فى نفوس الضباط والجنود جميعا..

لقد أعلنت الحرب.. وسواء أأعلنها فاروق أم أعلنتها حكومة البلاد القائمة حكومة النقراشى فى تلك الوقت - وسواء أكان إعلانها خطأ، أم كان إعلانها صوابا، وسواء أكان الجيش مستعدا لخوضها، أم لم يكن مستعدا. فالحقيقة الوحيدة هى أن الضباط جميعا لم يفكروا فى شىء من هذا كله.. لم يفكروا فى الخطأ أو الصواب لم يفكروا فى احتمال النصر أو احتمال الهزيمة.. ولكنهم فكروا فى شىء واحد فقط.. أن حربا أعلنت باسم مصر، وأن جيش مصر يجب أن يخوض هذه الحرب، كأشجع ما تخوض الجيوش

[1] نشر في العدد الرابع عشر بعد المائة من "الجمهورية" الصادر في يوم الثلاثاء 30 مارس 1954 - 25 رجب 1373هـ

حروبها، وأن يموت رجاله، ضباطه وجنوده، فداء لكل ذرة من ثرى الأرض المقدسة، ثرى العروبة والمجد والتاريخ والقداسة.

هذا هو ما فكر فيه ضباط الجيش وجنوده، وهذا وحده هو ما جعلهم يندفعون اندفاعا إلى ميدان الشرف، دون نظر إلى الحقائق الأساسية التى تهتم بها كل محارب وخاصة إذا ما أشعرته الظروف بأن قيادته نفسها لم تول الأمر ما هو جدير به من الاهتمام..

فالذين سافروا إلى الحرب سافروا مجردين من أقوى سلاحين يسافر بهما المحارب...

المعلومات الحقيقة أو شبه الحقيقة عن العدو..

والاطمئنان إلى حسن استعداد الجيش نفسه.

والذين سافروا إلى حرب فلسطين، لم يكونوا يعرفون شيئا مطلقا عن جيش اليهود.

ولم يكونوا يعرفون شيئا مطلقا أيضا عن جيش مصر نفسه ومدى استعداداته وحقيقة إمكانياته!

ولكنهم سافروا.. سافروا حماسة.. وسافروا دودا عن شرف الوطن الذى ادخرهم للذود عنه.. وقد آن أن يلبوا نداءه المقدس رغم كل شىء...

فى أرض المعركة:

وكل ما يفيد الآن فى هذه المذكرات، هو ما شعر به الجيش المصرى فى فلسطين منذ الأسابيع الأولى، من حقائق تثبط أى همة. وتقصم كل ظهر.

فهناك.. فى أرض المعركة، وضح تماما أن كل ما يلزم لجيش يحارب لا وجود له فى جيش مصر. وكل ما يلزم.. من سلاح أو اعتاد أو ذخيرة أو مواصلات.. لا وجود لشىء يصلح للحرب أبدا..

وهناك فى أرض المعركة، وضح تماما أنها معركة تسير وفق نظام غريب لم يسبق له مثيل فى تاريخ المعارك الناجحة والفاشلة فى العالم بأسره.. فالجيش يحارب فى فلسطين ولكنه يقاد من القاهرة.. وهو يقاد من القاهرة وتصدر له الأوامر.. أوامر التحرك والهجوم دون نظر لا إلى أصول الحرب، ولا إلى مقدرة الجيش نفسه..

وهناك فى أرض المعركة، وضح تماما أن الإنجليز قد دبروا تدبيرهم لخيانتنا.. لخيانة هذا الجيش فى معركته الأولى المقدسة. فهؤلاء الإنجليز الذين وعدوا حكومة النقراشى بمساعدة جيش مصر بالسلاح والعناد والذخائر. وقد أمسكوا أيديهم مرة واحدة.. ولم يعطوا الجيش شيئا.

وهناك فى أرض المعركة، وضح تماما أن الإنجليز قد دبروا تدبيرهم خيانة جيش مصر بهذه الوسيلة فقط ولكن بالتدخل المباشر لدى بعض الدول العربية، لكى تحيك بنفسها الفخاخ لجيش مصر..

وركن فاروق!

وهناك فى أرض المعركة، شاهد الضباط والجنـود المصـريون مهزلـة المهـازل ومأسـاة المآسى يوم ذهبوا إلى غزة - ولم يكن فى غزة حرب ولا قتال - وإذا بـالأوامر تـأتى من قيادتهم بالقاهرة، بإنشاء استراحة لفاروق هناك تسمى "ركن فاروق بغزة"..

هكذا فجعوا فى الحرب من أوائلها..

أما أواخرها فكانت فترة تأمل ويقين..

النتائج.. توحى:

وأخرها كانت الفترة التى أدرك فيها ضابط وكل جندى فى جيش مصر.. أن هذه القيادة يجب أن تتغير.. قيادة الجيش وقيادة البلاد...

أما قيادة الجيش، القيـادة الـتى لم يكن لهـا وجـود أبـدا.. فلـو وجـدت أو وجـد نـوع من القيادة الحقيقة.. لما أمكن أن يهزم جيش مصر أبدا رغم النقص البالغ الذى كان يعانيـه في سلاحه وعتاده..

وليس هذا مجال مناقشة هذه النتيجة فكل ذلك متروك لقصة حرب فلسطين الكاملة.

ولكن النتيجة التى عاد بها الجيش على أى حال.. هى المرارة والسخط والتصـميم على تغيير هذه القيادات جميعا.. تغيير الأوضاع القائمة فى البلاد من أساساتها.

قاعدة للعمل:

ولعل القارئ لم ينس أن هذه الحـرب قـد انتهت فى عهـد عبـد الهـادى المعـروف بعهد الإرهاب.

وفى هذا العهـد، عـادت القـوات المصـرية من فلسـطين.. وقـررت المجموعـة أن تبـدأ العمل فورا، فقد كانت هذه هى اللحظات المناسـبة فلا لتكـون نقطـة البـدء فى العمـل السرى الكامل الذى يؤدى إلى تغيير الأوضاع فى البلاد.

وكان لابد للمجموعة أن تتخذ لها قاعدة تعمل منها، أى أن تعمـل على أن يسـتتب بعض رجالها فى مكان معين، وأن تحرص كل الحرص على بقـاء هـذه القاعـدة حـتى لا تعمل فيها يد التشتيت.

القبض على جمال:

وبينما كانت المجموعة تفكر فى هذا الارتكاز فوجئت المجموعة بزيارة غير مرغوب فيها من الفريق عثمان المهدى "باشا" رئيس هيئة أركان حرب الجيش حينئذ، لمنزل جمال عبد الناصر.

ولم يكن الفريق عثمان المهدى وحده فى هذه الزيارة، فقد كان معه عدد من ضباط البوليس الحربى.

ولم يكن هدف الزيارة هدفا عاديا.. وإنما كان الهدف هو القبض على جمال عبد الناصر، وتفتيش بيته.

وقام رجال البوليس الحربى بالتفتيش، فلم يجدوا فى البيت سوى بضع طلقات.. فقد كان جمال عبد الناصر حريصا دائما.

أما جمال، فقد اصطحبه عثمان المهدى، إلى "دولة" إبراهيم عبد الهادى باشا رئيس مجلس الوزراء والحاكم العسكرى العام والمسئول الكبر فى عهد الإرهاب.

وهناك فى مكتب رئيس الوزراء والحاكم العسكرى العام، جرت مناقشة طويلة بين جمال وبين عبد الهادى... فقد وجه عبد الهادى لجمال تهمة التعاون مع الإخوان المسلمين مستدلا على ذلك بأنه - أى جمال - قد قام بتدريب بعض شبان الإخوان على السلاح، أثناء الحرب وقبيل قيامها.

أما جمال... جمال الثائر الذى كان عائدا من الفالوجا.. فلم يكن لديه من الصبر ما يمكنه من عدم الاحتداد فى المناقشة على الحاكم العسكرى العام.

ولعلها كانت مفيدة.. فقد تريث إبراهيم عبد الهادى فى إصدار الأمر باعتقاله.. وأرسل رسله يأتونه بأخبار جمال.. ثم أفرج عنه فورا.. لأنه أدرك أن لهذا الضابط شخصية معينة بين ضباط الجيش، وأن له كيانا خاصا فى صفوفهم، فخشى أن يعتقله، فتكون القشة التي تقصم ظهره، وظهر العهد من بعده.

القاعدة فى القاهرة:

وانتهينا من هذه المشكلة.. وبدأنا فى التكوين.. تكوين القاعدة أولا..

وكانت القاعدة مكونة - كما قررنا - من جمال وعبد الحكيم وزكريا محيى الذين وصلاح سالم.

واستطاع كل منهم أن يجد له مكانا شبه ثابت فى القاهرة فجمال، وكان برتبة صاغ فى ذلك الوقت قد عين فى مدرسة الشئون الإدارية بالجيش.

وعبد الحكيم عين فى مدرسة المشاة.

وزكريا عين فى الكلية الحربية.

وصلاح أستقر فى وحدته بالقاهرة.

وفى الأيام التى تلت ذلك، فرغنا من وضع أساس التنظيم كله.

الأهداف والنظام:

فأسمينا أنفسنا بالضباط الأحرار.. الأحرار فى كفاحهم فى سبيل الحياة، والأحرار في سعيهم إلى تحرير وطنهم من الاستعمار والاستقلال والفساد، وكذلك الأحرار من الانتماء إلى أى هيئة أو جمعية أو تشكيل معروف.

ووضعنا أهداف التشكيل وطبعناها.. وتم توزيعها فعلا على الضباط الأساسين في التشكيل.. وظهر اسم "الضباط الأحرار" لأول مرة...

وكانت أهم الأهداف التى تضمنها هذا المنشور الأول:

- القضاء على الاستعمار الأجنبى وأعوانه من الخونة المصرين.
- تكوين جيش وطنى قوى.
- إيجاد حكم نيابى سليم.

وفى نفس الوقت، وضع النظام الأساسى للتشكيل على الوجه التالى:

- السرية المطلقة فى كل شىء.
- تخصيص كل ضابط من ضباط مجلس قيادة التشكيل لسلاح من أسلحة الجيش يكون هو المسئول عن تنظيمات التشكيل فيه.
- الأخذ بنظام الخلايا، ووجوب عقد اجتماعات الخلايا أسبوعيا وبانتظام.
- تكليف كل ضابط من ضباط مجلس القيادة بتقديم تقرير أسبوعى إلى المجلس يوضح فيه مدى تقدم التشكيل فى داخل سلاحه وعدد المنضمين وعدد من رئى استبعاده.
- وجوب ضم أعضاء جدد فى كل أسبوع.
- إصدار المنشورات بصفة منتظمة أسبوعيا.

وعلى هذا الوجه بدأ التشكيل مرحلته الحاسمة، وخطته المدروسة.. على أساس نظام معين، وأهداف واضحة وخلايا.. وقيادة كاملة.

الفصل التاسع

نجحنا لأننا عرفنا كيف نسير[1]

كنا قد انتهينا من إقرار التنظيم العام للتشكيل السرى داخـل الجيش، واخترنـا لـه اسـم "الضباط الأحرار" وكنا قد انتهينا من تحديد أهداف هذه التشكيل السرى، عرف بصــورة كاملة.. ووضعنا قواعد العمل..

ومنذ تلك اللحظة، لم يهدأ لنا بال، ولا للحكومات، ولا للإنجليز ولا للقصر..

ففى أيام قليلة، كانت منشوراتنا قد أصبحت تصـدر بانتظـام.. وكـانت هـذه المنشـورات تزعج السلطات الداخلية والخارجية إزعاجا شديدا.. لان صدورها بتلك الصورة المنظمة، كان يعطى فكرة لهذه السلطات بأن التشكيل الذى يصدرها، ليس من ذلك الـذى اعتـاد الجيش أن يفاجأ بظهوره بين فترة واخرى، ليصدر منشـورا أو منشـورين، ثم يختفى، أو يكتشف أمره.

[1] نشر في العدد الرابع والعشرين بعد المائة من "الجمهورية" الصادر في يوم الجمعة 9 أبريل 1954 - 6 شعبان 1373هـ

وكان شغل السلطات الشاغل فى تلك الأيام هـو أنم يضـعوا أيـديهم على أى حلقـة من حلقات هذا التشكيل، أو يمسكوا بـأى خيـط يـؤدى إلى اكتشـاف أمـره.. ولكننـا كنـا من جانبنا فى منتهى اليقظة.. فلم نمكن آيه سلطة من السـلطات من العثـور على شـىء.. لم نترك ثغرة واحدة تستطيع هذه السلطات مجتمعة أو متفرقة أن تنفذ منها إلينا.

وكانت هذه اليقظة، إلى جانب التجارب الكثيرة التى مارسـناها منـذ الشـباب الأول، من أيام منقباد، هى السبب الرئيسى فى نجاح خطتنا نجاحا كـاملا.. كمـا أن ارتبـاط أهـدافنا بعواطف الشعب واتجاهاته، كان من أكبر العوامـل المسـاعدة الـتى مكنت لنـا من هـذا النجاح..

لقد نجحنا لأننا عرفنا كيف نسير.. ولأننـا سـرنا فى اتجـاه الشـعب.. ولأننـا اسـتفدنا من تجربتنا الطويلة السابقة..

جواسيس!

وكنا فى بدء أيامنا كتشكيل سرى، عندما أتصل مصـطفى كامـل صـدقى جمـال وحـاول التفاهم معه على أن تنضـم مجموعتـه القديمـة - أى مجموعـة مصـطفى صـدقى - إلى تشكيلنا، توحيدا للجهود..

وكان معنى هذا أن تشكيلنا كله قد بات فى خطر.. فإن معلوماتنا عن مصطفى صــدقى وجماعته كانت تدل دلالة كبيرة على أنهم يعملون حساب القصر.

وكان لابد أن يقتنع صدقى بأنه ليس هناك أى تشـكيل يضـمنا، أن جمـال عبـد الناصـر لا يعمل شيئا على الإطلاق..

ولم يكن هـذا صـعبا على جمـال.. فقـد اسـتطاع فى لحظـات قليلـة أن منـع مصـطفى صدقى بأنه قد أصبح بعيدا عن كل نشاط، أو كل اتصال نشاط.. وأنه أكثر من هذا صمم منذ عاد من فلسطين على أن... يأكل عيش...وبس!

واقتنع مصطفى صدقى بهذا الكلام.. ومضى..

وفى الحقيقة كان مصطفى منجما جيدا للمعلومات.. وكنا نستغله كيفما نشـاء.. دون أن يشعر.. فقد كان مولعا بالتباهى والتفاخر يجب أن ينسـب إلى نفسـه أشـياء كثـيرة ممـا حدث، يحيطها بما يعلمه جيدا من ملابسات.. كنا نستفيد من ذكرها فائدة لا تقدر..

الخلايا...

وفى ذلك الوقت بدأت الخلايا تعمل...

كانت خلايا خماسية.. تبدأ كل خلية بأحد ضباط القيادة الذى لون من نفسه نواة لخليته.. ثم تتسلسل الخلايا على هذا الوجه، كل ضوء من أعضاء الخلية الأولى يكون هو نفسه نواة لخلية جديدة لا يعرف أعضاؤها أحدا غيره من أعضاء الخلية الأولى..

وللحقيقة نذكر أننا لم نتعد فى تسلسلنا هذه الطبقة الثانية من طبقات الخلايا.. وأن هذا كان فى حد ذاته سببا من أسباب نجاح التشكيل وضبط جميع أموره ضبطا كاملا..

وكانت واجبات أعضاء الخلايا هى:

1- ضم الموثوق بهم إلى التشكيل.

2- أثاره الموضوعات العامة فى وسط الضباط، لخلق مجموعة كبيرة من العاطفين على أى حركة يمكن أن يقوم بها التشكيل فى يوم من الأيام..

وبالطبع كان أعضاء الخلايا يدفعون اشتراكات شهرية، وكانت هذه الاشتراكات توضع فى صندوق توفير باسم البكباشى أحمد حمدى عبيد.. وكأنها مجرد نقود يدخرها من دخله الخاص..

وكنا نحاول الاستفادة من كل شىء.. من كل الظروف والعلاقات الشخصية والأحداث التى تقع: وأحيانا كانت تسنح لنا فرص طيبة، لا تخلو من طرافة، ولكننا كنا دائما نحسن استغلالها.. كما كانت الظروف نفسها تساعدنا كثيرا.. وعندما كانت الظروف تلعب دورها إلى جانبنا كنا نشعر براحة نفسية كبيرة وأمل ساطع يشع فى قلوبنا.. فقد كانت الدلالة الوحيدة لمساعدة الظروف لنا، هى أننا مرموقون من الله عز وجل... بعنايته.

القصر وحيدر!

وكان أخوف ما نخافه جهتان:

القصر ومخابراته الخاصة..

وقيادة الجيش...

وكنا لذلك قد رتبنا أمورنا جيدا، على تطويق الجهتين كلتيهما.. وبينما كان صلاح سالم يقوم بدوره فى كسب ثقة حيدر "باشا" لجلب المعلومات منه، واعطائه المعلومات المضللة وتغطية نشاط الضباط الأحرار، كلما تعرض لخطر الانكشاف... كنت أنا أقوم بهذا العمل نفسه بالنسبة للقصر. وعن طريق الدكتور يوسف رشاد...

وبهذه الطريقة كنا نضمن دائما، أن نعرف أولا كل ما يمكن أن يكون قد وصل إلى علم إحدى هاتين الجهتين من معلومات - صادقة أو كاذبة عن نشاطها وأن نعرف أيضا أولا بأول كل ما يمكن أن تفكر فيه إحدى هاتين الجهتين من إجراءات خاصة بتا، وأن نضمن أيضا تغطية الموقف فى كل حالة من الحالات...

وإلى جانب هذا، كانت الفرص الطريفة تسنح لنا وكانت الظروف تساعدنا فى كثـير من الأوقات...

هو الذى يطبع!

حدث مثلا، أن قبض على الضابط حسـن علام أثنـاء قيامـة بكتابـة منشـور ضد الأوضـاع التى كانت قائمة حينذاك..

ولا أحد يدرى أن كان هذا الضابط قد نزى فعلا طبع هذا المنشور وتوزيعـه.. فلعلـه كـان ينفس عن نفسه مجرد تنفيس بهذه الوسيلة..

ولكن الحادث وقع على كل حال.. فقـد قبض عليـه متلبسـا بكتابـة كلام شـبيه بمـا كـان الضباط الأحرار يكتبونه فى منشوراتهم.. ورفـع المـر إلى الفريـق حيـدر باشـا.. وإذا بـه يتهلل ويشرق ويشعر أنه قد وضع يده على التشكيل الخطير المزعج الذى يسمى نفسه بالضباط الأحرار..

وكانت فرصة لنا.. فآنا أتذكراننا لم ندع وسيلة فى تلك الأيام ألا استغثنا بها لإثبـات هـذه "التهمة" عليه.. وقد ثبتت فعلا، واتجهت أنظار القصر والقيـادة وجهـة أخـرى تمامـا، فى كل أبحاثهم الخاصة بالكشف عن حقيقة الضباط الأحرار..

ولعلنا أن تكون قد تألمنا كثيرا لهذا الحادث، ولموقفنا منه.. ولكن مصلحة الـوطن الـتي كنا نعمل بصدق من أجلها كانت تقتضى منا أن ننتهز هذه الفرصة، وألا نـدعها تفلت من أيدينا أبدا...

المعركة.. لم تنته:

ولم تكن هـذه هى الفرصـة الوحيـدة الطريفـة، أو الفرصـة الوحيـدة الـتى عرفنـا كيف نستغلها استغلالا كاملا مفيدا..

فقد حدثت أحداث أخرى أثناء معركة القتال، كانت كفيلة بإضـعافنا والكشـف عن سـرنا الكبير..

وقد كانت معركة القنـال من وجهـة نظرنـا، معركـة مجيـدة تبـدى فيهـا شـعور الشـعب واستعداده الكبير للتضحية بكل شىء..

وصحيح أنى لست أنوى أن اذكر شيئا من التفاصيل الخاصـة بـدور الضـباط الأحـرار فى هذه المعركة، فأن معركة القنال لم تتم فصولا.. ودور الضباط فيها أن كـان قـد بـدأ في حدود الظروف التى سنحت لهم خلالها.. فهو دور قادم لا شك فيه، ولا نهاية له الا يخرج آخر جندى من شىء ارض القنال...

لن ننشر اليوم إذن شيئا من هذه التفاصيل ولكن هناك مع ذلك ما يمكن نشـره.. هنـاك قصتان.. لعل إحداهما قد كسبت شهرة معينـة إذ جـاء ذكرهـا فى محكمـة الثـورة أثنـاء محاكمة فؤاد سراج الدين، عندما ذكر "المتهم" قصة اللغم البحرى..

أمـا القصـة الثانيـة.. أو هى الأولى باعتبـار تـاريخ الحـوادث فكـانت قصـة على هـامش الأحداث، ولكنها كانت ذات خطر كبير، لولا أننا أحسنا استغلالها..

مجاهد فى سينا!

ونبدأ بهذه القصة.. وقد وقعت الأيام الأولى للمعركة.. وكنا إذ ذاك فى سينا.. كنت هناك أنا وعبد الحكيم وصلاح.. وكنا نشعر بالضيق الشديد الذى يملأ نفوسنا جميع الضباط فى سينا، فقد كان الجميع هنا يشعرون بأن عليهم واجبـا يجب أن يـؤدوه فى هـذه المعركـة وأنه لا حق لأحد فى منعهم عن القيام به..

وتكاثر الضـيق، وغلت الصـدور، وأصـبحت القـوات هنـاك فى شـبه هيـاج مسـتمر، ينـذر بالخطر..

ووصلت التقارير إلى قيادة الجيش عن هذه الحالة المسـيطرة على القـوات فى سـيناء فأرسلت القيادة ضابطا كبيرا هو اللواء توفيق مجاهد، وكلفته بتهدئة الحالة هناك...

وجاء اللواء يهدئنا!

جاء، فجعل يخطب فينا ويناقشنا، ويحاول أشـعارنا بـأن دور الجيش لم يـأت بعـد، لا لآن الجيش يجب أن يستعد.. ولكن لأن عدونا الحقيقى فى نظر اللواء مجاهد، ومن أرسلوه هو اليهود.. وأن علينا أن نفرغ من اليهود أولا ثم بعد ذلك نفكر فى الإنجليز..

وأطال اللواء مجاهد كثيرا فى هـذا المعـنى، حـتى ضـاقت الصـدور.. وإذا بصـلاح سـالم يصرخ فى وجهه قائلا:

إن عدونا الأساسى هو الإنجليز، هو هذا الاستعمار القائم فى بلادنا.. وأننا يجب علينـا أن نطهر أرض الوطن من هذا الاستعمار أولا، وقبل كل شىء..

ويبدو أن صرخة صـلاح قـد لاقت تأييـدا من الضـباط.. وإذا بـاللواء مجاهـد يبـدى ضـيقة الشديد بهذه الصحية، ثم لا يفتأ أن يبدى رأيه علنا فى صـلاح.. وكـان هـذا الـرأى هـو أن صلاح سالم.. رجل خطر.

وأحسسنا بالخطر يحدق بنا.. فقد أيقنا أن اللواء مجاهد لابد أن يكتب تقريرا عند عودتـه إلى القاهرة، يتهم فيه صلاح سالم بالخطورة.. ومن يدرى كيف يمكن أن يؤدى هـذا إلى الإيقاع بالتشكيل كله...

وقررنا أن نلغم الأرض للواء مجاهد قبل أن يعود إلى القاهرة، ويقدم تقريره المنتظر..

وفى نفس الليلة اجتمعنا، عبد الحكيم عامر وصلاح وأنا.. فى منزلى الصغير في رفح.. ثم رأينا أن نكتب خطابا إلى الفريق حيدر باشا، نضمنه شكايتنا من أن اللواء مجاهد قد أثار الضباط أثاره شديدة فى زيارته لهم، وأنه استفزهم استفزازا يمكن أن يؤدى إلى ما يجب اتقاؤه من شرور.. خصوصا وأن لهذا اللواء تاريخا أثناء حرب فلسطين.. وأن هذا التاريخ معروف لسائر الضباط..

وكتبنا الخطاب فعلا، وأرسلناه إلى حيدر..

وفى اليوم التالى هبط اللواء مجاهد إلى القاهرة.. ولكنه لم يكد يحط قدميه فيما حتى كان حيدر "باشا" قد استدعاه إليه وبدأ التحقيق معه فيما ألصقناه به من اتهامات!

وانتهى التحقيق بقرار نقله إلى المنطقة الجنوبية..

وكان اللواء مجاهد إذ ذاك نائبا لرئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى، كان يتمتع بهذا المنصب الخطير، وهذه الإدارة الضخمة.. وإذا هو ينتقل إلى المنطقة الجنوبية.. حيث لا جنود ولا ضباط.. أى حيث يصبح قائد نفسه.. فقط.. لا غير!!

التيتل أو اللغم:

والقصة الثانية من قصص معركة القنال، هى قصة اللغم البحرى التى أشار إليها سراج الدين أثناء محاكمته، ووعدت الجمهورية إذ ذاك بنشرها كاملة..

وقد وقعت هذه القصة في 25 ديسمبر 1951 أى قبل حريق القاهرة بشهر كامل على التحديد..

وأذكر هذا التاريخ جيدا.. لأنه كان يوم ميلادى.. أو عيد ميلادى كما يسمى الناس تاريخ مولدهم..

وكنت ثلاثتنا فى رفح... عبد الحكيم، وصلاح، وأنا.. وكان معنا هناك سبعة وعشرون ضابطا..

والضباط فى مثل هذه الوحدات النائية، ينتهزون فرصة المرح انتهازا.. وكان "عيد ميلادى" إحدى هذه الفرص.. ولذلك قرر الضباط أن يحتفلوا بهذه "المناسبة" على حسابى، في سينما المدينة..

وذهبنا إلى السينما.. وبقى حكيم وصلاح فى الميس وحدهما... لماذا..؟

لا أدرى لعل ذلك لأننا لم نرد أن يخلو الميس من ضباط.. ولعل الأمر أكبر من هذا كثيرا.. فقد كان لابد فعلا من أن يوجد ضباط فى الميس، وأن يكون هؤلاء الضباط هم عبد الحكيم وصلاح بالذات فقد عودنا الله طيلة أيام استعداداتنا لهذه الثورة، أن يكون معنا فى كل شىء..

ودق جرس التيلفون فى الميس، فقام إليه عبد الحكيم.. وكـان المتكلم هـو جمـال عبـد الناصر.. من القاهرة..

وقال جمـال لعبـد الحكيم جملـة واحـدة.. "التيتـل جـاى النهـاردة فى الطيـارة.. اسـتعد لاستلامه"..

وقطع جمال الخط.. وانتهت المكالمة..

وكانت كلمة "التيتل" من كلمات قاموسنا "الحركى".. وكان معناها "اللغم".

وكنا قد اتفقنا من قبل على إعداد لغم بحرى كبير لنضعه فى القنـال قبـل مـرور بـاخرة إنجليزية كبيرة.. فننسقها بذلك..

وكان هدفنا من هذه "العملية" هو تعطيل القنال، وتقديم الدليل الكافى للعالم، على أن الإنجليز لا يستطيعون حماية القنال، ما دام المصريون لا يمكنونهم من ذلك.

وجلس عبد الحكيم وصلاح ينتظـران "التيتـل".. وكانـا بـالطبع يعلمـان شـيئا عن حقيقـة حجمه..

وبعد قليل.. اتصل ضابط من العريش بعبد الحكيم.. وقال له بلغتنا "الحركيـة" اسـتلمت "التيتل" ولكنى لا أعرف كيف أوصله إلى القنطرة، لان إمكانياتى أقل من ذلك كثيرا..

وأجابه عبد الحكيم بقوله:

- أرسله إلى فى رفح.. وسأتصرف أنا فى الأمر...

وعاد عبد الحكيم وصلاح ينتظران "التيتل" مـرة أخـرى.. وقـد علمـا أنـه سيصـل إليهمـا ساعيا على أرض لا هابطا من السماء!.

وبعد قليل، وصل "التيتل"

وصل، فى حراسة ضابط كيماوى، كان هو الـذى قـام بعـداده، وكـان أيضـا هـو المكلـف بتركيبه فى القنال...

وكانت الساعة إذ ذاك، الثامنة مساء..

وكان هذا "التيتل" عبارة عن أربعة صناديق كبيرة الحجم ثقيلة الوزن جداً..

وتعاون عبد الحكيم وصلاح والضابط الكيماوى على إنزال الصناديق.. وكـان جليـا أنهـا لا يمكن أن تدخل من الأبواب، ولا أن تخفى فى إحدى الغرف..

وكان الحل الوحيد، هو أن توضع هذه الصناديق إلى جوار الباب..

ثم أن يسرع عبد الحكيم وصلاح إلى السينما ليخرجانى منها، حتى أجلب لهم بعض جنود سلاح الإشارة، ليساعدوا فى عملية نقل هذا "التيتل".. غير المنتظر..

وخرجت من السينما، وتوجهت فورا إلى سلاح الإشارة فأحضرت بعض جنودى المدربين بينما ذهبا هما إلى سلاح خدمة الجيش فأحضرا ضابطين من الأحرار، وعربة لورى كبيرة..

وكانت الوقت الذى أمامنا يحسب بالثوانى لا بالدقائق.. فقد أوشكت السينما أن تنتهى.. وبانتهائها سيحضر الضباط إلى الميس.. وينكشف أمر "التيتل" الذى كنا نحرص أشد الحرص على إخفائه..

وفى هذه الثوانى التى كانت قد بقيت لنا، استطعنا أن نضع التيتل فى اللورى، وأن نجهز اللورى بالبنزين الذى يكفيه لقطع 350 كيلو مترا.. إلى القنطرة.. وأن نعد بعض قطع الساندوتش، للضباط الكيماوى ومرافقيه..

وسار اللورى على بركة الله..

واتصلنا نحن بزملائنا من الضباط الأحرار فى العريش لكى يدعوه يمر.. ثم بزملائنا فى القنطرة، لكى يتسلموه..

ولم نكد نفرغ من كل هذا، حتى كانت مظاهرة قوامها سبعة وعشرون ضابطا تقترب فى مرح من الميس..

كانت السينما قد انتهت.. وكان الضباط عائدين..

ولعل قصة "التيتل" هى إحدى القصص التى لم تنته من قصص معركة القنال...

فالذى نستطيع اليوم أن نضيفه إلى ما ذكرت هو أن القنطرة قد استلمت "التيتل" وأن الضابط الكيماوى قد ركبه فعلا.. ثم قامت فى وجهنا عقبات لم تسمح لنا بتنفيذ خطتنا.. فقررنا دفئه... دفنه فى مكان أمين.. حتى يحين الحين..

الفصل العاشر

حددنا موعد الحركة سنة 1950[1]

أن كنا لا نريد أن نكشف اليوم أستار عن دور الأحرار كله، والخط الذي رسموه لأنفسهم وكفاحهم أبان معركة القنال.. فلأننا - كما ذكرت فى الصفحة الماضية من هذه الصفحات - لا نعتبر معركة القنال معركة منتهية، بل نعتبر ما مضى منها مجرد تمهيد يسبق الفصل الأول من فصولها التى يجب - فى تقديرنا - أن تكون رهيبة تعلم الغاصب كيف يحسب ألف حساب لكفاح الشعوب..

[1] نشر في العدد السادس والثلاثين بعد المائة من "الجمهورية" الصادر في يوم الأربعاء 21 أبريل 1954 - 18 شعبان 1373هـ

ولكن دور الأحرار الذى بدأ إذ ذاك كان قد بدأ ليستمر لا ليتوقف وكنا نمر فى تلك الأثناء بفترة كمـل فيهـا اسـتعدادنا، وأصـبحنا قـادرين فعلا على تحـرك مكن وحـداتنا، لنضـرب الضربة التى تطهر البلاد من راس الفساد فيها.. الملك، والإقطاع. وما يتفرغ عنهمـا من أحزاب وسياسات قادتها طويلا. إلى الخراب..

فالسنوات التى مرت بنا بعد اكتمال تنظيميا، وهى سنوات 1950، 1951، 1952.. قد كانت سنوات الاستعداد والدراسة الكاملة للموقف، وتحديد موعد البدء.. وفى نهاية هذه السنوات أو قرب نهايتها، وقعت معركة القنال، وأدركنا أن دورنا الكبير قد حان وقته..

إنها فترة مترابطة إذن.. سنمر اليوم مرورا ببعض أحداثها، لنعود إلى ذلك مرة أخرى.

ففى عام 1950 كنا قد اكتملتا من حيث التنظيم الداخلى.. للخلايا، والمخـابرات، وجمـع الاشتراكات وعقد الاجتماعات وضم الضباط.

كان كل شئ يجرى على ما يرام.. وكنا نفكر دائما فى الزمن الذى يجب أن نقضـيه فى الاستعداد والتهيؤ للمعركة.. وكنا - ككل من يقدم على خطوة كبيرة جريئـة - نقـدر قـوة العدو بحدها الأقصى، ونقدر قوتنا بحدها الأدنى، ونعتقد أننـا لن نكـون على يقين من أن الحد الأدنى لقوتنا، قد صبح أقوى فى كل شئ مما يمون أن يكـون عليـه الحـد الأقصـى لقوة العدو...

والعدو، كان بالطبع، فاروق وجهازه الرهيب. مع وضع الاستعمار وما يمكن أن تقـدم من مساعدة فى الحساب..

وكنا فى بدء عام 1950 قد قدرنا للاستعداد خمس سنوات، أى أننا حددنا موعدا للحركة عام 1945 أو 1955.

ولكن الظروف السياسية التى لابسـت الأشـهر الأولى من عهـد الوفـد، قـد جعلتنـا نعيد التفكير مرة أخرى، ونحدد للحركة موعدا بعد ثلاثة أعوام بدلا من خمسة أعوام.

فقد كانت سياسة المهادنة التى فاجأ بها الوفد البلاد فى أول شهور حكمه تستدعى هذا التقريب لموعد الحركة.

إذ كانت هذه السياسـة وحـدها، هى النـذير الأكـبر بوجـوب انفجـار الشـعب وقـرب هـذا الانفجار..

فقبل عهد الوفد الأخير.. كان الشعب يرى أمله فى حـزب الوفـد رغم مسـاوئه.. وحـتى نحن كنا نعتقد أن حرب الوفد رغم كـل هـذه المسـاوئ المعروفـة للجميـع، هـو الحـزب الذى نستطيع أن نركن إليه يوم تقوم بضربتنا الكبيرة، لنسلمه زمـام البلاد. على أسـس واضحة من التطهير والعمل الخاص للوطن.

كنا نعتقد هذا، بل لقد خطونا فى هذا السبيل خطوات سيأتى تفصيلها..

وكنا رغم كل هـذه، مضـطرين إلى أن نحسـب حسـابا للحقيقـة الكـبرى وهى أن حـزب الوفد إذ يجئ بهـذه الأغلبيـة السـاحقة فى عـام 1950 ثم يهـادن القصـر تلـك المهادنـة

المكشوفة المزرية. قد صدم الشعب فى أمله الوحيد الباقى، ولم يجعل هناك مجالا يستطيع الشعب أن يتنفس فيه، إلا أن ينفجر فيطيح بكل شئ.

وكنا نقدر هذا الانفجار الشعبى، وعواقبه ونريد أن نكون ميزانا حساسا لانفعالات الشعب، حتى لا يأتى انفجاره دون توقع منا، فيتعرض لملحمة رهيبة بينه وبين القوة الغاشمة قد لا تكون سليمة العواقب.

وفى الوقت نفسه كنا نخشى أن يدب الملل فى نفوس ضباطنا، وأن يعطى التراخى فرصة للقضاء على قوتنا، بعوامل التشتيت المقصورة أو غير المقصورة على حد سواء..

لذلك قربنا الموعد الذى حددناه للحركة، وجعلناه عام 1952 أو 1953 بدلا من 1954 أو 1954.

انتخاب جمال:

وكنا فى ذلك الوقت فى القاهرة، نحن جميعا وكنت أنا أعيش كالحبيس فى دائرة ضيقة، لم يسمح لى الإخوان بالتحرك فى أى دائرة أوسع منها بحال من الأحوال، فقد كان تاريخى السابق، تاريخى الذى لم يمر عليه أكثر من عامين منذ خرجت من السجن فى آخر مرة، يجعل أى حركة أقوم بها مثار وشكوك.

ومر عام 1950، وأقبل عام 1951.. وفى هذا العام نقل بعضنا إلى سينا.. نقل صلاح وعبد الحكيم وأنا.. إلى سينا، ونقل جمال سالم إلى العريش...

أما باقى مجموعتنا.. فقد ظلوا فى القاهرة.

وكان هذا النقل.. وتشتيتنا فى ثلاث جهات مدعاة إلى اتخاذ أجراء لابد منه، لم نكن قد فكرنا فيه قبل ذلك العام..

كان لابد أن يكون لنا رئيس مسئول، يقوم بتنسيق أعمالنا وإصدار الأوامر والتصرف الوقتى فيما يجد من مشكلات..

وعقدنا اجتماعا لبحث الأمر، ثم انتخبنا بالإجماع رئيسا لنا.. جمال عبد الناصر..

وبدأ بذلك تقليد جديد لهذه المجموعة، أن تحدد موعدا للاجتماع فى كل عام لانتخاب الرئيس...

وفعلا، تم ذلك أيضا فى يناير 1952.. إذ اجتمعنا فى منزل الصاغ كمال الدين حسين وانتخبنا جمال رئيسا لمدة سنة أخرى من ذلك التاريخ..

واختيار الرئيس:

على أن هذا الاجتماع، قد تضمن قرارا آخر اتخذناه، واتفقنا على إبقائه سرا بيننا.

وكان هذا القرار هو اختيار اللواء أركان الحرب محمد نجيب لكى يكون قائدا لحركتنا فى يوم تنفيذها.

وكان سبب اتخاذ هذا القرار.. هو أننا لابد أن نضع فى حسابنا شخص القائد الذى نتقدم خلفه إلى الشعب، لكى نستطيع أن نمهد لشخصيته التمهيد الكافى فى صفوف الجيش.

وكان الرئيس نجيب قد عرف لمجموعتنا عن طريق عبد الحكيم عامر، إذ كان عبد الحكيم أركان حربه أيام معركة فلسطين. كما كان عبد الحكيم قد قام بتعريف اللواء نجيب بالبكباشى جمال عبد الناصر عقب عودة جمال من الفالوجة..

ورغم اتخاذنا هذا القرار، فلم نشأ أن نعلنه حتى للرئيس نجيب نفسه.. لأن الوقت لم يكن قد حان بعد لاتخاذ هذه الخطوة.

وبعد أسبوع عقدنا اجتماعا آخر.. فقد كنا هنا نشعر فى ذلك الوقت أن موعد الحركة قد يكون أقرب بكثير مما نتصور، ومما نقدر..

تقدير الموقف:

وفى هذا الاجتماع طلب جمال سالم أن نقرر البدء فى أتحاذ موقف الاستعداد الكامل للعمل فى أى وقت.. وأن تكون المهلة التى تعطى لضباطنا قبل البدء سهرا على أكثر تقدير.

ووافق المجلس على ذلك..

وفى نفس الاجتماع كلف المجلس عبد الحكيم عامر، بعمل "تقرير موقف" للحالة من جميع جوانبها، الشعبية والسياسية العسكرية وان يقوم بعرض التقرير على المجلس في أسرع وقت.

كنا جميعا نشعر بوطأة الأحداث وبتحكمها الواضح في تحديد موعد حركتنا.. فقد كان الشعب يغلى, وكان الجيش يغلى.. وكان لابد من عمل.

وانتهى الاجتماع بعد يومين اثنين, لكى ندرس التقرير الذى أعده عبد الحكيم عامر.

وفى هذا الاجتماع.. استطعنا أن نطمئن تمامًا.. وانتهينا إلى أننا قادرون على القيام بالحركة في أول فرصة ممكنة.. وإن إمكانياتها تضمن لنا النجاح.

ولم يكن هذا التقرير نتيجة لدراسة يومين من عبد الحكيم.. فقد كان مسبوقا بجولة قام بها جمال وعبد الحكيم فى داخل الجيش للقيام بعملية حصر كاملة لأول مرة، ومعرفة حقيقة القوة التى نستطيع الاعتماد عليها..

وبالطبع كان هذا الاجتماع، قبل حريق القاهرة.. ولم يكن أحد يتوقع وقوع ذلك الحادث المشئوم.

الاتصال بالوفد:

ولنترك الآن التفاصيل العسكرية، لنلم بما قمنا به إلى جانب ذلك من محاولة لاستغلال الموقف السياسى، والتهيئة لأوضاع ما بعد الثورة من الناحية السياسية، والناحية الشعبية.

الوفد...

الوفد الذى كان يحكم.. والذى هادن الملك فى أول عهده، ثم اضطرته الظروف واضطرته نفس القاعدة الشعبية التى لم يكن يستطيع أن يغفل حسابها إلى إلغاء المعاهدة، وبدء الكفاح المسلح ضد قوات الاستعمار فى القنال..

هذا الحزب، كان أملا من آمالنا رغم كل شئ وكنا نريد أن نقويه فى موقفه، وأن نجعل منه الشرارة التى تطلق قذيفتنا.

وقررنا أن نتصل بالوفد، وأن نترك أمر تدبير الاتصال به إلى جمال عبد الناصر..

ولن أسبق هنا الحوادث، ولكنى سأحاول أن أذكر تفاصيلها كما يذكرها الذين شاركوا فيها..

بدأ جمال بدعوة اليوزباشى جمال القاضى. وطلب منه أن يتصل بعمه "عبد اللطيف محمود باشا" الوزير الوفدى إذ ذاك، وللتفاهم معه على أوجه المساعدة التى يجب الوفد أن يحصل عليها من تشكيلنا العسكري فى سبيل إيقاف الملك عند حده، ومنع اعتداءاته على الدستور.

جريمة كبرى:

وكان السر فى اختيار جمال القاضى، هو هذه القرابة الوثيقة بينه وبين عبد اللطيف محمود، فقد كان اتصال أى ضابط بالجيش بأى رجل من رجال الوفد حينئذ، يعتبر فى نظر قادة الجيش، ورجال القصر، جريمة تستوجب الحساب والعقاب..

ولذلك كان علينا أن عليما هذه الاتصالات باللجوء إلى صلات القربى، التى لا تثير الريب والشكوك..

وذهب جمال القاضى إلى عمه.. ثم عاد يقول أن عبد اللطيف محمود صارحه بأنه لا يستطيع أن يتكلم شخصيا فى هذا الأمر، ولكنه مع ذلك على استعداد لتقديم جمال القاضى إلى رجل الوفد المسئول، فؤاد سراج الدين، ليتم التفاهم بينهما مباشرة..

وفكر جمال عبد الناصر فى الأمر واستعرض فى ذاكرته أسماء الضباط الـذين يمكن أن يعتمـد على واحـد منهم فى الاتصـال المباشـر بفـؤاد سـراج الـدين، ثم اسـتقر على أن يكلف القائمقام رشاد مهنا بهذا الاتصال لأنه أيضـا تربطـه أواصـر القـربى بفـؤاد سـراج الدين.

تخاذل...

وتقابل جمال مع رشاد مهنا، وطلب منه أن يـذهب لمقابلـة سـراج الـدين وجس نبضـه، وابلاغه أن الجيش اليوم لم يعد مستعدا للوقوف إلى جوار الملك ضد أى أجـراء شـعبى تتخذه حكومة الوفد، ويؤدى إلى محاولة الملك البطش بها أو إقالتها..

وتحدد موعد المقابلة بعد بعض تأجيلات من جانب رشاد مهنا.

ولكن الموعد المحدد بصـفة نهائيـة أقبـل. وإذا برشـاد يعتـذر عن مقابلـة سـراج الـدين، بدعوى أنه قد جد ما يشغله فى قريته، وأنه مسافر إليها فى اليوم نفسه..

وللتسجيل والتاريخ، أذكر هنا أن هذا الموقف من رشاد مهنـا، قـد أثـر كثـيرا فى نفسـية جمال، فقد كان أول تخاذل يراه من رجل يحاول أن يعتمد عليه فى شئ.

واندفاع..

وبلغ هذا النبأ إلى البكباشى أحمد أنور، مدير البوليس الحـربى الآن فمضـى بنفسـه إلى البكباشى جمال عبد الناصر، وأبدى استعداده للقيام بهذا الاتصال، وقال أنه غير معروف بنشاط معين، وأنه مستعد للتضحية حـتى أن كـانت هنـاك تضـحية، وأن اكتشـاف صـلته بالوفد لن يؤدى - على كل حال - إلى أى عواقب تصيب تشكيل الضباط الأحرار.

وكلفه جمال بهذه المهمة، وأن كان قد أبـدى لـه شـكه فى أن يسـتجيب سـراج الـدين، وإحساسه بأن سراج الدين سيحاول اسـتدراجه دون أن يبـوح لـه بشـئ.. ثم أوصـاه إذا أراد سراج الدين أن يصل معه إلى أى قـرار، بـأن يفهمـه أن لـه أخوانـا وقيـادة لابـد أن يرجع إليها قبل التصريح بأى شئ..

وتمت المقابلة:

وسأترك الآن البكباشى أحمد أنور يروى تفاصيل هذه المقابلة...

قال أحمد أنور...

لبت مقابلة سراج الدين، واتفقنا على موعد المقابلة.. السـاعة الخامسـة والنصـف، في بيته بجاردن سيتى..

وأرسل إلى فؤاد الدين الأستاذ فاروق القاضى المحرر بالجمهورية، وكان إذ ذاك يشغل منصب السكرتير البرلمانى لفؤاد سراج الدين، بصفته وزيرا للمالية، أرسله إلى ليقابلنى فى ميدان الإسماعيلية[1]، ويأخذنى إلى داره.. وكان معى شقيقه جمال القاضى أركان حرب البوليس الحربى الحالى الذى جاء يصحبنى ليعرفنى بشقيقه..

والتقيت بفاروق القاضى، ثم بفاروق يقودنا إلى الباب الخلفى للدار حسب التعليمات التى كان قد تلقاها من فؤاد سراج الدين.

وجلسنا فى أحد الصالونات الكبيرة.. ثم أقبل علينا فؤاد "باشا" وأمر الخدم بإغلاق الأبواب وعدم السماح لاى أحد بالدخول..

وجلس...

كنا أربعة...

فؤاد سراج الدين وجمال القاضى، وفاروق القاضى.. وأنا.. وانتظرت فى تحرز شديد وتحرج، أن ينسحب فاروق، ويدعنا وحدنا فى هذه المقابلة البالغة الخطورة والأهمية... ولكن فؤاد "باشا" لمح منى هذا التحرج والتحرز.. فابتسم لى مشجعا.. قال لى: تكلم.. فليس فاروق غريبا..

وبدأت أتكلم...

باطنا والريح:

قلت له:

- لقد جاوز الملك كل حد، وخصوصا بتعيينه حافظ عفيفى رئيساً لديوانه.. فلماذا لا تتخذون موقفا حازما تجاه هذا التحدى الصريح من الملك..

وابتسم فؤاد سراج الدين... وقال فى بساطة خبيثة..

- أحنا طبعا.. خايفين..

من إيه؟

- من الجيش.. هى ده عايزة تفسير؟

ثم استطرد:

- إحنا ناس "باطنا والريح".. وإحنا صحيح كنا بنحيله لغاية ما نقدر نلغى المعاهدة. إنما دلوقت إذا اتزنقنا.. فمفيش مفر.. حانخرج.. ونقول للشعب كل حاجة.

وثار جمال القاضى، وهو فى طبعه عصبى شديد الانفعال. وقال:

[1] ميدان التحرير بالقاهرة الآن.

- ولماذا لم تفعلوا ذلك وقد عين الملك عبد الفتاح عمرو "باشا" مستشارا له، رغم سحبكم إياه من سفارة لندن..!

وكان سؤالا محرجا.. ولكنه كان أيضا سؤالا فى الصميم.. ومع ذلك.. فقد أبتسم فؤاد سراج الدين.. وقال أيضا في بساطه:

- إحنا رفضنا هذا التعيين رفضاً حاسما.. ولكن الملك أصر، وعينه بنفسه.. ثم وجدنا أن هذه المسألة صغيرة، لا تستحق أن نعطيها من الاهتمام ما ينسينا قضيتنا الكبرى..

الشعب لا يفهم فى الدستور:

وسألته:

- أليست في اعتباراتكم اعتداء على الدستور.

وضحك سراج الدين وهو يقول:

- الدستور.. هي البلد دي بتفهم في المسائل الدستورية..

وألقى برأسه إلى الوراء كمن يتذكر أياما ماضية ثم قال:

- عندما وقعت الأزمة بين الملك وبين النحاس فى الوزارة الماضية بشأن حق إعطاء الألقاب.. كانت هذه أزمة دستورية لا شك فيها، فقد كان رأينا أن الملك لا يمنح ألقابا إلا بناء على طلب حكومته.. ومنع ذلك، مع كونها أزمة دستورية.. فقد استطاع الملك أن "يسرح" شيوخ الأزهر فى البلاد، وأن يوعز إليهم بأن يخطبوا فى المساجد ضد النحاس، ويوقعوا فى روع الشعب أن النحاس يؤيد أن يصبح ملكا يمنح الرتب والنياشين. وللأسف.. فهم الشعب هذا.. واضطررنا إلى التراجع، لأن الشعب لا يفهم كثيراً فى المسائل الدستورية..

والتفت فؤاد سراج الدين إلى فجأة.. ثم سألني مغيرا مجري الحديث:

- فيه ضباط كثير معاكم؟.

قلت:

- نعم.. من جميع الأسلحة..

فعاد يسألني محاولا أن يخفي ما أدركته أنا من سؤاله، وهو أنه كان على علم بصورة ما بحركة الأحرار..

- أظن كان فيه سلاح.. تعبان!!

واجبته على الفور:

- لا.. غير صحيح.. فجميع الأسلحة الآن مستعدة لاتخاذ موقف نراه.. ونحن جئنا هنا لكى نتفاهم معك على إمكان الاستناد إلى الجيش.. فهذا الجيش هو جيش الشعب ولن يكون بأى حال جيشا للملك.. وعليكم أن تتخذوا أى موقف قوى.. وعلينا نحن أن نقف إلى جواركم..

ورأيت من فؤاد سراج الدين انطواء شديدا، ونظرت لمحت فيها بعض الشك والارتياب..

ولم يكن أمامي الا أن أندفع فى حماسي مبينا أخطاء الملك، وجرائمه حتى يطمئن إلينا.. ويتكلم..

وفعلا شعرت أن نظراته قد تغيرت... وبدأ يتكلم بصراحة أكثر كثيراً...

كان يحاول أن يعرف منى تفاصيل كاملة عن عدد الضباط ومدي استعداداتهم.

وحقيقة الثورة الكامنة في داخل الجيش..

ثم ترك موضوع الضباط، وراح يتكلم فى السياسة المصرية والأحزاب والوطنية والسياسيين...

وفجأة.. اعتدل فى جلسته، وسألني سؤالا.. لم أكن قد أعددت نفس للإجابة عليه بحال من الأحوال..

كأن سؤالاً ماكرا فى صيغته.. وفي طريقة المفاجأة التى وجهه بها إلى، فؤاد سراج الدين.

وليس مجال الصفحة اليوم متسعا لأكثر من هذا..

الفصل الحادى عشر

أوشكنا أن نقوم بالحركة فى مارس 1952[1]

إن المقابلة التى تمت بين فؤاد سراج الدين "باشا" وبين البكباشى أحمد أنور فى أواخر ديسمبر من عام 1951، والتي تركنا لأحمد أنور تسجيلها فى صفحتنا الأخيرة من هذه الصفحات، كانت من أهم المقابلات التى تمت قبيل ظهور حركة الجيش...

[1] نشر في العدد التاسع والثلاثين بعد المائة من "الجمهورية" الصادر في يوم السبت 24 أبريل 1954 - 21 شعبان 1373هـ

ولم تكن أهميتها عندنا ناجمة عن شعور منا بأهمية معاونة الوفد لنا فى حركتنا فقد كنا منذ مدة طويلة قد قررنا نهائيا أن ينفرد الجيش بالحركة دون تعاون مع أى هيئة سياسية أو غير سياسية خارج نطاقه.. ولكن هذه الأهمية جاءت من شعورنا بوجوب اكتشاف كل شبر من الأرض التى نمشى عليها، قبل أن نقدم على خطوتنا.

لقد كان جمال عبد الناصر قليل الأمل فى إمكان قبول الوفد لما نعرضه عليه.. ولكن هذا لم يمنعه من السعي إلى الوفد هذا السعي الحميد.. ولو أن الوفد قبل أن يكون الشرارة التى تطلق الثورة، لتغيرت ملامح كثيرة من تاريخ مصر الحديث.. ولكنه لم يقبل.. وسأترك للبكباشى أحمد أنور إتمام حديثه الذي نشرنا بدايته في الفصل السابق ليعرف القراء كيف كان تخاذل الوفد عن المضى فى الطريق الوحيد الذى كان يجب أن يمضى فيه.. وكيف أثر هذا التخاذل فى الأحداث المتلاحقة التى شاهدتها مصر فى مطلع عام 1952... والتى انتهت بظهور الثورة وانتهاء عهد الفساد..

قال البكباشى أحمد أنور...

كنت قد مهدت الجو تماما لكى يشعر فؤاد سراج الدين بملء الثقة فى شخصي فيتكلم ويفصح، ولا يخشي أن تكون هناك دسيسة أو مكيدة قد دبرت له.

وكان فؤاد سراج الدين قد بدأ يشعرني بأني أصبحت فعلا موضع ثقته.. وأخذ يتكلم بصراحة وحرية في موضوعات سياسية ووطنية محاولا إيهامي بأنه يذكر لى أسرارًا خطيرة لا ينبغي أن تذكر الا لمن يكونون في الموضع الأول من ثقة الرجل فيه..

وفجأة سألني السؤال الذي لم أكن قد توقعت أن يوجه إلى ولا أعددت نفسي للإجابة عليه..

قال لى فؤاد سراج الدين فى بساطة:

- مين تفتكر يصلح لقيادة الجيش؟

قال: قيادة الجيش.. ولم يقل قيادة الحركة.. وقالها فى بساطة لا مثيل لها وكأنه يسأل عن الصحة أو يتحدث عن حالة الطقس.

ولم أفهم أنا مغزى سؤاله إلا بعد انصراف من منزله.. عندما جلست أستعيد ما دار في الجلسة حرفا حرفا لكى أقدم تقريري إلى البكباشى جمال عبد الناصر.. فقد أدركت بعد إذ من وضع أسئلته المتناثرة سؤالًا إلى جوار الآخر أنه لم يكن يسألني مجرد سؤال برئ عمن أظنه أصلح من الفريق حيدر باشا لقيادة الجيش دائما كان يقصد تماما إلى معرفة رئيس حركة الضباط الأحرار.

أدركت هذا بعد خروجي من منزل سراج الدين.. وحمدت الله عند ذلك كثيراً.. فعلي الرغم من مفاجأته لى بهذا السؤال وعلى الرغم من جو الثقة الذى كان قد سيطر على الجلسة، وعلى الرغم من اللهجة البسيطة التى ألقى بها سؤاله فقد سيطر على، دون أن أدري لذلك سبباً، الحذر الطبيعي الذى كنا قد تعلمناه فى الفترة السابقة من الإعداد للحركة وكنت بالطبع فى مأزق..

فلابد لى أن أجيب.. وإلا فقدت ثقة الرجل التى أجهدت نفسي فى اكتسابها.. ولم يكن ممكنا أن أجيب لان شخص قائد كان لابد أن يظل سرا حبيسا لا يعلم به أحد.

ووجدت نفسي أختار إسم رجل بعيد كل البعد عن حركتنا رجل لا صلة له مطلقا بالضباط الأحرار ولا بتشكيلاتهم ولكنه فى الوقت نفسه شخصية يمكن إذا ذكرت ألا يقابل ذكرها فى هذا المقام بأي قدر من الارتياب..

وقلت له وكان ذلك بعد لحظات قصيرة جدا من سؤاله:

- أعتقد أن اللواء سيف الدين هو الذى يصلح اليوم لقيادة الجيش واللواء سيف هو سفير مصر اليوم فى عمان..

وهز سراج الدين رأسه وقال لى:

- اختيار موفق

ولم أفهم هذه الكلمة أيضا، فقد كنت لا أزال مأخوذا بالمأزق الذى وجدت فيه.. ويبدو أن سراج الدين قد سره أن عرف منى اسم "قائد حركة الضباط الأحرار" وأراد أن يضل عن طريقي إلى معلومات أخرى أعم وأشمل.. ولكنه كان فى كل كلمة حريصا وكان لا يسأل سؤاله إلا بعد أن يمهد له كثيرا.. هذا كله أدركته بعد انصرافي من منزله أما أثناء وجودي فقد كنت أحاول فقط أن أجيب على أسئلته وأن أعرف منه رأيه فيما جئت أعرضه عليه..

حيدر وطه حسين!

وبدأ سراج الدين تمهيده الطويل الثاني بالحديث عن الفريق حيدر باشا وكان طرق هذا الموضوع أمرا طبيعيا ما دمت قد حددت له أسم القائد الجديد..

فأخذ يتحدث عن انتخابات الناي الأولي، ثم قال:

- أنتم خذلتمونا في مسالة حيدر..

وكانت الحكومة قد قبلت استقالة حيدر باشا من قيادة الجيش على أثر التحقيقات التي أجريت فى قضية الأسلحة الفاسدة، ولكن الملك أعاده بعد ذلك رغم إرادة الحكومة.

وقال سراج الدين:

- لقد قلنا للملك أن إعاده حيدر ستؤدى إلى كارثة وأن الضباط جميعا سيثورون... ولكنه عندما أعاده، ثم ندبه عنه فى حضور حفلة نادى الضباط، صفق له الضباط طويلا فى حضور وزير الحربية الوفدى مصطفى نصرت مما أوجد الوزير فى حرج شديد، وشلنا فى موقفنا من الملك شللا كاملا.

وكانت هذه القصة قد وقعت بالفعل وكان تصنيف الضباط لحيدر هو أكبر لطمة وجهت إلى حكومة الوفد وأضعفت موقفها.

وأردت أن أطمئن سراج الدين، بإفهامه أن ما حدث لا يعبر مطلقا عن رأى الجيش.. وأن هذه المظاهرة قد افتعلها عدد معين من الضباط.. ثم قلت له..

- إننا لو أتينا بطه حسين وعيناه قائدا عاما لكان أحسن كثيرا فى منصبه من الفريق حيدر باشا.

ورأيت فؤاد الدين يبتسم، فاستطردت قائلا:

- لأنه - على الأقل - يفهم فى السياسة..

وضحك سراج الدين ثم قال:

- على كل حال أنتم صفقتم لحيدر.. وأحرجتمونا.

وفي الحال، قال لى:

- هل سمعتم عن اتجاه النية إلى التخلص من بعض الضباط؟

وكنا على علم بذلك فعلا فقد كانت هناك قائمة قد أعدت لطرد عدد من ضباط الجيش وكانت هذه القائمة تتضمن أسماء سبعة ضباط من تشكيلنا.

12 شيشكلى:

وقلت له: لقد سمعنا أن الملك قال لحيدر بغضب "إزاى تسيب 12 شيشكلى قاعدين في الجيش؟!"

وطرب سراج الدين لهذه الإجابة.. ثم سألني:

- زي مين ؟

ولما وجدني تلكأت فى الإجابة.. أستطرد هو قائلا:

- إنك تستطيع إذا عرفت الأسماء وكانت تهمكم أن تبلغني شخصيا بما تعرف.. فقد أستطيع أن أكون مفيداً!

وكنا نحن نعلم أن هناك مباراة بين الوفد وبين الملك فى السيطرة على الجيش.. وكان فؤاد سراج الدين يريد أن يعرف ما لدي من معلومات لكي يشعر الملك بأنه على علم بكل شيء ثم يستغل هذا فى الوصول إلى هدفه الذى يسعي إليه كثيراً.. وهو أن يكون وزير الحربية.. فقد كان همه فى تلك الأيام أن يقنع الملك بأنه إذا أصبح وزير للحربية لاستطاع أن يسيطر على الجيش تمام السيطرة..

من أنتم؟!

وعاد سراج الدين يؤكد لى استعداده لكى يكون مفيدا لنا إذا عرف منى أسماء من يهمنا أمرهم..

ولكنى فى هذه اللحظة كنت حاسما فقلت له على الفور:

- أرجو الا تهتم معاليك كثيرا بالأسماء.. ويكفى أن تتأكد من وجود قوة مخلصة كافية داخل الجيش.. وأنك أنت الذى تستطيع أن تعتمد علينا وأن تجدنا فى أي وقت إذا أردت منا مساهمة فعلية فى شد آزركم تجاه الملك، في أيه خطوة دستورية أو وطنية تريدون اتخاذها .

وطرق سراج الدين.. ثم قال:

- يعنى؟!

فأجبته:

- يعنى إننا نريد منكم بصراحة أن تتخذوا موقفا وطنيا شديدا من الملك.

فقال:

- إذا أقالنا الملك؟!

قلت له:

- تتمسكون بمركزكم وتتركون الباقي لنا.. فالجيش كله على استعداد للوقوف إلى جانبكم فى هذه الحالة وقوفا قويا فعالا مؤازرا..

وابتسم سراج الدين وهو مطرق.. ثم قال:

- ربنا يسهل.. وإن كان رأيي الصريح هو أن الجيش يجب أن يلزم شئونه الخاصة.

وانتهت المقابلة بذلك.. وتوجهت إلى البكباشى جمال عبد الناصر، فرويت له كل تفاصيلها..

اللعب على الحبلين:

ولنعد إلى حديث الحركة.. فقد درسنا موقف بعد ذلك على ضوء هذه الإجابة الواضحة من سراج الدين.. وعلمنا بوسائلنا الخاصة أن سراج الدين قد أخفى نبأ هذه المقابلة عن جميع وزراء الوفد فى ذلك الوقت.. وأنه أراد أن يبقى أمرها سرا بينه وبيننا.. وبين مصطفى النحاس..

والواقع أن هذا الموقف من الوفد قد أثر تأثيراً كبيراً فى الأيام التى تلت ذلك..

فقد كانت حوادث القنال تتفاهم يوما بعد يوم. وكان شباب مصر يقوم بأعمال عظيمة وهو أعزل من كل سلاح ألا وطنيته وأيمانه، وكان رجال البوليس يتحملون العبء الأكبر من أعباء الجهاد ضد الجيش كبير كامل التسلح.. وكان الموقف يفلت من يد حكومة الوفد يوما بعد يوم.. لمحاولتها السير فى اتجاهين واللعب على حبلين فى وقت واحد.. فقد كانت تساير الملك، وتعبئ الشعب.. والملك خائف من الشعب متآمر عليه، والشعب حانق على الملك ثائر عليه.. والحكومة تريد أن تسير فى هذين الاتجاهين المتناقضين.

ولم يكن لنا بد من الانتظار، لأن هذه الحكومة لا تريد أن تقف الموقف الحازم الذى يمكننا من التدخل واقرار الأمور، وإيقاف الملك عند حده، أو الإطاحة به، والسير بالكفاح في طريقه القويم.

وفجأة تغيرت الظروف جميعا بالمؤامرة الكبرى.. حريق القاهرة.. حدث هذا الحريق الذى أكل اقتصاديات البلاد، وأطاح بسمعتها ومكن القوى الرجعية من الانتكاس بانتفاضتها في لحظة واحدة دون انتظار ولا توقع من أحد..

وكيف كان لنا أن نتوقع حادثا كهذا..

لقد فوجئنا به.. واعترانا الوجوم أياما... ثم بدأت جميع حواسنا المعنوية والمادية تعمل معا، بصورة لم يسبق لها مثيل فى تشكيلنا..

كنا نريد أن يتبين الطريق، وأن نعرف كيف نضرب ضربتنا، بعد وقوع هذا الحادث وما تبعه من سوء الموقف الدولي لمصر، ومن خراب اقتصادي، وذهول شعبي، وانتكاس كامل، وسيطرت الرجعية بصورة لا مثيل لها على كل مرافق البلاد..

وبدأنا نلاحظ ونراقب..

فاروق ينتابه الذعر:

وكان أول ما استقرت عنده أفكارنا فترة معينة هو ذلك الذعر الذى انتاب فاروق، عقب الحادث مباشرة.. والتفكير المضطرب الذى كان ينساق به فى الصباح إلى غير ما ينساق به فى المساء.

لقد ذعر فاروق ذعرا شديدا.. وفكر فى الهرب من البلاد، وأعد نفسه للسفر فعلاً..

ووجدنا أنفسنا فى موقف من يجب أن يعد نفسه للعمل فى آيه لحظة، ومهما كانت الظروف والعقبات.

سنعمل وحدنا:

واجتمعنا، وحددنا موعدا تقريبيا لحركتنا شهر مارس 1952، أى بعد أيام قليلة من موعد ذلك الاجتماع.. ووضعنا خطتنا كاملة.. وكنا قد راعينا فيها الأساس الأول الذى اتفقنا عليه من بدء التدابير الأولي للحركة، وهو أن ينفرد الجيش بهذه الحركة انفرادا كاملا، دون الاعتماد على أيه هيئة أو جماعة أو حزب ففقد كانت اتصالات جمال عبد الناصر المتعددة مع جميع الهيئات، قد أثبتت لنا بصورة قاطعة أنه لا توجد هيئة واحدة على استعداد للقيام بأى عمل جدي إلى جانبنا..

واتخذنا هذا الموقف لأكثر من أسبوع.. موقف التأهب لتأمل للقيام بالحركة فى أي وقت..

ولكن الأسبوع الذى مر به بعد ذلك جدد أحداثا جديدة فى حياة البلاد فقد أقيلت وزارة على ماهر.. أو استقالت مرغمة.. وجاء شهر مارس بوزارة الهلالي، وبأسلوب جديد..

وهدأت مخاوف فاروق، وقرر البقاء فى البلاد.. ووجدنا أن فرصتنا تكون أكبر إذا انتظرنا قليلا حتى تنكشف الأمور، ويفيق الشعب من الذهول الذى أوجدته الأحداث فيه وهكذا قررنا تأجيل موعد الحركة الذى كنا قد حددنا له شهر مارس.. وكان هذا هو التأجيل الأخير..

الفصل الثانى عشر

صفعات للقصر فى معركة نادي الضباط[1]

مثلما كان حادث 26 يناير مفاجأة كبيرة لنا، فقد كان أيضا حافزا على ضرورة تحديد موعد الحركة بصورة نهائية، لان وقوع هذا الحادث كان إيذانا ببدء عهده من النكبات والكوارث، والإرهاب الملكي فى البلاد.

وكان لابد بالطبع أن يوضع حد لهذا الجو الذى وجدت مصر فيه، وكنا قد رتبنا أنفسنا على أن نضع هذا الحد. ومهما كانت عواقب المخاطرة.

ومع ذلك، فلم نكن عند وقوع حادث 26 يناير، نجهل حقيقة قوتنا.. فقد كنا كما أسلفت قد اختبرنا قوتنا جيدا عن طريق عملية الحصر الكاملة التى قام بها جمال وعبد الحكيم كما أننا كنا قد درسنا "تقدير الموقف" الذى قام به عبد الحكيم دراسة أقنعتنا أننا قادرون على العمل..

ولكن هذا لم يكن كل ما بين أيدينا.. فقد كنا قد خضنا تجربة ونجحنا فى أجزائها الأولي نجاحا أقنعنا تماما بأننا نستطيع أن نقود الجيش قيادة كاملة يوم نحدد القيام بالحركة..

[1] نشر في العدد التاسع والأربعين بعد المائة من "الجمهورية" الصادر في يوم الأربعاء 5 مايو 1954 - 2 رمضان 1373هـ

كما أن انتصارنا فى هذه التجربة، كان فى حد ذاته انتصارا للفكرة الشعبية بين الضباط، فكان انتصارا من النوع الذى يشحذ الهمة ويغري بمواصلة العمل..

كان كل ضابط يشعر أنه عمل عملا، ونجح فيه وفرض رأيه فرضا كاملا، وكان هذا وحده كفيلا بإذكاء النخوة، وإشعال الحماس.

ولم تكن التجربة التى خضناها معركة بسيطة.. بل كانت أضخم معركة واضحة مكشوفة بيننا وبين القصر.. كانت المعركة المعروفة بمعركة نادي الضباط.

ففى ديسمبر من كل عام، كان الضباط يجتمعون فى جمعية عمومية بناديهم، لانتخاب رئيس النادي وأعضاء مجلس إدارته.

وكانت جماعتنا فى ذلك الوقت قد فرغت تماما من اختيار القائد الذى يقود الثورة أمام الشعب، يوم تقوم المعركة.. وكان هذا القائد، كما قلت فى صفحة سابقة، هو اللواء أركان حرب محمد نجيب..

وعلى الرغم من أننا احتفظنا بهذا الاختيار سرا بيننا، فلم يعلن حتى الرجل نفسه.. فقد كان لابد مع اقتراب الزمن والموعد المبدئى الذى حددناه للحركة من أن نخطر اللواء نجيب بهذا الاختيار، وأن نسمع منه الموافقة على مشاركتنا هذا العمل الجريء.. كما كان لابد لنا أيضا أن نركز عليه الأضواء فى مناسبات مختلفة.. لكى تأتى قيادته لحركة الضباط أمرا عاديا طبيعيا منطقيا فى أعين الجميع..

ورأى جمال أن معركة انتخابات نادي الضباط هى أول فرصة يمكن أن تلقى بها أضواء كبيرة على شخص القائد.. وقررنا تبعا لذلك أخطاره بكل ما انتوينا القيام به، واشراكه فى عمليتنا الأولى إشراكا كاملا..

واخطرنا اللواء "نجيب" بما اعتزمناه.. ثم أبلغناه أننا سنرتب الأمر على ترشيحه رئيسا لنادى الضباط وعلى ترشيح فئة معينة من رجالنا لعضوية مجلس إدارة النادي..

لطمة للقصر:

وكان هذا العمل يحوى فى طياته أمرين:

الأمر الأول أننا أردنا أن نوجه لطمة واضحة قاسية للقصر.. إذ كان القصر مصرا على أن يكون رئيس النادي هو اللواء حسين سرى عامر قائد سلاح الحدود.. ولما كان حسين سرى عامر، هو الرجل الذى حل محل اللواء نجيب عندما رؤى إقصاؤه عن سلاح الحدود إلى سلاح المشاة، فقد كان ترشيحنا لنجيب، هو فى حد ذاته وبغض النظر عن كل نتائجه يعتبر تحديا صريحا لإرادة الملك..

واختيار لقوتنا:

أما الأمر الثاني، فهو أننا أردنا أن نقود معركة انتخابات النادي قيادة كاملة، لنعرف بالضبط مدى الحماس الذى تقابل به حركتنا، ومدي قوتنا بين الضباط. لا على أساس الحصر النظري... ولكن على أساس التجربة العملية الواضحة..

فالمعركة ستقوم بيننا وبين الملك.. ونحن نعرف ضباطنا.. ولكننا أيضا يجب أن نطمئن إلى مدي تحمسهم واندفاعهم في تأييدها عندما يصبح هذا التأييد خطرا صريحا يتهدد الضباط... وعندما تكون المعركة مكشوفة بين كل ضابط.. وبين القصر..

فالمعركة إذن - معركة النادي - ليست معركة مقصورة لذاتها، ولكنها معركة لها أهداف خفية أولها هدف ظاهر وهدف خفي.. فأما الظاهر فهو زلزلة الهيبة الملكية فى البلاد بأن يخوض الضباط معركة سافرة ضد الملك.. وأما الهدف الخفي أو الأهداف الخفية، فأهمها معرفة حقيقة قوتنا وتسليط أقوى مجموعة من الأضواء على شخص اللواء نجيب.. الرجل الذى تقرر أن يقود حركة الأحرار..

القصر يتدخل:

ويبدو أن إدارة الجيش ومخابرات القصر قد شمت إذ ذاك رائحة معينة، تفيد أن الضباط ينكتلون لإسقاط مرشح القصر فى انتخابات النادي..

وكان لا بد بالطبع أن يشيع هذا الأمر.. فانتخابات النادي مسالة علنية تستعمل فيها الدعايات، ويخوض حديثها الضباط.. ولا يمكن قصر عمليتها على الضباط الأحرار المنظمين فى التشكيل دون غيرهم.. ولكننا لم نكن نتوقع أن تكون استجابة القصر لنا أشيع سريعة وحاسمة بالصورة التى ظهرت بها..

فقد فوجئنا فى يوم من أيام شهر ديسمبر.. بقرار أصدرته رياسة الجيش بإلغاء انتخابات النادي وتأجيل موعدها إلى أجل غير مسمي...

بدء المقاومة:

وكان هذا القرار هو بدء التجربة...

كان رشاد مهنا إذ ذاك عضوا فى مجلس إدارة النادي القديم. وكان جمال عبد الناصر رغم ما يعرفه عن رشاد مهنا قبل ذلك، شديد الأمل فى أن يستطيع إدماج رشاد مهنا في معركة النادي بصورة واضحة..

فالتقى جمال برشاد.. ووجد منه تحمسا لمقاومة هذا القرار، الذى يعتبر لطمة موجهة إلى الضباط جميعاً..

وكان لابد إذن من مقاومة.. ومن أجراء خطير..

وجعلنا جمال.. وقال أن الضباط الأحرار لا يستطيعون صبرا بعد هـذا.. وأن أي تلكـؤ فى اتخاذ عمل إيجابي سريع ضد رغبات القصر قد يؤدي إلى انتكاس حماسة الأحرار.. ولابد لذلك من عقد الجمعية العمومية للضباط فى موعدها.. لابـد من أن يتم ذلـك رغم أنـف إدارة الجيش.. ولتكن فرصة تعرف فيها على وجه التحقيق.. مدي مـا لنـا من قـوة ومن تأثير..

وكـان البعض فى ذلـك الـوقت بعيـدا عن القـاهرة.. فقـد كـان عبـد الحكيم مثلا فى العريش..

وإذا بالمجموعة كلها تتلقى أوامر جمال عبد الناصـر، بأعـداد مناطقهـا فـورا.. والحضـور إلى القاهرة.. فى إجازات..

وتم ذلـك.. واكتملت المجموعـة الرئيسـية للأحـرار.. أو مـا عـرف بعـد ذلـك بمجلس القيادة... فى القاهرة.. وبدأنا نعمل.. بقيادة جمال عبد الناصر..

وفى الموعد المحـدد لاجتمـاع الجمعيـة العموميـة، تم الاجتمـاع. وقـرر الضـباط وجـوب تحديد موعد سريع لأجراء الانتخابات.. ثم انفضوا للاستعداد للمعركة..

كانت هذه أولى انتصاراتنا.. فقد كسبنا جولة كبيرة بعقد هـذا الاجتمـاع فى موعـده رغم أنف رياسة الجيش.. هى جولة معركة الثقة..

وبانتصارنا فى هذه الجولة شعر القصر بأنه أمام قوة ليس من السـهل عليـه أن يتلاعب بها وقرر رجاله أن خسارتهم للجولة الأولى يمكن أن تنقلب انتصارا فى الجولة الثانيـة.. والجولة الثانية هى أجراء الانتخابات فعلا، ونتيجة هذه الانتخابـات تحـدد المنتصـر وتحـدد المهزوم.

ويبدو أن القصر كان على يقين من انتصـاره.. وأنـه فى الـوقت نفسـه لم يكن قـد أعـد نفسه لتحدى شـعور الضـباط جميعـا بـالوقوف فى سـبيل أجـراء الانتخابـات.. وعلى أى حال، فقد حددت رياسة الجيش موعد الانتخابات بعـد شـهرين.. وبـدأت بـذلك المعركـة الانتخابية..

مصرع ضابط:

وفى خلال هذين الشهرين، وقع حادث 26 يناير المشئوم، وحادث اغتيال المرحـوم عبـد القادر طه المعروف..

وإن كان حادث حريق القاهرة قـد جـاء مفاجـأة مذهلـة لنـا بحيث لم نسـتطع أن نصـنع حياله شيئا.. فقد استطعنا إيذاء الملك إيذاء بالغا فى حادث اغتيال المرحوم عبد القــادر طه..

فلم يكد هذا الضابط يغتال، حتى أصدرت الرقابة أمرها بعدم نضر نبأ مصرعه في الصحف.. ومعني هذا الا تشعر البلد بجريمة كهذه تقع جهارا نهارا.. وبأيدي رجال السراي...

ولكن جمال لم يعبأ بمنع النشر، وإنما أصدر أمره إلى ضباط جميع الأسلحة بنعيه نعيا رسميا باسم أسلحتهم.. وصدر النعي.

وانتصاراتنا:

واجتمع الضباط فى الموعد المحدد لإجراء الانتخابات..

فكان أول ما صنعوه، هو اقتراح وقف الاجتماع خمس حقائق حدادا على مصرع الشهيد عبد القادر طه..

وكان هذا هو أول مظهر للتحدى فى داخل الاجتماع..

وجاءت الخطوة الثانية.. خطوة رفض تمثيل سلاح الحدود.. إذا بالأمر لا يكاد يعرض حتى يرفض.. وبالإجماع!

ثم جاءت الخطوة الثالثة.. وكانت نتائجها قد بدأت تكون مؤكدة بعد نجاحنا في الخطوتين الأوليين..

الانتخابات.. ونتيجة الانتخابات..

إجماع أو شبه إجماع على انتخاب محمد نجيب رئيسا للنادي وأغلبية ساحقة لمن شملتهم القائمة التى قد رشحنها.

ثم ما يوصف بأنه "ضربة معلم" إذ أننا رشحنا فى هذا الاجتماع الفريق حيدر باشا.. رئيس شرف للنادي فوافق الضباط بالإجماع...

وكان لهذا المرشح مغزاه وكان له معنوية أيضا.. فقد حطمنا به جبهة القصر تحطيما كاملاً.. إذ أن اللواء حسين سرى عامر ظن أن إقصاء سلاح الحدود قد تم بالاتفاق مع الفريق محمد حيدر.. أو بالتآمر معه كما قال، فذهب من فوره إلى الملك يشكو له من حيدر ويتهمه بأنه تآمر مع الضباط ضده وضد سلاح الحدود..

وفى الواقع أن اتخاذ القرار الإجماعي بعدم تمثيل سلاح الحدود قد أزعج القصر وأزعج حسين سرى عامر بصورة لا مثيل لها، فقد اعتبر حسين سرى عامر هذا الموقف صفعة علنية وجهت إليه من ضباط الجيش.

محاولات:

وظننا نحن أن المعركة يمكن أن تنتهي هكذا.. وأن هذه الهزائم المتتالية للقصر ورجالـه كفيلة بأن ترد لهم عقولهم، وأن تحـول بينهم وبين ارتكـاب حماقـات أخـرى تضـيف إلى هزائمهم هزائم جديدة.

ولكن ما قدرناه لم يكن هو الصواب..

فقد ركب القصر رأسه، وأخذته العزة بـالإثم، وأصـدر أمـره صـريحا قاطعـا إلى الفريق محمد حيدر بأن يتخذ أى إجراء يلزم لكى يظفر سـلاح الحـدود بمقعـد فى مجلس إدارة النـادي.. وأن عليـه فى حالـة فشـله فى ذلـك، أن يقـوم بحـل مجلس الإدارة المنتخب فورا..

صدرت هذه الأوامر لحيدر.. فأرسل فى طلب القائمقام رشاد مهنا، ثم أرسل في طلب اللواء محمـد نجيب رئيس النـادي.. وفى صـراحة ووضـوح بسـط لهمـا الموقـف كـاملا، وطلب منهما أن يعملا أى شئ لقبول عضو فى المجلس يمثـل سـلاح الحـدود.. واقـترح رشـاد مهنـا حلا للأشـكال قبـول عضـو مسـتمع فى المجلس ورفض محمـد نجيب هـذا الطلب، وقال إن هذا الأمر من حق الجمعية العمومية وحدها، وأنه لا يستطيع البت فيه.

وعاود الفريق محمد حيدر محاولته مع اللواء نجيب، وأفهمه أن قرار حل مجلس الإدارة معد فعلا.. وأن عليه أن يرى حلا للمسألة، وأن هذا الحل الذى اقتراحه رشاد مهنا يمكن أن يضع حدا لهذه الأزمة..

وقبل نجيب قبول عضو مستمع، مشترطا لذلك شرطي...

- موافقة مجلس إدارة النادي على ذلك..
- أن يكون هذا العضو مؤقتـا إلى أن تجتمـع الجمعيـة العموميـة للنـادي، وتقـر الأمـر أو تلغيه..

ثورة الضباط:

وكان انعقاد الجمعية العمومية للنادي، فى هذه المرة صفعة ثانيـة أليمـة للقصـر ولرجل القصر حسين سرى عامر.

ففى هذا الاجتماع خرج الضباط عن كل حد.. هاجموا القصر هجوما علنيا عنيفـا، وقـالوا أن النادي هو نادي الضباط وحدهم، وأنهم لن يسمحوا لقـوة كائنـة مـا كـانت أن تتـدخل في شئونه على أن أى وجه من الوجوه..

وفى فوره الحماس المتأجج والثورة العارمة.. أخذت الأصوات.. وإذا بالجمعية العمومية تقرر بالإجماع رفض قبول حسين سرى عامر كممثل لسلاح الحدود بالجيش.. وخروجـه فورا.. وتوجيه اللوم الشـديد لمجلس الإدارة على قبـول عضـو مسـتمع بـدون أخـذ رأى الجمعية العمومية لأعضاء النادي..

ولم يكن أحد يتصور أن يقف الضباط هذا الموقف العنيف الثائر..

كنا نعلم أنهم سيعارضون، وأنهم سيرفضون قبـول ممثـل سـلاح الحـدود ولكننـا لم نكن نتصور هذه الثورة، وهذا الكلام الجارح العلـني الموجـه للقصـر، وهـذا العنـف والتشـديد الذى يصل إلى حد توجيه الموم لمجلس غدارة النادي الذي أولوه ثقتهم الكاملة..

رشاد يهرب:

ويبدو أن رشاد مهنا بعد ذلك أحسن أن الموضع قد دخل فى دور جديد، هو دور التحـدى العلني بالفعل والقـول معـا.. وكـان رشـاد - فى الـوقت نفسـه - قليـل الثقـة فى نجـاح الثورة.. لأنه لم يكن يعلم حتى ذلك الـوقت بمـا اتخـذناه فعلا من الخطـوات.. ويبـدو أن هذه الزعزعة فى ثقته بإمكـان وقـوع ثـورة.. قـد دفعتـه إلى النـأى بنفسـه عن مواضـع الشبهات.. فقد فوجئنا ذات صباح بقرار صادر من مدير سلاح المدفعية بنقـل القائمقـام رشاد مهنا إلى العريش..

وكنـا نعتقـد أن رشـاد لابـد أن يبقى فى القـاهرة، وأنـه سـيكلف بـدور معين فى حركـة الأحرار.

وكان جمال فى ذلك الوقت قد بدأ يضع خطته النهائية.. فلمـا علم بهـذا القـرار.. تملكـه الضيق، وصـمم على إلغـاء هـذا النقـل.. واسـتعدى إليـه صـلاح سـالك، وكـان فى رفح، وطلب منه أن يذهب إلى حيدر ويحاول معه بأية وسيلة إلغاء هذا النقل، موهمـا إيـاه أن هذا النقل لابد أن يؤول بين الضباط كأنه بدء حركات انتقاميـة من أعضـاء مجلس إدارة النادي ذهب صلاح، وكلم حيدر فى الأمـر.. واتصـل حيـدر أمـام صـلاح وسـلاح المدفعيـة يسأله: "لماذا نقلت رشاد إلى العريش" وكيف لم تخطرنى بذلك!

إذا بالحقيقة المؤلمة تبدو سافرة فى لحظة واحدة.. فقـد أجـاب مـدير سـلاح المدفعيـة فورا بأن رشاد مهنا شخصيا هو الذى طلب هذا النقل.. واسـتأذن مـدير السـلاح الفريـق محمد حيدر في القدوم إليه فورا واطلاعه على الطلب المقدم من رشاد مهنا بنقله..

لكن صلاح لم يكن يستطيع أن يصدق ما يسمع، فأصـر على أن يـرى مـا.. وفى دقـائق، جاء مدير السلاح، ومعه طلب مقدم من رشاد مهنا بنقله إلى العريش!!

وكان هذا الموقف من رشاد مهنا سببا فى اتخاذ جمال عبد الناصر قـرارا بمـا، باسـتبعاد رشاد مهنا نهائيا من أى عمل إيجابي يقوم به الأحرار..

المراغى بعد حيدر:

على أن القصـر لم يكن قـد يئس بعـد.. فلم يكـد حيـدر يفضـل معنـا مسـائل التهديد والإقناع، حتى عاود القصر الاتصال بنجيب عن طريـق مرتضـى المـراغى وزيـر الحربيـة فى ذلك الوقت..

واستدعى المراغى نجيبا، وطلب منه أن يحل هذا الإشكال.. وألا يخرج من عنده إلا وقد وعده بأن يقنع الضباط بمسألة قبول حسين سرى عامر مجلس إدارة النادي..

وكنا على علم بما كلف به للمراغي.. آني لا أستطيع شيئا.. وان كنتم تريدون منى استقبل.. فلا مانع لدى!!

وكانت هذه هى أخر الجولات الخاصة بقبول حسين سرى عامر عضوا خلق إدارة النادي.. ولكنها لم تكن بأخر المعارك ولا آخر القصص.. فقد تلا هذا الموقف عدد من القصص المسلية التى كانت تظهر لنا اتجاهات القصر

ورجاله ومدى التخبط الذى أوقعوا فيه أنفسهم..

ولعل من ألطف القصص التى وقعت فى ذلك الوقت قصة شاركتنا فيها المطربة المعروفة.. شهرزاد..

ولابد من شئ من الترويح عنك أيها القارئ على كل حال...

كان سلاح المشاة قد دعا إلى أقامه حفلة ترفيه لجنوده.. وكان كما هو معروف هو مدير سلاح المشاة فى تلك الفترة..

ودعا نجيب إلى الحفل كلا من الفريق محمد حيدر، و"معالي" مرتضى المراغى "باشا".

وأذ كانت المنافسات إذ ذاك قد بلغت أشدها بين المراغي وبين حيدر.. فقد غضب حيدر لدعوة المراغى وقرر ألا يحضر الحفل..

وكانت مطربة الحفل هى المطربة شهرزاد..

وكان مقررا أن تذاع الحفلة.. وكانت محطة الإذاعة قد أرسلت آلاتها فعلا إلى مكانها.

وفجأة صدرت الأوامر من حيدر إلى محطة الإذاعة.. ووقع التفاهم بين حيدر وبين كريم ثابت.. بعدم إذاعة الحفل..

وبينما تتأهب شهرزاد للغناء على المسرح.. وجدن مذيع الإذاعة ومهندسيها يفكان الميكرفون.. ويرفعانه.. ويعودان به..

وسألت شهرزاد: ما الخبر؟!

قيل لها: تقرير الا تذاع الحفلة.

ولم تكن شهرزاد بالطبع تستطيع أن تفطن إلى أن هناك حركة فى الجيش تغضب القصر، وأن هذا الإجراء مقصود به مسائل سياسية من أى نوع كان وإنما كانت تفهم فقط أن الإذاعة قد استكثرت عليها أن تغنى من مكان عام.. وفى حفلة من حفلات الجيش على الخصوص..

بل لقد ذهبت بها الظنون ألف مذهب، وتصورت أن لبعض المطربات دخلا فى منع إذاعتها، وأن لبعض موظفي الإذاعة دخلا أيضا فى هذا المنع..

وبالطبع لم يكن هناك شئ من كل هذا.. ولكن أيضا لم يكن هناك يستطيع إقناع شهرزاد بأن تغنى أبداً.. فقد صممت على عدم الغناء، أنها مطربة لها كرامتها، ولها صوتها، وليست أقل من أحد.. وأما أن تمنع الإذاعة حفلتها.. أو لن تغنى أبداً...

أما نحن، فكنا جد حرصين على نجاح الحفل، رغم هذه الفعلة التى عملها حيدر.. وكان لابد من المصارحة.. مصارحة شهرزاد بكل شئ.. وسار أليها سبب.. وقال لها أن ما حدث لا صلة له بك ولا بغيرك من المطربات.. أنه لجنة مؤامرة تدبر لنا.. وأن الذين يدبرونها هم الكبار جداً.. وأنك تغنين اليوم إنما تغنين لأربعة آلاف ضابط وجندي، كلهم يسعدهم أن تفشل هذه المؤامرة..

ويا للمصرية الشجاعة المعاندة..

لم تكد شهرزاد تشعر أن هناك نوعا من التحدى للكبار جدا.. كما قال نجيب.. حتى أخذت الأمر مأخذا جديدا.. فقررت أن تغنى لا كما كان مفروضا فحسب.. ولكن إلى الصباح...

وغنت شهرزاد.. غنت إلى الصباح.. ثم سكتت.. ولعلها سكتت بعد ذلك طويلا عن الكلام المباح، لأنه عندما أقبل الصباح، لم يكن مباحا، بأى شكل من الأشكال..

الفصل الثالث عشر

الثورة ليلة التنفيذ[1]

كانت اللحظة الحاسمة تقترب بسرعة عظيمة.. وكانت هذه السرعة فى حد ذاتها خطرا مباشرا على كل من له صلة بمسرح الأحداث.. فالحوادث عندما تسرع وتتلاحق يخشى أن ينفلت زمامها، بحيث تتحكم هى فى الذين يصنعونها..

والحوادث أيضا عندما تسرع وتتلاحق، تكشف مكنونان النفوس وتجلو جواهرها..

وهكذا كانت أحداث شهر يوليو من عام 1952. الأحداث التى سبقت يوم الثورة.. كانت سريع متلاحقة، وكانت تجرى فى أكثر من اتجاه، وتجرف أمامها أكثر من تيار، وتنتاب بدوارها كل الرؤوس...

[1] نشر في العدد الخامس والخمسين بعد المائة من "الجمهورية" الصادر في يوم الثلاثاء 11 مايو 1954 - 8 رمضان 1373هـ

كان الملك فى حالة أقرب إلى الجنون.. فمنذ جاءت نتائج انتخابات النادي تحديا صريحا له، ومنذ وقف ضباط الجيش فى ناديهم ذلك الموقف المكشوف المعادي للملك، ومنذ بدت فيهم روح الاستهتار الذى لا حدود له بالعرش، وبالتالي بكل القوى التى كان العرش يستند إليها.. وخصوصا قوته البوليسية التى كان فاروق يمنحها كل ثقته.. منذ وقعت كل هذه الأحداث، والملك لا يقر له قرار..

ولم يكن تأثير هذه الحالة فى الملك يقتصر على تصرفاته الشخصية فحسب، ولا على علاقته بالجيش وقيادة الجيش فحسب، وإنما انعكست هذه الحالة على الموقف السياسى والموقف الوزاري.

فأصبح بقاء الوزير فى وزارته رهنا بما لديه من حلول لهذا الموقف، أو من آمال فى العثور على الحلول.

ولم يكن فى مصر كلها من يستطيع حل ذلك الموقف. ولذلك لم يكن وزير يبقى فى منصبه..

وفى هذه الدوامة الصاخبة، كنت قيادتنا تعمل فى صمت وهدوء وصبر واتزان.. كانت تعد لليوم الذى عرفه العالم كله، وسجله التاريخ.. يوم الثورة..

يوم الثورة...

والأيام التى سبقت يوم الثورة...

قد لا يكون مما يهم قراء هذه الصفحات أن أذكر لهم تفاصيل الخطة التنفيذية للثورة.. فهي تفاصيل عسكرية، كأي خطة عسكرية بسيطة توضع لاحتلال مدينة، أو إقرار وضع.

ولكن ما قبل ذلك اليوم وما بعده يهم كثيرا..

وملابسات التنفيذ فى تلك الليلة تهم أيضا كثيرا..

لان ما مر بنا فى تلك الأيام، وما مر بنا فى تلك الليلة بالذات، هو التاريخ الحقيقي للناس وللشعب، وللأوضاع التى سيطرت على البلاد حقبة طويلة من الزمن..

لكأن السنين جميعا كانت ترسب رواسبها مصفاة الزمن، لتتراكم هذه الرواسب كلها فى فترة قصيرة.. هى تلك التى سبق يوم 23 يوليو... وكأن صراع الشعب وآماله قد تجمعت أيضا خلال الأعوام الطويلة الكئيبة، كلى تقود خطى الجيش والشعب فى ذلك اليوم التاريخي المجيد.

وفى خلال كل ذلك تقع مفارقات، وحوادث صغيرة، وتصرفات شخصية قد نذكرها اليوم فنبتسم ونضحك، ونحمد الله.. ولكنها حين كانت تقع كانت تؤرق البال... حتى تنتهى!.

مع القصر وجها لوجه:

لقد كان القصر فى تلك الأيام لا يزال شاكا فى قدرتنا على القيام بحركة كاملة.. ولكنه كان يريد أن يبطش بنا، استعادة لمكانته التى رأى أنها اهتزت اهتزازا شديدا. وقطعا للطريق علينا، لأنه كان يعتقد أننا وأن كنا أضعف من أن نقوم بحركة كاملة فنحن على كل حال نستطيع أن نكون التمهيد الأول للحركة الكاملة..

كان هو يعتقد هذا.. وكنا نحن نغذى فيه ذلك الاعتقاد بالأساليب الكثيرة التي اتخذناها، لتضليله وتضليل رجاله فى القصر، وفى الجيش..

ولذلك كان يريد أن يفتك بنا وكان يدبر لهذا الفتك.. فى نفس الوقت الذى كنا نحن قد فرغنا تماما من وضع الخطة الحاسمة، للفتك به، بعرشه وحكم أسرته للبلاد...

ماذا بعد الثورة؟

كنا قد انتهينا من ذلك تماما.. وكنا لهذا قد بدأنا نفكر فيما بعد مرة أيضاً.. وكنا أيضا قد انتهينا إلى قرار...

ففيما يتعلق بالثورة نفسها، وبتنفيذ خطتنا، كان قرارنا هو أن ينفرد الجيش بكل شئ.. فقد قام جمال بالاتصالات كافية مع جميع الهيئات التى كان يمكن أن تكون عاملا مساعدا للثورة، وإذا بالنتيجة الوحيدة التى يخرج بها, هى أن الجيش يجب أن يتحمل وحده جميع أعباء التنفيذ. جميع الهيئات والأحزاب التى اتصل بها, قد أثبتت أنها غير جديرة بالثورة, ولا مستعدة لعمل أى شئ, بل على ما فيها من رجعية أصيلة وحده خليقا بدفعها إلى خيانة الثورة, ولو أنها استطاعت إلى ذلك سبيلا...

ومع ذلك فقد بقى علينا أن نفكر فيما بعد الثورة.. فيما يخلف التنفيذ ماذا نصنع؟

هل نحكم؟

هل نسلم الأمر للشعب يصرفه كيف يشاء؟

ومن الذى يتحمل مسئولية الحكم عندما نترك الأمر للشعب، ريثما يختار الشعب ممثليه؟

سؤال يقضى على السؤال الأول قضاء مبرما؟

فهل نسلم الأمر للسياسيين..؟

وأى السياسيين جدير بقيادة البلاد بعد الثورة؟

وعلى أي أساس يحكمون؟!

وجعلنا نقلب الأمور.. نضع كل فرض ثم ندور حوله، نتلمس أوجه القوة فيه وأوجه الضعف..

وينهار الفرض الأول، فنبحث عن الفرض الثانى...

وهكذا دراسة طويلة خرجنا منها بنتيجة واحدة هى:

أن الجيش لا يحكم، وإنما يقوم بالثورة، ثم يسلم البلاد للمدنيين فى اللحظة التى يفـرغ فيها من عمله الكبير..

أما كيف.. وأى أنواع المدنيين.. فلم نستطع أن نقرر شـيئا محـددا معينـا.. وإنمـا اكتفينـا بأن نقرر مبدئيا، أعادا البرلمان المحلول، وكان هو نفس برلمان سنة 1950، الذى جـاء بأغلبية وفدية، وترك الحكم لحزب الأغلبية يصرفه ريثما تجرى أول انتخابات نظيفــة في مصر..

مثل للسياسيين:

هذا هو القرار الذى استراحتا إليه، وشعرنا حياله بالعزة الكاملة، وروعة المثل الأعلى..

أليست ثورة على الأوضاع القديمة كلها...

فماذا كان الطابع المميز للأوضاع القديمة؟!

كان شيئا واحد ظاهرا.. الجهاد فى سبيل الحكم، لا الجهـاد فى سـبيل المثـل الأعلى، أو فى سبيل الصالح العام..

الأحزاب كانت هكذا..

والهيئات كانت هكذا..

والمستقلون والأفراد كانوا هكذا..

كل كان يسعى إلى الحكم، ليحقق به مصالح شخصية وحزبية.. وكل كـان يجعل الصـالح العام فى المرتبة الثانية على أقل تقدير..

ولذلك أردنا أن نضرب للشعب مثلا جديدا، أردنا أن تقـدم لـه صـورة جديـدة يـرى فيهـا وجوه أبنائه المخلصين، لا وجوه حكامه المفسدين..

أردنا أن نقول له، لقـد أنجبت أفـرادا يسـتطيعون أن يحـاكموا فى سـبيلك لا فى سـبيل أنفسهم.. وأن يصلوا إلى الحكم فى سبيلك لا فى سبيل أنفسهم.. ولكنهم لا يحكمـون.. لا يحكمون لأنهم - حقيقة - لم يعملوا فى سبيل الحكم، ولكن عملوا فى سـبيلك - ولـك أنت وحدك بعد ذلك أن تحكم، وأن تختار ما يحكمون.

لم يكن أحدا يترك الحكم مختارا.. فأردنا أن نتركه مختارين.. أن نتركه والشـعب يـدمى أيديه تصفيقا لنا، ودفعنا بنا إلى مقاعد الحكم.. أن نتركه وقد حققنـا الأمنيـة الأولى لكل مصرى عاش فى خلال القرن الأخير.. أمنية الخلاص من حكم أسرة محمد على وملـوك أسرة محمد على.

أردنا أن نضرب مثلا للسياسيين.. مثلا يقنعهم بالدليل الواقعى القاطع، بأن الوضع كله قد تغير.. تغير من أساسه إلى الحد الذى أصبح الحاكم يترك الحكم فيه فى يوم نصره الكبير..

أردنا أن نقول له، لقد أنجبت أفرادا يستطيعون أن يكافحوا فى سبيلك معا، مادام الحاكم لا يقصد به الا مصلحة الوطن، وأننا لذلك نترك كم أو نترفع عنه.. نأباه لأنفسنا لأننا لا نريد أن نحكم، وإنما نريد لمصر تحكم حكما صالحاً.. وأن تكون نحن بعض جنود هذا الحكم الصالح النزيه..

واعتقدنا أننا إذا فعلنا ذلك، فقد قضينا على كل أمل للسياسيين فى ينظروا إلى الحكم كوسيلة للكسب أو الإثراء أو استغلال النفوذ.. فإن مع المثل الصالح أمام أعينهم كفيل بدفعهم إلى احتذائه أو التمثيل به.

الخطأ الوحيد:

وكم كنا طيبي بسطاء.. وكم كنا متفائلين.

لقد قدرنا كل شئ من أعمالنا العسكرية، فأحسنا التقدير ولم نخطئ واحدة..

ولكننا قدرنا فى هذه المرة، فأخفقنا الواقع.. وغلب فينا التفاؤل على حقيقة الواقع..

عندما نصل إلى الحديث عما تلا الثورة من الأحداث، سيأتى تفصيل كاملا.. وسيعرف الناس لماذا حكم على ماهر شهرا، ولماذا تولينا، وكيف أردنا أن نعيد البرلمان القديم، وكيف قررنا إجراء الانتخابات فى فبراير 1953، أى بعد ستة أشهر فقط من الثورة..

كنا نريد أن نغلب الواقع الكريه على أمره. كنا نريد أن ننتصر على شئ حتى على خبث النفوس..

ولكن أخيرا.. وضح لنا أن المستحيل له وجود.. وأن نابليون لم يكن على حق أبدا!.

لكن هذا سنتركه اليوم.. نتركه كما تركناه يوم فكرنا فيه، ثم لم نستقر على رأى، حتى أدرنا عيوننا وجهة أخرى.. بدأنا نعد للتنفيذ، حسب الأحداث..

يوم مجيد:

وجاء يوم 23 يوليو، ليظهر لنا أشياء كثيرة.. ليظهر لنا أن تقديراتنا كانت صحيحة تماما.. وأن الله كان يرقب حركتنا، ويقدر لها معنا كل ما يكفل لها النجاح.. وأن الشعب كان كله فى انتظار القيادة التى تقوده إلى النصر... فينتصر..

ولعلى لست مستطيعا أن أؤرخ تاريخ شاهد العيان للأيام التى سبقت 23 يوليو مباشرة.. فقد كنت إذ ذاك فى رفح.. وعندما وصلنى الأمر من جمال بالعودة، عدت

مباشــرة، ولكــنى لم أكن أفطن أن الحركــة مــدبرة فى الليلــة نفســها.. ولعــل القــراء يدهشون إذا أروى لهم أنى جئت من السفر، وتوجهت مباشرة إلى أحدى دور الســينما.. فما أن عدت فى منتصف الليل إلى منزلى، حتى وجدت إشارة التنفيذ، فلم البث لحظة واحدة، وإنما مضيت من فورى إلى القيادة.

وهناك أصبحت نكتة تروى، ونادرة يتندر بها الإخوان...

فما أن يسأل واحد مهم فى أى من اجتماعاتنــا - حــتى اليــوم - أين أنــور حــتى نجــد من يجيب: فى السينما..

ولذلك اقتصر على ما رأيته، وما شاركت فيه قبيل الحركة واثنائها.

تهديد نجيب:

ولعل أخطر ما مر بنا قبيل الحركة، كان المحاولة الأخيرة من القصر، التى انتهت بقــرار حل مجلس إدارة النادى..

فقد أرسل القصر إلى نجيب تهديدات كثيرة بنقله من القاهرة.. وكان مغزى هذا النقــل، هو إجباره على الاستقالة، أو دفعه إليها.. كما وجــد من رؤســاء الــوزارات من حــاول أن يغريه بكرسى الوزير، وكان علينا أن نحافظ على بقائه ضابطا معنا، بعد أن استقر رأينــا على تكليفه بقيادة الثورة.

واجتمعنا فى تلك الأيام، وبحثنا الأمر، ثم توجه جمال إلى نجيب، وطلب منه ألا يســتقبل أبدا مهما هددوه ومهما صنعوا به، وأن يعمل على المحافظــة نفســه، وعلى مركــزه في الجيش، بأى ثمن وبأية وسيلة.. وطلب منه فى حالة عرض الوزارة عليه أن يرفضها..

وافق نجيب على ذلك.. وفعلا لم يخضــع لعوامــل التهديــد، ولا لعوامــل، ولم يقبــل شــيئا مطلقا..

كان لهذا الرفض طبعا عواقبه.. إذ ترتب عليه صدور القرار بحــل من إدارة النــادى، وأن يقوم محمد نجيب بتسليم النادى لأخيه، اللواء على نجيب.. على أن يتكــون للنــادى بعــد ذلك مجلس إدارة مؤقت..

هذه طبعا كانت الشرارة المباشرة المؤذنة بالحركة..

ذكريات:

فى يوم الحركة، لكل منا ذكريات... وذكريات..

فى ذلك اليوم نفسه، كان جمال وكمال الدين حسين - مثلا - لا يزالان أن بالتدريس فى كلية أركـان الحـرب فعلا.. ولم يبـد عليهمـا الضـباط أى ... رغم أن خطـة تنفيـذ الحركة نفسها، كان مستقرة مطمئنة فى جيب فى جمال..

يذكر كمال الدين حسـين، أنـه فى نفس يـوم 23 يوليـو ظهـرا، كـان ينـاقش فى طلبـة الكلية.. وأخذ الطلبة يسألونه أسئلة، إذا بـه يـذكر أن هنـاك مـا عليـه، أهم من مناقشـة الطلبـة، والإجابـة على أسـئلتهم فى ذلـك اليـوم مـا يتهـرب من إجابـاتهم، و"يكلفت الشرح" كلفتة" ظاهرة، وطلبته ودهش.. لان الذين يعرفون كمـال يعرفـون مـدى دقتـه واخلاصه لعلمه عنايته فيه بكل صغيرة وكبيرة..

ولكن هؤلاء الطلاب، رأوا كمال بعـد الحركـة لكى يحاسـبوه على هـذه "لفتـة" الـتى لم تغب عنهم، والتى لم يكونوا يدركون فى ظهر ذلك اليوم يجب فيه.. وكان يستغربون..

ولا يكاد كمال يذكر هذه القصة، حتى يذكر كيف خرج لأداء واجبه فى الليلة.. وليس معه سلاح.. فهو يروى أنه اتفق مع جمال على أن يزوده جمال ببعض الأسلحة ليخرج بها هـو ورجاله.. وتأتى ساعة التنفيذ، فلجا كمـال، أن جمـالا لن يسـتطيع تزويـده بالأسـلحة لأن المخزن الذى كان على أخذ السلاح منه كان مغلقا..

وقال كمال الدين حسين.. وتوكلت على الله واخذ رجاله معه، وليس معهم جميعا سوى طبنجة واحدة... ومضوا إلى سلاح المدفعية.. سلاح كمال.. ومن هنـاك أخـذ كـل ضـابط سلاحه، وخرجوا إلى عمليتهم.. إلى عمليتهم..

ومثل هذه الذكريات يذكرها الآخرون..

يذكر جمال سالك وصلاح سالم ذكريات من رفح ومن العريش...

موقف رشاد:

فقد كان جمال فى العريش، وكان صلاح فى رفح.. وإلى كليهمـا وكلت عمليـات الثـورة فى ذلك القطاع..

وكان أدق ما يواجههم هناك، هو وجود رشـاد مهنـا، الـذى كـان بـالعريش، ولم يكن على علم بشئ عن الثورة حتى تم تنفيذها فعلا.

وكان على جملا سالم أن يتولى هو قيادة العملية كلها هناك.. برغم أنه طيار، وأن صـلته ليست وثيقة بضباط الجيش بطبيعة الحال.

ويذكر جمال سالم أنه طلب معونة رشاد مهنا، فرفض أن يذهب فى تلـك الليلـة، رفض أن يذهب إلى قيادة القوة أو أن يظهر بأى صورة من الصور..

ولقد كان رشاد مهنا فعلا مشكلة لنا.. فقد كان التشكيل قد قرر عدم تكليفـه بـأى عمل من أعمال الأحرار.. وكان رشاد نفسه متباعدا نائيا بنفسه عن الشبهات، ولكنه مع ذلك،

كان قد اقنع عددا كبيرا من ضباط المدفعية، بأنه وراء كل إصلاح يجرى فى داخل الجيش، وكان قد كسب بذلك ثقتهم.. ولك لم يكن سهلا علينا أن ننزع هذه الثقة، لأن ظروف الثورة نفسها لم تكن تحتمل مجادلات، وكان هذا يعنى أن نحافظ على صلتنا برشاد، ودية سليمة، محافظة منها على القوة التى كانت تؤمن به، وتثق فيه..

وجاء.. فى موكب:

وعند ما نجحت الثورة فى القاهرة، أصدرت قيادتنا أوامرها رشاد بأن يبقى في العريش وأن يقوم بقيادة الفرقة هناك..

ولكن رشاد لم يخضع لهذا الأمر.. بل عاد إلى القاهرة فى يوم 25 يوليه، ودخل إلى القيادة فى موكب من الضباط والحرس، ثم سافرا إلى إسكندرية، ليحضر خروج الملك باعتباره مشتركا فى العملية وفى قيادتها..

اتقن رشاد دوره حتى ظن أكثر الضباط أنه عمود كبير جدا من أعمدة، وذهبوا يرددون ما كان يختلقه لنفسه من أدوار وهمية عظيمة..

ولا شك أن هذا التصرف قد أثر فينا فى ذلك اليوم فالمهم هو لنجاح الثورة فقط.

... أما جمال، فقد دعا إليه رشاد، وكلمه على انفراد، ولامه كثيرا هذا التصرف، حتى اعتذر رشاد.. وبكى..

وعيناه وصيا:

وعند خروج الملك، وبحث مسألة الوصاية قررنا تعيين رشاد مهنا على العرش.. وكانت أسباب هذا التعيين هى؟ أولا تعيين أحد الضباط وصيا على ألا يكون هذا الضابط من أعضاء مجلس القيادة مع نحتفظ بجماعتنا كاملة داخل المجلس.. وثانيا لأن رشاد كان بطبعه فى المظهر الكبير، وكان هذا المنصب كفيلا بإرضاء نزعاته..

وفعلا، علينا رشاد وزيرا للمواصلات تمهيدا لتعيينه وصيا..

وذهب جمال سالم إليه ليبلغه بذلك.. فإذا به - أى رشاد - يبكى وينتحب.. ويقول وهو يشرق الدموع.. أنا لا استحق كل هذا أنا منذ الآن، خادم المجلس.. وخادم الثورة..

قال هذا.. ولكن..

ولكن بينما كانت جماهير الشعب كله تهتف بحياة الثورة، وبينما تلقت أصواتها الحبيسة تطالب بل إصلاح، وتلعن عن فهمها لحقيقة صورة الكبيرة، وأنها لا يمكن أن تكون مجرد عملية لإخراج فاروق.. وبينما كان الكادحون يبثون آلامهم للقادة، والقادة يعلنون آمالهم للشعب كان رشاد مهنا، وطغمة الإقطاعيين والسياسيين، قد بدأوا فى نفس وقت يتآمرون على الثورة.. وعلى حقوق الشعب..

لقد نجحت الثورة. ولهم هم أن يكسبوا مغانمهـا.. أليس لكـل نـاجح أربـاح، وألم يكونـوا وحدهم الذين يستولون على الأرباح من الشعب؟..

وهذه قصة بدأنا بها المذكرات.. ولا بأس من أن نختمها بها أيضا..